
الشيخ الإمام داعية الإسلام
محمد متولي الشعراوي


الجهاد في الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله القائل فى كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[التوبة : ١١١] .

وصلوات الله وسلامه على رسوله محمد الصادق الوعد الأمين ، سيد المجاهدين ، وإمام الأنبياء وخاتم المرسلين ، وقائد الغر الميامين ، الذى جاهد فى الله حق جهاده ، بقلبه ولسانه ، بدعوته وبيانه ، ثم بسيفه وسنانه .

ورضى الله تبارك وتعالى على آله وصحبه ، الذين ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾، فرفع سبحانه فى العالمين ذكرهم ، وأعلى منزلتهم وقدرهم ، وأعظم لهم أجرهم .

ثم أما بعد .. فإن مبادئ الإسلام الرشيدة ، وشريعته السمحة السديدة ، وتعاليمه السامية ، أسست علاقة المسلمين بغيرهم على المسالمة والأمان ، لا على الحرب والقتال .

قال رب العزة سبحانه : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[البقرة : ٢٥٦] .

وما شُرِع الجهاد فى الإسلام إلا لدفع العدوان ، وكف الطغيان ، والتخلية بين الدعوة والناس ، وما كان يومًا لحمل الناس على اعتناق الإسلام ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[يونس : ٩٩] .

وقال ابن الجوزى ، قال أبو الوفاء ابن عقيل : يقول جُهَّال الملحدة : إنّ محمدًا بُعِثَ بالسيف . وهذا مُحال ، وإنما بعث بالبراهين والحجج ، فلما لم يقبلوا قتلوا بالسيف مكان عذاب الله للأمم السالفة (١) .

وفى هذا الكتاب نعايش لحظات الجهاد الأولى ، ونعايش نزول الوحى على قلب رسول الله ﷺ بآيات الجهاد فى الإسلام ، وتوجيهات النبى القائد لأمته ، تلك

(١) الوفا بأحوال المصطفى ﷺ [٢/٤٣٥] .

الأمة التى أمنها الله تعالى على الدفاع عن عقيدتها ، واصطفاها سبحانه من دون الأمم كلها لنُصرة الحق وإعلاء كلمة الله تعالى فى الأرض .

كما نعايش ثبات هذه الأمة على الحق وبذلها للغالى والنفيس ومفارقتها للأهل والمال والوطن ، وانخلاعها مما كانت فيه ، والتحامها بمنهج الله سبحانه وتعالى .. تعايش : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] . فكانت أهلاً لتزكية العلى القدير : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

عملنا فى هذا الكتاب :

١ – لما كان شيخنا الإمام لم يخص الجهاد بحديث مستقل فقد تتبعنا كلماته فى ثنايا أحاديثه وخواطره وجمعناها فى هذا الكتاب وجعلناها أعلا الصفحات .

٢ – عمل دراسة لآيات الجهاد فى كتب التفسير والحديث والسيرة وألحقناها بالكتاب كحاشية شارحة ومفصلة ومكملة لما قاله الشيخ حتى يكون الكتاب أشبه بدراسة موثقة لأحكام الجهاد عند الشيخ الشعراوى ومن سبقوه .

٣ – تحقيق الكتاب وتخريج أحاديثه وشرح الغريب ما أمكن ، وجعلناه قسمين :

القسم الأول : جهاد الرسول ﷺ .

القسم الثانى : غزوات الرسول ﷺ .

نسأل الله أن ينفع به قارئه وكاتبه وأن يجزل العطاء لشيخنا الإمام ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

غرة شهر المحـرم ١٤١٩هـ
الموافق ٢٧ إبريل ١٩٩٨م

خادم العلم الشريف
عبد الله حجاج

جهاد الرسول ﷺ

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة : ٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ [النساء : ٨٤] .

الإسلام والسيف؟

قال فضيلة الشيخ الامام محمد متولى الشعراوى: كثيراً ما يتردد هذا السؤال على ألسنة الناس، بل يزعم الكثير ممن فى قلوبهم مرض أن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف، وهذا زعم باطل يرده الواقع والتاريخ. والمسألة فى غاية الوضوح لمن أراد الفهم عن الله ورسوله ﷺ، أما المعاند والجاهل فلا نستطيع أن نهديه ولو كنا حريصين على ذلك؛ لأنه اختار غير طريق الهداية وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

نقول: المسألة فى غاية الوضوح؛ لأن النصرة لا تكون بالسيف فقط، وإلا فكيف آمن المسلمون الأوائل الذين هاجروا إلى الحبشة، وكذلك الذين جاءوا لبيعة العقبة الأولى والثانية، والذين هاجروا إلى المدينة، وكذلك الذين استقبلوا رسول الله ﷺ فى المدينة حين هاجر ﷺ إليهم.

ومنشأ هذا الزعم الخاطئ أن الله تعالى لم يطلب من أى رسول سابق على رسوله محمد ﷺ أن يجاهد فى سبيل وصول الدعوة إلى الناس؛ لأن الله سبحانه هو الذى تولى تأديب الخارجين على دينه، العاصين لرسله، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

كما لم يحدث قتال منذ أن أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض إلى أن بعث سبحانه رسوله محمداً ﷺ إلا مرة واحدة، وهى: عندما طلب بنو إسرائيل الإذن بقتال الذين أخرجوهم من ديارهم، ورغم ذلك تولوا عن القتال إلا قليلاً منهم.

ولكن فى الرسالة الخاتمة أذن الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأمته أن تحمل السيف؛ لتؤدب به الذين يحولون دون وصول العقيدة الصحيحة للناس. إن السيف لم يأت ليفرض العقيدة على الناس، إنما ليحمى الاختيار فى النفس الإنسانية، فبدلاً من أن يترك الناس مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة، اصطفى الله محمداً ﷺ وكلف أمته برفع السيف فى وجه الظالم القاهر لعباد الله ليخلُّوا بين الناس وبين اختيارهم، ومن ثم على العباد أن يختاروا عقيدتهم بكامل حريتهم بعد أن يتبينوا سبل الهدى والرشاد.

وعندما يردد أعداء القرآن القول الفاسد: إن الإسلام انتشر بالسيف. نرد عليهم - كما سبق وصدرنا به كلامنا: إن الذين آمنوا بالله تعالى وصدقوا برسوله ﷺ فى بدء الأمر كانوا ضعفاء لا يستطيعون الدفاع حتى عن أنفسهم، ولذا هاجر بعضهم إلى الحبشة بحثًا عن الحماية ومنهم من دخل فى حماية الأقوياء من أهل مكة.

إن رسول الله ﷺ بُعث فى أمة أُمية، ومن قبيلة لها شوكتها. وشاء الحق سبحانه ألا ينصر دينه بإسلام أقوياء قريش أولاً، بل آمن أول من آمن بالرسول ﷺ الضعفاء، ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وصار فى منعة وقوة. وقام مجتمع المسلمين الأول حين أذنَ الله تعالى للنبى ﷺ ومن معه أن يحملوا السيف لا لفرض العقيدة، ولكن لحماية حرية اختيار الناس للعقيدة الصحيحة.

ولو أن الإسلام انتشر بالسيف كم يزعم الأفاكون والكارهون لدين الله، فكيف نفسر وجود أبناء ديانات أخرى فى البلاد المسلمة ؟!

إذن.. فكل مسلم يمثل وحدة إيمانية مستقلة، وعليه أن يكون قدوة لغيره.

وواجب كل مسلم أن يعرف أنه كمؤمن بالله تعالى، وبدينه، ويتحتم عليه أن يلتزم السلوك الإيمانى فى حياته، إذ بالسلوك الإيمانى مكَّن الله للإسلام فى الأرض . إذن.. فكل مسلم عليه واجب ألا وهو أن لا يترك فى سلوكه ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام إلى الإسلام؛ ذلك أن اختلال توازن سلوك المسلم بالنسبة لمنهج الله هو ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام إلى شرع الله تعالى. ولذلك فالمفكرون والمنصفون من أهل الأديان الأخرى حينما يعتنقون الإسلام، إنما يعتنقونه لأنه منهج حق. يمحصونه بالعقل ويهتدون إليه بالفطرة الإيمانية. أما الذين يريدون الطعن فى الإسلام فهم ينظرون إلى سلوك بعض من المسلمين، فيجدون فيه من الثغرات ما يتهمون به الإسلام. ولكن المفكرين المنصفين يفرقون دائماً بين العقيدة وبين متبعى العقيدة.

أما الذين يذهبون إلى الإسلام من جهة أتباعه، فإن صادفوا مُتبعًا للإسلام ملتزمًا، دعاهم ذلك إلى أن يؤمنوا بالإسلام . ولذلك فالبلاد الإسلامية الكبيرة الآن والتى تضم غالبية سكانها من المسلمين هى بلاد دخلها الإسلام بالأسوة الإسلامية فى أفراد متبعين ملتزمين ، فراق للناس ما هم عليه من تقى وورع، ومن تصرفات مستقيمة، ومن أسلوب تعامل سمح، أمين، نزيه، نظيف. كل ذلك لفت الناس إلى الإسلام وجعلهم يتساءلون: ما الذى جعلكم على هذا السلوك الطيب؟ قالوا: لأننا مسلمون. وتساءل الناس فى تلك المجتمعات : ما معنى الإسلام؟ وبدأ المسلمون يشرحون لهم الإسلام.

إذن.. فالذى لفت الناس إلى الإسلام هو السلوك المنهجى الملتزم.

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣] .

والدعوة إلى الله تكون باللسان، والعمل الصالح. فالعمل الصالح هو شهادة للدعوة باللسان، ولا يكتفى المؤمن بذلك، إنما يعلن ويقول لمن يرونه على هذا السلوك السمح، الرضى، الطيب، إنها لفتة من ذاته إلى دينه. وهذه تفسر لنا كيف انتشر الإسلام بواسطة جماعة من التجار الذين كانوا يذهبون إلى كثير من البلاد، وتعاملوا مع الناس بأدب الإسلام وبوقار الإسلام وبورع الإسلام، فصار سلوكهم الملتزم مُلفتاً، وعندما يسألهم القوم عن السر فى سلوكهم الملتزم، يقول الواحد منهم : أنا لم أجئ بذلك من عندى ولكن من اتباعى لدين الإسلام الذى جاء من عند الله تعالى وبلغه النبى محمد ﷺ رسول الله للعالمين.

النبى محمد ﷺ رسول للناس جميعاً

أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق للناس كافة قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فى هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى أن رسالة رسوله ﷺ لا تقتصر على قوم دون قوم، بل هى لكافة الخلق (١)، إنها الرسالة الخاتمة، المصدقة لما قبلها من الرسالات، والناسخة لما قبلها من الشرائع.

إنها رسالة التوحيد والإيمان بالإله الواحد الذى لا إله إلا هو خالق كل شيء ومليكه، له سبحانه وحده الأمر والنهى، والكل عبيده، عليهم السمع والطاعة لله تعالى واتباع رسوله ﷺ ؛ من أطاع دخل الجنة ومن عصى فقد أبى، لا إله إلا هو له الحكم والأمر وإليه يُرجع كل شيء.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار». أخرجه مسلم [١٥٣/ ٢٤٠] واللفظ له، وأحمد فى المسند [٣١٧/٢].
وعن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال: قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحلت لى الغنائم، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة».
أخرجه البخارى [٤٣٨] واللفظ له، ومسلم [٥٢١/٣]، والنسائى فى المجتبى [٤٣٢].

تلك هى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الخاتمة للرسالات والمهيمنة عليها، والذى يجب على كل من يزعم الإيمان بالإله الواحد ويدعى التبعية لموسى، أو عيسى عليهما السلام أن يؤمن بها ويتبع رسولها ﷺ، وإلا فلا دين له، هكذا شاء الله تعالى وحكم ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]

لذا كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى يهود المدينة، ونصارى نجران، وغيرهم من أهل الكتاب أن يلتزموا بما جاء فى كتبهم السماوية المنزلة على رسلهم من الإيمان بالإله الواحد الأحد، وما فيها من البشارة برسالة النبى الخاتم محمد رسول الله ﷺ، وهذا جزء أصيل من إيمانهم.

إذ لو كان هؤلاء القوم صادقين مع أنفسهم، ملتزمين بما جاء فى منهجهم من توحيد الله تعالى والتصديق بكتبه، لآمنوا برسالة رسول الله ﷺ؛ وذلك لوجود البشارة بالرسول الخاتم، وأوصافه، وصفاته فى كتبهم التى بأيديهم ويدينون الله تعالى بها حتى ينجوا من عذاب الله فى اليوم الآخر: ولكن.. كان لأهل الكتاب من اليهود والنصارى موقف آخر.

يقول الحق سبحانه: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [البقرة: ٦٤].

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم ﴾ أى: أعرضتم؛ لأن «تولى» فى هذا السياق تأخذ معنى «أعرض» أى: ابتعد، ونحن نعرف أن الإعراض كان ابتعاداً عن منهج الله.(1) لقد تطلب منهج الله داعياً، فكان رسول الله ﷺ هو

(1) قال فى القاموس القويم للقرآن الكريم:

تولّى: أعرض وانصرف، وتولّى الأمر: قام به واهتم به، وتولى فلاناً: أحبه وناصره، وتولاّه: قام بشأنه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ [البقرة: ٢٠٥] أى انصرف عن القوم وانفرد بنفسه، أو: إذا تولى أمر الناس وصار أميراً والياً عليهم، =

الداعى، ومهمته ﷺ هى الدعوة إلى المنهج؛ والقوم الذين دعاهم ﷺ هم أهل الكتاب، فمنهم من أقبل على الدعوة، ومنهم من أعرض ونأى وأعطى ظهره للدعوة وابتعد عنها.

الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يدعو الذين يزعمون أنهم على دين موسى، أو على دين عيسى، عليهما السلام، كما جاء فى قوله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾. [٦٤]

ذلك هو القصص الحق الذى لامرية فيه، فليس فى الوجود إله آخر غير الله تعالى الذى خلق كل شىء، وأنه سبحانه هو المتفرد بالعزة فى ملكه والحكمة فى خلقه.

= وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦] أى: ومن ينصر الله ورسوله والمؤمنين فإنه يكون من حزب الله؛ وحزب الله هم الغالبون.

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١] أى الذى قام بإشاعة حديث الإفك وكبره ونشر أكبر قدر منه، وقوله: ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ [طه: ٦٠] أى: ذهب من مجلسه ليجمع السحرة، وقوله فى موسى- عليه السلام -: ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ [القصص: ٢٤] أى: ترك البئر وذهب إلى الظل، وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ [الأنعام: ١٢٩] أى: نحكم بعضهم فى بعض فيظلم بعضهم بعضاً، أو: نحبب بعضهم إلى بعض ليزدادوا ظلماً.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٢] أى: فمن أعرض ورجع إلى الكفر والضلال، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [البقرة: ٨٣] أى: أعرضتم. القاموس القويم: [٢/ ٣٥٩، ٣٦٠]

والحق تبارك وتعالى يأمر نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة التوحيد، والتى هى: إخلاص العبادة لله تعالى وحده دون شريك، وألا يخضع الناس إلا لأمر الله وحده؛ فالخضوع لا ينبغى أن يكون إلا للخالق عز وجل وحده، وألا يُحرِّم أحد على أحد شيئاً مما أحله الله ، وألا يحلِّل أحد شيئاً حرَّمه الله .

وإذا أعرض أهل الكتاب عن تلك الدعوة، فليقل الرسول محمد ﷺ والذين معه: اشهدوا بأننا مسلمون لله تعالى، طائعون لأمره ونهيه.

ونحن نعرف أن من يدعو أحداً أو يناديه يقول له: تعال، فالإنسان يقبل على تلك الدعوة بوجهه، أما الذى يرفضها، فإنه يتولى ويعرض، أى يعطى للدعوة ظهره.

ولا يترك الحق ذلك الإعراض دون أن ينبه إلى الحقيقة الجلية، الواضحة، وهى أن مجىء الرسول عليه الصلاة والسلام كنبى خاتم هو تجلٍ للرحمة والفضل. فالرسول محمد ﷺ هو رحمة الحق للخلق (١)، وفى رسالة رسول الله ﷺ ما يعصم الناس جميعاً- سواء كانوا أهل كتاب أم غير ذلك- من الزلل، ذلك الزلل الذى سببه تحريف الكتب السماوية السابقة على القرآن الكريم، والإعراض عن منهج الله تعالى.

إن من فضل الله تعالى على الناس بعثة النبى ﷺ؛ يقول ربنا جل وعلا: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

إن الإنسان الذى يرفض أو يُعرض عن رسالة رسول الله ﷺ إنما يرفض رحمة الله تعالى بالخلق(٢).

(١) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة».
صحيح الجامع الصغير: [٢٣٤٥].

(٢) قال ابن القيم: أصح القولين فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ =

كما أن الذى يصد عن تلك الرسالة، ويقف عثرة أمام تلك الدعوة إنما هو مانع لوصول الخير للناس، ومانع لرحمة الله أن تصل للناس. هذا الإنسان يجب التصدى له وإزاحته من طريق الدعوة حتى يُخلى بين الناس وبين دعوة الخير، ورحمة الله للخلق، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. فـ: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

= أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته: أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم فى تغليظ العذاب عليهم فى الدار الآخرة، وهم قد كُتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم فى الكفر، وأما المعاهدون له فعاشوا فى الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقنُ دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم فى التوارث وغيرها، وأما الأمم النائية عنه فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض. فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثانى: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنين قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها فى الدنيا والآخرة، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المريض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض.

جلاء الأفهام: [٩٨-٩٩]

جهاد الحجة والبيان

يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التحريم: ٩] معلوم أن الله تعالى لا يرسل رسولاً إلا إذا عم الفساد ودرس الإيمان. ومعلوم أن النفس الإنسانية فطرها الله تعالى على الخير، وإذا لم يتسلط عليها هواها فهى تفعل الخير وتحبه، فإن تمكن منها الهوى ستر عنها الخير، وفتح لها أبواب الشر[1].

وقد يطيع الإنسان هواه فى أمر من الأمور، أو يوقعه الشيطان فى معصية الرحمن الرحيم ثم يتذكر فتلومه نفسه على ما فعل، وهذه هى النفس اللوامة، التى تلوم صاحبها على عمل الشر وتحرضه على فعل الخير؛ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]

وهناك نفس تتعطل فيها ملكات الخير، فتعمل الشر ولا تندم عليه، ثم

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة. فأبواه يُهوِّدانه وينَصِّرانه ويُمجِّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

أخرجه البخارى [٤٧٧٥]، ومسلم: [٢٢/٢٦٥٨] واللفظ له.

وعن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته: «إن ربى عز وجل أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا: كل ما نحلته عبادى حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم..».

جزء من حديث أخرجه مسلم [٦٣/٢٨٦٥]، وأحمد فى المسند [٤ / ١٦٢] واللفظ له.

وعن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ قال: «اللهم آت نفسى تقواها، وزكِّها أنت خير من زكَّاها، أنت وليها ومولاها».

رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره [١٩٣٣٩].

تستمرئ تلك النفس الشر، فتصبح أمارة بالسوء، أى: لا تكتفى باقتراف الشر بل تأمر صاحبها به وتزينه له.

كما أن هناك النفس التى تطمئن لمنهج الله تعالى وتطيعه، وهذه هى النفس المطمئنة التى يقول فيها الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)﴾ [الفجر]

وإذا وجد فى المجتمع أصحاب النفوس المطمئنة واللوامة فاعلم أن هذا المجتمع بخير، فالنفس المطمئنة تُطيع وتأمر بالطاعة، والنفس اللوامة تلوم صاحبها وتنهاه عن فعل الشر.

ومعلوم أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة والعمل الصالح، وينقص بالمعصية [1]، ولكن فى المجتمع المؤمن تجد المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[2]، وإذا ضعف مؤمن وارتكب معصية أو مخالفة يسرع الآخر ليلومه على ضعفه ويصحح له مساره، ولأن نقاط الضعف مختلفة فهذا يأمر هذا وهذا يأمر هذا؛ وبهذا يستقيم المجتمع، ولذلك امتدحهم رب العزة سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر].

ولكن عندما تصدأ النفوس، ولا يبقى فى المجتمع من يأمر بمعروف وينهى عن منكر، ويتحول المنكر إلى معروف والمعروف إلى منكر، حينئذ يتدارك الله

---

(١) مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١].

(٢) أخرج مسلم [٦٦/٢٥٨٦] عن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

سبحانه وتعالى الناس برحمته، وينتشلهم من الضلال إلى الحق ومن الظلمات إلى النور.

إذن.. لا تأتى رسالة جديدة طالما هناك نفوس مطمئنة تسير على منهج الله، وتأمر بطاعته، أو مازال فى المجتمع نفوس لوَّامة، سواء فى الأشخاص أو فى المجتمع.. تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

ولكن إذا عم الفساد، ولم يوجد من ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف، يرسل الله تعالى الرسل؛ لتعيد الناس إلى عبادة الله تعالى وحده.

وبالطبع فإن الرسول يعلم أن أهل الفساد أغلبية، وهم أصحاب النفوذ والسلطان، المنتفعون بالفساد والانحراف فى المجتمع، وهؤلاء إذا سمعوا دعوة الحق فإنهم لن يقفوا مكتوفى الايدى، بل سيحاربون الرسول الذى يحمل منهج الحق إليهم، ولابد للرسول أن يصمد أمامهم وأن يجاهدهم.

وقوله تعالى: ﴿جَاهِدِ﴾ فاعل، مثل شارك، فأنت تشارك فلاناً، ومثل: قاتل، فأنت تقاتل فلاناً. إذن.. فلابد أن تحدث مفاعلة بين الرسول ﷺ والذين اتبعوه، وبين أئمة الكفر والفساد فى المجتمع.

والرسول ﷺ والمؤمنون معه لابد أن يعدوا أنفسهم على تحمل الإيذاء من غير المؤمنين بالمنهج؛ لأن الكفار كما قلنا منتفعون بالفساد، وحتى يستمر هذا الانتفاع، لابد أن يقف الكفار ضد حَمَلَة منهج الحق، ويقاوموهم؛ ليضمنوا لأنفسهم استمرار الميزات التى يعطيها لهم الباطل. لذلك فإن الله سبحانه وتعالى ينبه رسوله ﷺ بأن هؤلاء الكفار المنتفعين بالفساد سيحاربونه.

الله جل جلاله لم يقل لرسوله ﷺ: اتحد مع الكفار، ولكنه سبحانه قال ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾، أى: اصمد معهم فى المعركة.. دليل ذلك الآيات التى أمر فيها الله رسوله ﷺ والمؤمنين بالصبر على الجهاد. فقال سبحانه:

﴿اصْبِرُوا﴾ ولكن لنفرض أن عَدُوِّى صبر أيضاً فى الحرب، فإن أنا صبرت وعدوى صبر تساوت الكفتان.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] أى: إن واجهكم عدوكم بالصبر فليكن صبركم أقوى منه؛ أى: اغلبوه بالصبر وقوة التحمل.

الحق جل جلاله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ الكافر: هو الذى جحد الإيمان بقلبه وأعلن الكفر بلسانه(١)، وأظهر عداوته للإسلام وأهله بالقول والعمل ولذلك فنحن نعرف أنه عدو ونحذر منه ونواجهه.

أما المنافق: فهو كافر فى باطنه، مؤمن فى ظاهره(٢)، وهذا هو الذى نخاف

---

(١) وكفر بالله، وكفر الله: أنكر وجوده، وكفر بالرسول: لم يصدقه، وكفر بكتاب الله: لم يصدق أنه من عند الله، وكفر بالإيمان: لم يعمل بما يستلزمه، وكفر الرجل حقه: حرمه إياه وأنكر عليه، وقوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] أى: تبرأت من إشراككم إياى مع الله.
وكَفَر الشىء: ستره وغطاه، وهو أصل المادة فكأن الكافر يستر النعمة، ويستر الحق ويخفيه.
كَفَّرَ الله السيئات: سترها ومحاها ولم يعاقب عليها.
والكافر: غير مؤمن، وهى كافرة. وجمع الكافر: كافرون، وكفار، وكفرة.
القاموس القويم للقرآن الكريم [٢/ ١٦٤، ١٦٥] بتصرف.

(٢) نافق: أظهر للناس غير ما يضمر، وأطلق المنافق فى صدر الإسلام على من أظهر الإسلام وأضمر الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ والنفاق: مصدر نافق: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: ٧٧] كثعلبة مانع الزكاة.
والنفق: طريق مستور كالجحر فى الأرض ينفذ إلى موضع آخر، والجمع: أنفاق، قال تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥] القاموس القويم للقرآن الكريم [٢/ ٢٨٠] بتصرف.

منه؛ لأننا لا نعرفه فنتقى شره، بل قد يطعننا من الخلف ونحن مطمئنون إليه، فتكون طعنته مؤثرة وأليمة.

وإذا كان المنافق عدوًا صعبًا؛ فإن النفاق فى ذاته بالنسبة لمنهج الله دليل قوة هذا المنهج؛ لأنه لا يُنافق إلا القوى، أما الضعيف فلا يُنافقه أحد. ولذلك لم يكن هناك منافقون والنبى ﷺ فى مكة؛ لأن المسلمين كانوا قلة وكانوا ضعفاء، وكانوا معذبين مضطهدين. ولذلك لم يكن هناك ما يغرى أحداً على نفاقهم؛ لأنه ماذا يستفيد من هذا النفاق؟، إنه سيتعرض للتعذيب والاضطهاد.

والمنافق فى إظهاره غير ما يبطن إنما يحقق لنفسه مصلحة ذاتية. وبالطبع لا مصلحة له فى نفاق أناس ضعفاء، ولكن عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ظهر المنافقون؛ لأنه أصبح للإسلام دولة وقوة، فالمنافق هنا: يتظاهر بالإيمان ليستفيد من هذه القوة لصالحه.

والحق سبحانه وتعالى قدم فى هذه الآية ذكر الكفار على المنافقين، وقدم فى آيات أخرى ذكر المنافقين على الكفار؛ لأن الصدام سيحدث هنا أولاً مع الكفار، فكما قلنا كان فى أول الدعوة لا يوجد منافقون، وإنما يوجد مؤمنون. لذلك كانت أولى مراحل الجهاد هى الجهاد بالحُجة؛ وذلك بأن يعرض الرسول ﷺ عليهم الإيمان عرضاً منطقيًا عقليًا؛ لعل عقولهم تفيق فيؤمنون بالإله الواحد الأحد الذى لا إله إلا هو سبحانه وتعالى، فيسألهم مثلاً: من الذى خلق السماوات والأرض؟ وحين يديرها الكافر فى عقله لا يجد أن أحداً ادعى، أو يستطيع أن يدعى أنه خلق السماوات والأرض، فلا يكون جوابهم إلا ان الخالق هو الله سبحانه وتعالى[1].. لماذا ؟ لأن الإنسان فى تكوينه قد يدعى أشياء ليست له، ولكنه لا ينفى شيئاً هو صاحبه. فمخترع أى شىء مثلاً أو صانعه لا يمكن أن ينفى أنه صنع أو اخترع، بل هو يحب أن تعرف الدنيا

(1) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

كلها، من الذى فعل ومن الذى صنع. لذلك لا تجد شيئًا يُنتفع به فى الكون مهما كان قدره إلا عرفنا تاريخه، ومن أين جاء، ومن الذى اخترعه أو اكتشفه أو صنعه. لذلك فى المدارس يعلمون الطلبة من الذى اكتشف الكهرباء، ومن الذى صنع المصباح الكهربائى، ومن الذى طوره. كما أن مخترع الطائرة، أو الهاتف.. إلخ. معروف ومشهور، ومعروف أيضاً كيف نشأت فكرة الطيران بعباس بن فرناس الذى حاول الطيران بذاته بواسطة أجنحة كبيرة، وهكذا كانت البداية.

إذن.. فكل شىء فى الكون مُكتشف أو مصنوع أو مُخترع معروف من الذى اكتشفه أو صنعه أو اخترعه. فإذا كان هذا بالنسبة للصناعات البشرية المحدودة.. فما بالك بالنسبة للكون العظيم الهائل؟ وإذا كنا نعرف من الذى أوجد مصباح الكهرباء، أليس من الأولى أن نعرف من الذى خلق الشمس؟! إذا كان مصباح الكهرباء الذى ينير حجرة محدودة لوقت محدود، قد ملئوا الدنيا ضجيجاً عن مخترعه، وقامت مصانع كبيرة لتنتج هذا الاختراع، أيكون الذى خلق الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية فى نفس اللحظة لم يخبرنا عن نفسه؟! هذه الشمس التى تشرق منذ ملايين السنين ولم تنطفئ مرة واحدة، ولا احتاجت حتى قطعة غيار طوال هذا العمر الطويل.

إذن.. لابد أن يكون لها خالق وموجد، هذا الخالق لابد وأن تكون له القوة والقدرة التى بها خلق هذا الكون الهائل بما فيه تلك الشمس العظيمة الفائدة، التى تشرق على الأرض من ملايين السنين ولم تتمرد يوماً على خالقها العظيم سبحانه، فإذا جاء الرسول ﷺ وقال: إن الله هو الذى خلق الشمس، فإما أن نصدقه، فنُسلم جميعًا بأن الله هو الخالق والموجد، وإما أن نقول: لا.. إن فلانًا هو الذى خلقها!! ولما لم يكن هناك من ادعى خلق الشمس فلا مناص من التسليم لله تعالى، وهكذا فى بقية مخلوقات الكون.

إن دقة وإعجاز الخلق الذى لا يمكن أن تصل إليه قوة بشرية، أو قوى بشرية

مجتمعة متعاونة .. وكذلك عدم وجود مدعٍ، جعل القضية محسومة لله سبحانه وتعالى.

الرسول ﷺ يلفت العقول إلى أن خالق الأرض والسماوات والكون والشمس هو الله جل جلاله، حينئذ تنتبه العقول إلى أن من أوجد هذا الكون من عدم وعلى غير مثال سابق له قوة بلا حدود، وقدرة بلا قيود، وهو سبحانه الأحق بالعبادة وحده، وليست هذه الأصنام والآلهة التى يعبدونها من دون الله تعالى.

وتمضى الدعوة بالمنطق فيسألون من الذى خلقهم؟: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥] فإذا كان الجواب لا هذه ولا تلك.

إذن.. فلابد أن يكون هناك خالق ومُوجد لنا، فإذا جاءنا الرسول ﷺ وقال لنا: إن خالق هذا الكون وخالقنا هو الله سبحانه وتعالى. علينا أن نصدقه؛ لأنه لم يدَّعِ أحد ولا يستطيع أن يدعى أنه خلق هذا الكون.

فإذا وصلنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى هو الخالق والمُوجد. يثور سؤال: من الذى له حق وضع المنهج الذى يهتدى به الإنسان على الأرض؟

إن الذى له حق وضع المنهج للإنسان على الأرض هو خالقه ومُوجده عز وجل، تماماً كما يكون أقدر من يضع الطريقة التى تعمل بها الآلة هو صانعها، فهو يعلم ما يصلحها وما يفسدها، وهذا الصانع يجعل لصنعته «كتالوج» فيه ما يحفظ هذه الصنعة من العطب وكذلك طريقة التشغيل.. إلخ.

ولذلك فأنت تعطى الساعة لمتخصص فى إصلاح الساعات، والثلاجة لمتخصص فى إصلاح الثلاجات. وكل هؤلاء قد درسوا عن الصانع الأصلى، أو من خلال هذا «الكتالوج» الذى وضعه لصيانة سلعته.

ولكن ماذا يمكن أن يحدث لو أنك جئت بنجار ليصلح الثلاجة مثلاً! أيستطيع أن يصلحها؟!

إذن.. فما دام لله سبحانه وتعالى منهج فلابد أن نتبعه؛ لأنه جل جلاله هو الذى أوجد هذا الكون العظيم بما فيه، وهو سبحانه خالقنا، ويعلم ماذا يصلحنا وماذا يفسدنا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]

ولكن إذا لم يستمع الكفار إلى لغة المنطق وحوار العقل، ما العمل؟ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ بماذا يغلظ رسول الله ﷺ عليهم؟ بالمصير الذى ينتظرهم، فكل كافر هو عابد للدنيا؛ غافل عن الآخرة وما ينتظره فيها، فيكون لزاماً على الداعى أن يُذكره بمصيره المحتوم ورجوعه إلى الله خالقه وموجده، وينذره بالنار، ويخوفه من العذاب الذى ينتظره إذا لقى الله وهو كافر به عاص لرسوله مكذب بدينه، ويُقال له مثلاً: أنت لست خالداً فى الدنيا، وينتظرك فى الآخرة عذاب أليم نتيجة لإعراضك عن منهج الله تعالى، وتكذيبك برسوله ﷺ، ولا تغرنك الدنيا؛ فنعيمها إلى زوال لا محال وإن طال. ذلك أن الكافر يخاف أن تضيع منه الدنيا. ولكن المؤمن يعرف أن الدنيا مزرعة للآخرة وأنه مهما عمّر فى هذه الدنيا فهو - ولابد - سائر إلى الآخرة، ويطمع فى رضا الله سبحانه والفوز بالجنة. ولذلك فإن كتب الحديث والسيرة تحفظ لنا عن الرعيل الأول من المجاهدين أن الواحد منهم كان يقول للرسول ﷺ أثناء المعركة: ادعُ لى يا رسول الله لأستشهد. ويقول آخر: أليس بينى وبين دخول الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلونى؟ فيقول له رسول الله ﷺ: «نعم»، فيُلقى الرجل بتمرة كان يأكلها وينطلق إلى المعركة ويستشهد (١).

هذا هو معنى الإيمان الذى فهمه الأوائل، ذلك لأنه لو لم يكن المؤمن واثقاً

---

(١) عن أنس بن مالك، رضى الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بُسَيْسة عيناً ينظر ما صنعت عير أبى سفيان. إلى أن قال: فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر. وجاء المشركون. فقال رسول الله ﷺ: «لايقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه». فدنا المشركون. فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» قال: يقول عمير بن الحمام الأنصارى: يا رسول الله! =

تمام الثقة، أنه بمجرد أن يقتله الكافر سيذهب إلى جوار ربه فى نعيم ليس بعده نعيم، لما انطلق إلى المعركة مجاهداً فى سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وطالباً الشهادة فى سبيل ذلك.

إذن.. فرؤية الكفار للمؤمنين وهم يقدمون على الشهادة بهذه الشجاعة، تهزهم من داخلهم؛ وتلقى فى قلوبهم الرعب لأنهم يحسون بأن المؤمن على ثقة أكيدة من حياة الآخرة ومن نعيم الجنة الخالد الذى لا يفنى أبداً.

وقوله تعالى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أى أنذرهم بالعذاب الرهيب الذى ينتظرهم لعلهم يرجعون (١). والحجة والمنطق هما الطريق الذى انتشرت به الدعوة الإسلامية. ذلك أن بعض الناس يدعى أن الإسلام انتشر بالسيف، وهذا غير حقيقى، فإجبار الناس على دخول الإسلام مخالف لمنهج الله فى قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] ولكن لابد لكل من يدخل الإسلام أن يكون مقتنعاً بهذا الدين، ومقتنعاً أيضاً أنه الحق؛ ولذلك فإن الذين

= جنة عرضها السماوات والأرض! قال: «نعم». قال: بخ بخ فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنه. فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه، إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل. أخرجه مسلم [١٩٠١/ ١٤٥].

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩] فيه مسألة واحدة: وهو التشديد فى دين الله. فأمره أن يجاهد الكفار بالسيف والمواعظ الحسنة والدعاء إلى الله، والمنافقين بالغلظة وإقامة الحجة، وأن يعرِّفهم أحوالهم فى الآخرة، وأنهم لا نور لهم يجوزون به الصراط مع المؤمنين.
وقال الحسن: أى جاهدهم بإقامة الحدود عليهم؛ فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود. وكانت الحدود تقام عليهم. ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يرجع إلى الصنفين. ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى المرجع.
تفسير القرطبى: [١٨ / ٢٠١].

يقولون: إن الدعوة الإسلامية انتشرت بالسيف، نقول لهم لم يكن السيف لإجبار أحد على اعتناق الإسلام. ولكن لضمان حرية الرأى والتخلية بين الناس والدعوة إلى الله تعالى، ثم بعد ذلك كل إنسان له مطلق الحرية فى أن يؤمن أولا يؤمن.

والذى لا يؤمن بعد ذلك يعيش فى كنف الأمة الإسلامية تحمى له حريته فى العقيدة، وتؤمِّن له ولأولاده وأحفاده حياتهم وفق ما شرعه الله تعالى. وما دام الإيمان بالله تعالى هو الذى يحكم حركة الحياة، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ لأن حرية العقيدة فى الإسلام أصل من أصوله قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. ولأن الله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين، ولكى يكون الحساب عدلاً، لابد من البلاغ أولاً، أى: أن تصل الدعوة إلى آذان الناس، ومتى وصلت رسالة محمد ﷺ، دون عائق أو صاد، فالإيمان بها متروك لحرية كل شخص.

الله جل جلاله طلب من رسوله ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين، أولاً بالدعوة بالبرهان والإقناع، فإن لم يقتنعوا فبالإغلاظ عليهم.

وفى شأن المنافقين أمره سبحانه ألا تأخذه فى عقابهم رأفة؛ لأن الرأفة قد تغرى بالذنب، فعندما يسرق الإنسان ثم تتركه بلا عقاب، فإن ذلك يغريه ويغرى غيره على السرقة، ولكن العقوبة لو أقيمت ولو مرة واحدة لكانت رادعاً وحماية للمجتمع كله، ولذلك نقول: إن عقاب القاتل بالقتل أنفى للقتل ومانع له.. لماذا؟ لأنك إذا أتيت بالقاتل وقتلته، وشهد عدد من الناس تنفيذ العقوبة، فإنه لو كان يدور فى خلد أحدهم أن يقتل، فإنه سيمتنع عن القتل ليُبقى حياته، واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وكذلك فى السرقة، ليس الهدف أن أقطع يداً، ولكن الهدف هو ألا يسرق

أحد. ولذلك حين تثبت الجريمة سواء بالاعتراف أو شهادة الشهود، إياك أن تأخذك العاطفة فى تنفيذ ما شُرع من عقاب؛ دليل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

والذين يشككون فى العقوبات فى الإسلام، نقول لهم: هل هناك مجتمع ليس فيه عقوبات؟ حتى إذا كان هذا المجتمع مجتمعاً لا يؤمن بالأديان، لابد أن يكون فى كل مجتمع عقوبات، ولكن لا عقوبة إلا بتجريم، ولا تجريم إلا بنص.

إذن.. فكل دولة أيًا كان نظامها وكل مجتمع أيًا كانت هويته، لابد أن تكون فيه عقوبات، وإلا أصبحت الحياة فوضى، يستحيل معها العيش فى أمان. فإذا كان حكام الدول على اختلاف دينهم ومذاهبهم يضعون ضمن قوانينهم العقوبات لمن يخرج على نظامهم، فلا يعارضهم أحد مع أنهم لم يخلقوا هذا الخلق الذى يحكمونه ولا يعرفون ما يصلحه على الحقيقة، حتى إذا علموا شيئًا غابت عنهم أشياء؛ لذلك تجد المادة الواحدة فى القانون الوضعى تتغير وتتعدل أكثر من مرة ويُعطى لها أكثر من تفسير. وفى النهاية يُسَنُّ تشريع جديد وقانون جديد؛ لأن القديم أصبح لا يفى بمتطلبات العصر الذى يعيش فيه الناس، وهذا دليل على العجز بما سيكون، وعدم المعرفة بالغيب الذى سيأتى. ولا خروج من هذا إلا باتباع شرع الله الذى خلق وقدر، ويعلم ما كان وما سيكون، سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة.

الحق تبارك وتعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فإذا كنا علمنا أن جهاد الكفار: بالدعوة والإقناع، ثم بالقتال عندما يقف أئمة الكفر عقبة فى سبيل وصول الدعوة إلى الناس، فكيف يكون الجهاد مع المنافقين وهم يتظاهرون بالإيمان؟

نقول: إن أول مراحل الجهاد معهم هو توقيع العقاب عليهم. وقد كان المنافقون يقترفون الإثم، وإذا سألهم رسول الله ﷺ ينكرون فيصفح عنهم. فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن: ﴿اغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا اقترفوا معصية أو إثماً. ولذلك نجد فى آيات القرآن الكريم ما يدل على أن المنافقين يحلفون كذباً فى كثير من الأمور؛ منها فى سورة التوبة:

قول سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

وفى سورة المجادلة يقول الله جل جلاله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤] فكأنهم كلما حلفوا صدقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، فكشفهم الله تعالى لرسوله ﷺ وأخبره بأنهم كاذبون، وأمره سبحانه أن يغلظ عليهم فى العقوبة.

ولكن هل غلظة الرسول ﷺ معهم تعفيهم من عقاب الآخرة؟ نقول: لا؛ الغلظة عليهم فى الدنيا لضمان سلامة حركة الحياة.

إن هؤلاء المنافقين أشر على المسلمين من الكافرين، لماذا؟ لأنهم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، لذلك إلى جانب إقامة الحدود عليهم فى الدنيا، لهم فى الآخرة الخزى والعذاب الشديد، وهل هناك خزى وعذاب أشد من أن يكونوا فى الدرك الأسفل من النار. خالدين فيها أبداً. نسأل الله تعالى العفو والسلامة[1].

(١) فى كتابه طريق الهجرتين تحت عنوان: طبقات المكلفين فى الدار الآخرة، الطبقة =

= الخامسة عشرة: طبقة الزنادقة، قال ابن القيم: وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسوله. وهؤلاء المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم في دركات النار؛ لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين. ولهذا قال تعالى في حقهم: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي: لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد ها هنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها. فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم- وهم في الباطن على خلاف دينهم أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم، لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر. وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً، يَدُلُّون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم. فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾، لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكفار المجاهرين.

ونظير ذلك قول النبي: «ليس المسكين الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يفطن له فيتصدق عليه» (١) فليس هذا نفياً لاسم المسكين عن الطواف، بل إخبار بأن هذا القانع الذي لا يسمونه مسكيناً أحق بهذا الاسم من الطواف الذي يسمونه مسكيناً.

ونظيره قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب» (٢)=

(١) أخرجه البخاري: [١٤٧٦، ١٤٧٩]، ومسلم [١٠٣٩/١٠١-١٠١]، وأبو داود [١٦٣١، ١٦٣٢]، والنسائي في المجتبى [٢٥٧١، ٢٥٧٢]، وأحمد في المسند [٢/ ٢٦٠ و ٣١٦ و ٣٩٣ و ٤٤٩ و ٤٥٧ و ٤٦٩]، و«الموطأ» [٢/ ٧٠٤]، والدارمي [١٦١٨]، من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

(٢) أخرجه البخاري: [٦١١٤]، ومسلم [٢٦٠٩/ ١٠٧]، و«الموطأ» [٢/ ٦٩١]، والنسائي في «عمل =

= ليس هذا نفياً للاسم عن الصُّرَعة، ولكن إخبار بأن من يملك نفسه عند الغضب أحق منه بهذا الاسم.

ونظيره قوله ﷺ: «ما تعدون المفلس فيكم؟» قالوا: من لا درهم له ولا متاع. قال: المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، ويأتي قد لطم هذا وضرب هذا وأخذ مال هذا فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من سيئاتهم ثم طُرح عليه فألقي في النار» (١).

ونظيره قوله ﷺ: «ما تعدون الرَّقُوب فيكم؟» قالوا: من لا يولد له. قال: «الرَّقوب من لم يقدم من ولده شيئاً» (٢).

ومنه عندي قوله ﷺ «الربا في النسيئة» (٣) وفي لفظ «إنما الربا في النسيئة» (٤) هو إثبات لأن هذا النوع هو أحق باسم الربا من ربا الفضل، وليس فيه اسم الربا عن ربا الفضل فتأمله.

والمقصود: أن هذه الطبقة أشقى الأشقياء، ولهذا يُستهزأ بهم في الآخرة، وتُعطى نوراً يتوسطون به على الصراط ثم يطفئ الله نورهم، ويقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ ويضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ=

= اليوم والليلة» [٣٩٦- ٣٩٨]، وأحمد في المسند [٢/ ٢٣٦ و ٢٦٨ و ٥١٧] من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وأبو داود [٤٧٧٩] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

(١) أخرجه مسلم [٢٥٨١/ ٥٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته. فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار».

(٢) أخرجه مسلم [٢٦٠٨/ ١٠٦]، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

(٣) أخرجه مسلم [١٥٩٦/ ١٠١].

(٤) أخرجه البخاري [٢١٧٨]، ومسلم [١٥٩٦/ ١٠٢]، والنسائي في المجتبى [٤٥٨٠، ٤٥٨١]، من حديث أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما.

= وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحديد].

وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يُفتح للعبد طريق النجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتُطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه.

وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البُعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفراً وأخبث قلوباً، وأشد عداوة لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين من البُعداء عنهم، وإن كان البُعداء متصدين لحرب المسلمين. ولهذا قال تعالى في المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

وقال تعالى فيهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال تعالى في الكفار: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر ثم عمى، وعرف ثم تجاهل، وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر، ومن كان هكذا فهو أشد كفراً وأخبث قلباً وأعتى على الله ورسله، فاستحق الدرك الأسفل.

وفيه معنى آخر أيضاً، وهو: أن الحامل لهم على النفاق طلب العز والجاه بين الطائفتين، فيرضوا المؤمنين ليعزوهم، ويرضوا الكفار ليعزوهم أيضاً.

ومن هاهنا دخل عليهم البلاء، فإنهم أرادوا العزتين من الطائفتين، ولم يكن لهم غرض في الإيمان والإسلام ولا طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ بل كان ميلهم وصغوهم ووجهتهم إلى الكفار، فقوبلوا على ذلك بأعظم الذل، وهو أن جعل الله تعالى مستقرهم في أسفل السافلين تحت الكفار، فما اتصف به المنافقون من مخادعة الله تعالى ورسوله ﷺ والذين آمنوا، والاستهزاء بأهل الإيمان والكذب والتلاعب بالدين، وإظهار أنهم من المؤمنين، وأبطنوا قلوبهم على الكفر والشرك وعداوة الله تعالى ورسوله ﷺ أمر اختصوا به عن الكفار فتغلظ كفرهم به، فاستحقوا الدرك الأسفل =

= من النار.

ولهذا لما ذكر تعالى أقسام الخلق في أول سورة البقرة [٢-٢٠] فقسمهم إلى مؤمن ظاهراً وباطناً، وكافر ظاهراً وباطناً، ومؤمن في الظاهر كافر في الباطن وهم المنافقون. ذكر في حق المؤمنين ثلاث آيات [٣- ٥]، وفي حق الكفار آيتين [٦- ٧]. فلما انتهى إلى ذكر المنافقين ذكر فيهم بضع عشرة آية [٨- ٢٠] ذمهم فيها غاية الذم، وكشف عوراتهم وقبحهم وفضحهم، وأخبر بأنهم هم السفهاء المفسدون في الأرض المخادعون المستهزئون المغبونون [1] في اشترائهم الضلالة بالهدى. وأنهم صم بكم عمي فهم لا يرجعون، وأنهم مرضى القلوب وأن الله يزيدهم مرضاً إلى مرضهم، فلم يدع ذمًا ولا عيباً إلا ذمهم به. وهذا يدل على شدة مقته سبحانه لهم، وبغضه إياهم، وعداوته لهم، وأنهم أبغض أعدائه إليه. فظهرت حكمته الباهرة في تخصيص هذه الطبقة بالدرك الأسفل من النار. نعوذ بالله من مثل حالهم، ونسأله معافاته ورحمته.

ومن تأمل ما وصف الله به المنافقين في القرآن من صفات الذم علم أنهم أحق بالدرك الأسفل، فإنه وصفهم بمخادعته ومخادعة عباده، ووصف قلوبهم بالمرض، وهو مرض الشبهات والشكوك. ووصفهم بالإفساد في الأرض، وبالاستهزاء بدينه وعباده، وبالطغيان واشتراء الضلالة بالهدى، والصمم والبكم والعمى، والحيرة، والكسل عند عبادته، والزنا، وقلة ذكره، والتردد - وهو التذبذب - بين المؤمنين والكفار، فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، والحلف باسمه تعالى كذباً وباطلاً، وبالكذب، وبغاية الجبن، وبعدم الفقه في الدين، وبعدم العلم، وبالبخل، وبعدم الإيمان بالله وباليوم الآخر وبالريب، وبأنهم مضرة على المؤمنين لا يحصل لهم بنصيحتهم إلا الشر من الخبال والإسراع بينهم بالشر وإلقاء الفتنة. وكراهتهم لظهور أمر الله، ومحو الحق، وأنهم يحزنون بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر، ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء، وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين، وبكراهتهم الإنفاق في مرضاة الله وسبيله، وبعيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم، فيلمزون المتصدقين، ويعيبون مزهدهم، ويرمون مكثرهم بالرياء وإرادة الثناء في الناس، وأنهم عبيد الدنيا إن أعطوا=

(١) غبٌ: بمعنى بَعُدَ. [لسان العرب: ١/ ٦٣٥].

= منها رضوا وإن منعو سخطوا، وبأنهم يؤذون رسول الله ﷺ، وينسبونه إلى ما برأه الله منه أو يعيبونه بما هومن كماله وفضله، وأنهم يقصدون إرضاء المخلوقين ولا يطلبون إرضاء رب العالمين، وأنهم يسخرون من المؤمنين، وأنهم يفرحون إذا تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ويكرهون الجهاد فى سبيل الله، وأنهم يتحيلون على تعطيل فرائض الله عليهم بأنواع الحيل، وأنهم يرضون بالتخلف عن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، وأنهم مطبوع على قلوبهم، وأنهم يتركون ما أوجب الله عليهم مع قدرتهم عليه، وأنهم أحلف الناس بالله: قد اتخذوا أيمانهم جُنَّة تقيهم من إنكار المسلمين عليهم، وهذا شأن المنافق أحلف الناس بالله كاذباً، قد اتخذ يمينه جُنَّة ووقاية يتقى بها إنكار المسلمين عليه، ووصفهم بأنهم رجس- والرجس من كل جنس أخبثه وأقذره- فهم أخبث بنى آدم وأقذرهم وأرذلهم، وبأنهم فاسقون، وبأنهم مضرة على أهل الإيمان يقصدون التفريق بينهم، ويؤوون من حاربهم وحارب الله ورسوله، وأنهم يتشبهون بهم ويضاهونهم فى أعمالهم ليتوصلوا منها إلى الإضرار بهم وتفريق كلمتهم، وهذا شأن المنافقين أبداً، وبأنهم فتنوا أنفسهم بكفرهم بالله ورسوله وتربصوا بالمسلمين دوائر السوء، وهذا عادتهم فى كل زمان، وارتابوا فى الدين فلم يصدقوا به، وغرتهم الأمانى الباطلة وغرهم الشيطان، وأنهم أحسن الناس أجساماً، تعجب الرائى أجسامهم، والسامع منطقهم، فإذا جاوزت أجسامهم وقولهم رأيت خشباً مسندة، لا إيمان ولا فقه، ولا علم ولا صدق، بل خُشُب قد كسيت كسوة تروق الناظر، وليسوا وراء ذلك شيئاً، وإذا عرض عليهم التوبة والاستغفار أبوها وزعموا أنهم لا حاجة لهم إليها، إما لأن ما عندهم من الزندقة والجهل المركب مغن عنها وعن الطاعات جملة- كحال كثير من الزنادقة- وإما احتقاراً وازدراء بمن يدعوهم إلى ذلك، ووصفهم تعالى بالاستهزاء به وبآياته وبرسوله ﷺ، وبأنهم مجرمون، وبأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ويقبضون أيديهم عن الإنفاق فى مرضاته، ونسيان ذكره، وبأنهم يتولون الكفار ويَدَعُون المؤمنين، وبأن الشيطان قد استحوذ عليهم وغلب عليهم حتى أنساهم ذكر الله فلا يذكرونه إلا قليلاً، وأنهم حزب الشيطان، وأنهم يوادون من حاد الله ورسوله، وبأنهم يتمنون ما يعنت المؤمنين ويشق عليهم، وأن البغضاء تبدو لهم من أفواههم وعلى فلتات ألسنتهم، وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم. ومن صفاتهم التى وصفهم بها رسول الله ﷺ: الكذب فى الحديث، والخيانة فى الأمانة،=

= والغدر عند العهد، والفجور عند الخصام، والخُلف عند الوعد، وتأخير الصلاة إلى آخر وقتها، ونقرها عجلة وإسراعاً، وترك حضورها جماعة، وأن أثقل الصلوات عليهم الصبح والعشاء. ومن صفاتهم التى وصفهم الله بها الشح على المؤمنين بالخير، والجبن عند الخوف، فإذا زال الخوف وجاء الأمن سلقوا المؤمنين بألسنة حداد، فهم أحد الناس ألسنة عليهم كما قيل:

جهلاً علينا وجُبْنًا عن عدوكم   لبئست الخُلتان الجهل والجبن

وأنهم عند المخاوف تظهر كمائن صدورهم ومخبآتها، وأما عند الأمن فيجب ستره، فإذا لحق المسلمين خوف دبت عقارب قلوبهم، وظهرت المخبآت وبدت الأسرار.

ومن صفاتهم: أنهم أعذب الناس ألسنة وأمرُّهم قلوباً، وأعظم الناس مخالفة بين أعمالهم وأقوالهم.

ومن صفاتهم: أنهم لا يجتمع فيهم حسن صمت وفقه فى دين أبداً.

ومن صفاتهم: أن أعمالهم تكذب أقوالهم، وباطنهم يكذب ظاهرهم، وسرائرهم تناقض علانيتهم.

ومن صفاتهم: أن المؤمن لا يثق بهم فى شىء؛ لأنهم قد أعدوا لكل أمر مخرجاً منه، بحق أو بباطل، بصدق أو بكذب، ولهذا سمى منافقاً أخذاً من نافقاء اليربوع- وهو بيت يحفره، ويجعل له أسراباً مختلفة- فكلما طُلب من سرب خرج من سرب آخر، فلا يتمكن طالبه من حصره فى سرب واحد، قال الشاعر:

ويستخرج اليربوع من نافقائه   ومن بيته ذو الشيحة اليتقصع

فأنت منه كقبض على الماء، ليس معك منه شئ.

ومن صفاتهم: كثرة التلون، وسرعة التقلب، وعدم الثبات على حال واحد، بينا تراه على حال تعجبك من دين أو عبادة أو هدى صالح أو صدق، إذا انقلب إلى ضد ذلك كأنه لم يعرف غيره، فهو أشد الناس تلوناً وتقلباً وتنقلاً، جيفة بالليل قُطْرُب (١) بالنهار .

=

(١) القُطْرُب: دويبة كانت فى الجاهلية، يزعمون أنها ليس لها قرار البتة، وقيل: لا تستريح نهارها سعيًا. لسان العرب: [١/٦٨٣].

= ومن صفاتهم أنك إذا دعوتهم عند المنازعة للتحاكم إلى القرآن والسنة أبوا ذلك وأعرضوا عنه، ودعوك إلى التحاكم إلى طواغيتهم، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣) ﴾ [النساء]

ومن صفاتهم: معارضة ما جاء به الرسول ﷺ بعقول الرجال وآرائهم، ثم تقديمها على ما جاء به. فهم معارضون عنه، معرضون له، زاعمون أن الهدى فى آراء الرجال وعقولهم، دون ما جاء به. فلو أعرضوا عنه وتعوضوا بغيره لكانوا منافقين، فكيف إذا جمعوا إلى ذلك معارضته زعمهم أنه لا يستفاد منه هدى.

ومن صفاتهم: كتمان الحق، والتلبيس على أهله، ورميهم له بأدوائهم هم.

فيرمونهم إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ودعوا إلى الله تعالى ورسوله ﷺ بأنهم أهل فتن مفسدون فى الأرض. وقد علم الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنون بأنهم أهل الفتن المفسدون فى الأرض، وإذا دعا ورثة الرسول ﷺ (١) إلى كتاب الله وسنة رسوله خالصة غير مشوبة رموهم بالبدع والضلال، وإذا رأوهم زاهدين فى الدنيا راغبين فى الآخرة متمسكين بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ رموهم بالزوكرة والتلبيس والمحال، وإذا رأوا معهم حقًا ألبسوه لباس الباطل، وأخرجوه لضعفاء العقول فى قالبه شنيعاً (٢) لينفروهم عنه، وإذا كان معهم باطل ألبسوه لباس الحق وأخرجوا فى قالبه=

(١) ورثة الرسول ﷺ هم العلماء، لما رواه أبو داود [٣٦٤١] عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم. وإن العالم ليستغفر له من فى السموات، ومن فى الأرض، والحيتان فى جوف الماء. وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإن العلماء ورثة الأنبياء. وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ، ولا درهماً، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر». وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٠٩٦].

(٢) فى الأصل: شنيع.

= ليقبل منهم.

وجملة أمرهم أنهم فى المسلمين كالزغل فى النقود، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد، ويعرف حاله الناقد البصير من الناس، وقليل ماهم. وليس على الأديان أضر من هذا الضرب من الناس، وإنما تفسد الأديان من قبلهم، ولهذا جلا الله أمرهم فى القرآن، وأوضح أوصافهم وبين أحوالهم وكرر ذكرهم لشدة المؤنة على الأمة بهم وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم وفرط حاجتهم إلى معرفتهم والتحرز من مشابهتهم أو الإصغاء إليهم، فكم قطعوا على السالكين إلى الله طرق الهدى، وسلكوا بهم سبيل الردى، ووعدوهم ومنوهم، ولكن وعدوهم الغرور، ومنوهم الويل والثبور. فكم من قتيل، ولكن فى سبيل الشيطان. وسليب ولكن للباس التقوى والإيمان. وأسير لا يرجى له الخلاص، وفار من الله لا إليه وهيهات لات حين مناص. صحبتهم توجب العار والشنار، ومودتهم تحل غضب الجبار وتوجب دخول النار. من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان، وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالاً، ويمشى على عقبيه القهقرى إدباراً منه، وهو يحسب ذلك إقبالاً، فهم والله قطاع الطريق.

فيا أيها الركب المسافرون إلى منازل السعداء، حذار منهم حذار، هم الجزارون ألسنتهم شفار البلايا. ففرار منهم أيها الغنم فراراً، ومن البلية: أنهم الأعداء حقًا وليس لنا بد من مصاحبتهم؛ وخلطتهم أعظم الداء، وليس بد من مخالطتهم. قد جُعلوا على أبواب جهنم دعاة إليها فبعداً للمستجيبين، ونصبوا شباكهم حواليها على ما حفت به من الشهوات، فويل للمغترين نصبوا الشباك ومدوا الأشراك وأذن مؤذنهم: يا شياه الأنعام حى على الهلاك، حى على التباب. فاستبقوا يهرعون إليهم، فأوردوهم حياض العذاب، لا الموارد العذاب. وساموهم من الخسف والبلاء أعظم حطة، قال: ادخلوا باب الهوان صاغرين ولا تقولوا حطة، فليس يوم حطة. فواعجباً لمن نجا من شراكهم لا من علق، وأنى ينجو منها غلبت عليه شقاوته ولها خُلق.

فحقيق بأهل هذه الطبقة أن يحلوا بالمحل الذى أحلهم الله من دار الهوان، وأن ينزلوا فى أردأ منازل أهل العناد والكفران. وبحسب إيمان العبد ومعرفته يكون خوفه أن =

....

- يكون من أهل هذه الطبقة، ولهذا اشتد خوف سادة الأمة وسابقيها على أنفسهم أن يكونوا منهم، فكان عمر بن الخطاب يقول: يا حذيفة، ناشدتك الله . هل سماني رسول الله ﷺ مع القوم؟ فيقول: لا، ولا أزكي بعدك أحداً (١). يعني لا افتح عليّ هذا الباب في تزكية الناس، وليس معناه أنه لم يبرأ من النفاق غيرك.

وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبرائيل وميكائيل (٢).

طريق الهجرتين وباب السعادتين [٤١٣ : ٤٢٠].

(١) كنز العمال [١٣/٣٤٤]

(٢) رواه البخاري تعليقاً فوق حديث رقم [٤٨]، وقال الحافظ في «الفتح» [١/١٥٢]: هذا التعليق وصله ابن أبي خيثمة في «تاريخه» لكن أبهم العدد، وكذا أخرجه محمد بن نصر المروزي مطولاً في «كتاب الإيمان» له. وعينه أبو زرعة الدمشقي في «تاريخه» من وجه آخر مختصراً كما هنا.

تقوى الله .. والجهاد

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)﴾ (المائدة)

التقوى- كما هو معلوم- أن يجعل الإنسان بينه وبين مايؤذيه أو يخشاه وقاية.

وقد ورد كثيراً في كتاب الله تعالى قول الحق سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وكذلك قوله جل وعلا: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ والسؤال: كيف نجعل بيننا وبين الله وقاية وهو سبحانه يطلب منا أن نكون دائماً في معيته باتباع أمره واجتناب نهيه؟!.

والجواب: إن المطلوب أن نجعل الوقاية بيننا وبين عقاب الله سبحانه. ومن عقابه سبحانه: النار. إذن.. علينا أن نسمع ونطيع، وأن نأتمر بما أمر به ونجتنب ما نهى عنه، ونرضى بما قسمه سبحانه لنا ونحمده تعالى على قضائه وقدره، بذلك نكون قد جعلنا بيننا وبين عقابه عز وجل وقاية.

وقوله سبحانه: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: علينا أن نبحث عن الطريقة التي توصلنا إلى طاعته ورضوانه وإلى محبته. وهل هناك وسيلة إلا ماشرعه الله سبحانه وتعالى، وبلغه رسوله ومصطفاه من خلقه محمد صلوات الله وسلامه عليه؟

وفي حياتنا هل يتقرب إنسان إلى إنسان آخر إلا بما يعلم أنه يحبه؟

وإذا كان على المستوى البشرى نجد من يتساءل: ماذا يحب فلان؟ فيقال له: فلان يحب كذا وكذا.. فيُهدى إليه مما يحب.

إذن.. فكل إنسان يتقرب إلى من يحب بما يحب، فما بالنا بالتقرب إلى الله سبحانه؟ ومايحبه سبحانه بلّغه لنا النبي ﷺ وهو:

الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره (١)، وما شرعه من أركان للإسلام، (٢) ومكارم للأخلاق. (٣)

وفى الحديث القدسى: «إن الله تعالى قال: من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وماتقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه، ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه، وماترددت عن شىء أنا فاعله

(١) أخرج مسلم [١/٨] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبى ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرنى عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً ﷺ رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». قال: صدقت. قال: فعجبنا له؛ يسأله ويصدقه. قال: فأخبرنى عن الإيمان. قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: فأخبرنى عن الساعة. قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرنى عن أمارتها. قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان».

قال: ثم انطلق. فلبثت مليًا. ثم قال لى: «يا عمر، أتدرى من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم».

(٢) أخرج البخارى [٨] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان».

(٣) روى مالك فى الموطأ [٢/ ٦٩٠] أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت لأتمم حُسْن الأخلاق». قال ابن عبد البر: هو حديث مدنى صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه وغيره.

ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته» (١).

أى: أن العبد يتقرب إلى الله تعالى بالفرائض التى شرعها سبحانه، ويزيد من النوافل والطاعات؛ تقرباً لله تعالى؛ شريطة أن يكون من جنس ما افترضه الله سبحانه وتعالى عليه؛ فلا ابتكار فى العبادات.

إذن.. فالوسيلة إلى الله تعالى هى طاعته سبحانه، والقيام بأمره فى «افعل» واجتناب نهيه فى «لا تفعل»، واتباع هدى رسوله ﷺ وسنته.

كما أن الوسيلة أيضاً هى: علم على أعلى منزلة من منازل الجنة. والرسول ﷺ طلب منا أن نسأل الله تعالى له هذه المنزلة فقال ﷺ: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول، ثم صلوا علىَّ؛ فإنه من صلى علىَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لى الوسيلة؛ فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلَّت له الشفاعة» (٢).

إذن.. قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)﴾ [المائدة] أى: أطيعوا أمره، وابتعدوا عن محارمه؛ لتفوزوا برضاه سبحانه، ويدخلكم جناته. وذلك هو الفلاح العظيم (٣).

(١) أخرجه البخارى: [٦٥٠٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

(٢) أخرجه مسلم [٣٨٤ / ١١]، وأبو داود [٥٢٣]، والنسائى فى المجتبى [٦٧٨] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما.

(٣) قال ابن كثير فى تأويل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وهى إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال سفيان الثورى عن طلحة عن عطاء عن =

كذلك عليك أن تعلم أيها المؤمن أن إيمانك لن يصبح كاملاً إلا بأن تحب لأخيك ماتحبه لنفسك، فإن كنت قد أحببت لنفسك أن تكون على منهج الله تعالى فاحرص على أن يكون ذلك لإخوانك أيضاً.

وإخوانك المؤمنون ليسوا هم فقط الذين يعيشون معك، ولكن هم الذين سيأتون من بعد ذلك. ولذلك عليك أن تجاهد فى سبيل الله؛ لتعلو كلمة الله؛ وتتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل. وهكذا تعلو الهمَّة الإيمانية، فلا تنحصر فى النفس أو المعاصرين للإنسان المؤمن بل يتعدى أثرها ويتسع ليشمل كل الناس.

ولذلك وضع لنا الحق سبحانه المنهج، وبين لنا الطريق المؤدى إليه. وكانت بداية الطريق أن الإنسان حينما يؤمن بأن لله نعيماً وجزاءً فى

= ابن عباس: أى القربة. وكذا قال مجاهد، وأبو وائل، والحسن، وقتادة، وعبد الله بن كثير، والسدى، وابن زيد، وغير واحد. وقال قتادة: أى: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه، وقرأ ابن زيد: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه. وأنشد عليه ابن جرير قول الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا ... وعاد التصافى بيننا والوسائل

والوسيلة هى التى يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً علَم على أعلى منزلة فى الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهى أقرب أمكنة الجنة إلى العرش. وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، والتاركين للدين القويم، ورغبهم فى ذلك بالذى أعده للمجاهدين فى سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التى لاتبيد ولا تحول ولا تزول فى الغرف العالية الرفيعة، والآمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها التى من سكنها ينعم لايبأس ويحيى لا يموت، لاتبلى ثيابه ولا يفنى شبابه.

تفسير ابن كثير [٢/ ٥٠، ٥١] بتصرف.

الآخرة هو خير مما يعيشه ويحياه، تهون عليه نفسه، فيبذلها فى سبيل الله تعالى، لذلك قال أحد الصحابة: أين أنا يا رسول الله إن قتلت؟ قال ﷺ: «فى الجنة»، فألقى الصحابى تمرات كن فى يده ثم قاتل حتى قتل (١).

لابد إذن أنه قد عرف أن الحياة التى تنتظره خير من الحياة التى يعيشها. ولو حاولنا أن نستقصى مثل هذه البطولات والتضحيات لخرجنا بالكثير والكثير، لذا فإننا ننصح بمراجعتها فى مظانها من كتب التراث فهى تمثل نموذجًا حيًا لواقع عاشه سلفنا الصالح، وقدم فيه أغلى ما يملك وهو: حياته؛ فى سبيل إعلاء راية التوحيد، حتى تصلنا الدعوة إلى الله تعالى خالصة نقية.

ونعود إلى موضوع الجهاد (٢) فنقول: لم يضع الله سبحانه الجهاد

(١) أخرجه البخارى [٤٦ ٤٠]، ومسلم [١٨٩٩/ ١٤٣] واللفظ له، عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه.

(٢) الجهاد لغة: بذل الجهد وهو الوسع والطاقة مأخوذ من الجُهد بالضم، أو المبالغة فى العمل: مأخوذ من: الجَهد بالفتح.

واصطلاحاً عند الحنفية: هو الدعاء إلى الدين الحق، وقتال من لم يقبله بالمال والنفس، قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]

وعرفه غير الحنفية بما يقارب هذا التعريف، فقال الشافعية مثلاً: هو قتال الكفار لنصرة الإسلام.

وأنسب تعريف للجهاد شرعاً أنه: بذل الوسع والطاقة فى قتال الكفار ومدافعتهم بالنفس والمال واللسان.

الفقه الإسلامى وأدلته [٦/ ٤١٣-٤١٤]

حكم الجهاد: هو فرض على الناس لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]. =

= ولقوله عليه الصلاة والسلام: «الجهاد واجب عليكم مع أمير بر أو فاجر». أخرجه أبو داود [1].

قال النفراوى فى الفواكه الدوانى شرح الرسالة: ويتعين على أمير المؤمنين الجهاد، وعلى جماعة المسلمين إن لم يكن [2]. .

وفرضه على الكفاية على ما ذهب إليه الجمهور.

وقال محمد بن أحمد بن جزى فى قوانين الأحكام: هو فرض كفاية عند الجمهور.

وقال ابن حبيب: فرض عين.

وقال الداودى: هو فرض عين على كل من يلى الكفار. وإذا حُميت أطراف البلاد وسدت الثغور سقط فرض الجهاد وبقى نافلة.

ويتعين بثلاثة أسباب:

أحدها: أمر الإمام. فمن عينه الإمام وجب عليه الخروج.

الثانى: أن يفجأ العدو بلاد الإسلام فيتعين عليهم دفعه، فإن لم يستقلوا لزم من قاربهم، فإن لم يستقل الجميع وجب على سائر المسلمين حتى يندفع العدو.

والثالث: لاستنقاذ أسارى المسلمين من أيدى الكفرة[3].

وفى المختصر: الجهاد فى أهم جهة، كل سنة وإن خاف محاربًا، كزيارة الكعبة [4] فرض كفاية. [5] قال الخرشى فى شرح المختصر فى هذا المحل: يعنى أن الجهاد فرض كفاية على المشهور يسقط بفعل البعض لقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٩٥] دل على =

(١) رواه أبو داود [٢٥٣٣] من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه؛ بلفظ: «الجهاد واجب عليكم مع كل أمير، برًا كان أو فاجرًا». وقال الألبانى فى ضعيف أبى داود [٥٤٥]: ضعيف.

(٢) الفواكه الدوانى [١: ٤٦٣].

(٣) ابن جزى، القوانين: [١٤٤].

(٤) المراد بزيارة الكعبة إقامة الموسم، أى: الوقوف بعرفة فى كل سنة، لأن زيارة الكعبة ليست فرضًا لنا. يجب على الإمام أن يرسل جماعة فى كل سنة لإقامة الموسم إن كان هناك إمام وإلا فيكون فرض الكفاية على جماعة المسلمين.

(٥) المختصر [١١١].

= أن الخطاب للجميع على سبيل البدلية وأنه يسقط بفعل البعض، ولو كان على الأعيان لكان القاعد بلا ضرورة عاصيًا. [1] وقال الشبرخيتى فى شرح المختصر فى هذا المحل: فإن قيل كيف غضب ﷺ على الثلاثة الذين خلفوا مع أنه فرض كفاية؟ فالجواب: أنه كان فرض عين على الأنصار؛ لمبايعتهم رسول الله ﷺ على ذلك، فكان تخلفهم عن هذه الغزوة كبيرة. قاله السهيلى فى الروض الأنف فى حديث الثلاثة عن ابن بطال [2].

بيان وجوب الهجرة على العباد [٤٦ : ٤٧]

حد الجهاد: قال ابن عرفة: هو قتال مسلم كافرًا غير ذى عهد؛ لإعلاء كلمة الله تعالى، أو حضوره له، أو دخوله أرضه له [3].

قال الخرشى: وقوله لإعلاء كلمة الله يقتضى أن من قاتل للغنيمة، أو لإظهار الشجاعة وغيرها لا يكون مجاهدًا فلا يستحق الغنيمة حيث ظهر ذلك، ولا يجوز له تناولها حيث علم من نفسه ذلك [4].

وأصل هذا الحد ما جاء فى صحيح البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن فى سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» [5].

وفى المدخل: إذا نوى أن يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا لا يضره ما اعتراه بعد ذلك من قتالهم غضبًا أو حمية أو ما أشبهها؛ لأن هذا كان من وساوس الشيطان ونزغاته، وهواجس النفوس التى لا تملك. والله عز وجل قد رفع ذلك عنا [6].

قلت: ولايضره أيضًا قصد الغنيمة إذا قاتل لإعلاء كلمة الله كما بينه العلماء؛ ولذلك قال الشبرخيتى فى شرح المختصر عند قول المصنف ولا يغسل شهيد معترك: واعلم =

(١) الخرشى: [٢/٦-٤٠].

(٢) الشبرخيتى، [٢/ ورقة ٦٣ ظهر]. وانظر الروض الأنف للسهيلى [٢/٣٢٣].

(٣) ابن عرفة : [الحدود/ ١٣٩].

(٤) الخرشى : [٢/٥-٤٠].

(٥) أخرجه البخارى: [٢٨١٠].

(٦) ابن الحاج : [المدخل/ ٣- ٧].

= أن الشهيد ثلاثة أقسام: شهيد دنيا وآخرة، وشهيد دنيا فقط، وشهيد آخرة فقط، فشهيدهما كمن قاتل الكفار لإعلاء كلمة الله تعالى، صحبه قصد الغنيمة أم لا، وشهيد الدنيا فقط كمن قاتل لقصد الغنيمة فقط أو ليقال أو ليظهر شجاعة أو لحمية قومه أو للذب عن ماله أو أهله أو لصون عرضه... أو نحو ذلك، وشهيد الآخرة فقط كالغريق والحريق والمبطون (1).

ثم إن الجهاد كما قال الخرشي على أربعة أقسام: جهاد بالقلب وهو: مجاهدة الشيطان والنفس عن الشهوات المحرمة، وجهاد باللسان وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد باليد وهو: زجر الأمراء أهل المناكر بالأدب والضرب باجتهادهم، ومنه إقامة الحدود، وجهاد بالسيف ولا ينصرف حيث أطلق إلا إليه (2).

بيان وجوب الهجرة على العباد [٥٠ : ٥١]

أما شروط وجوب الجهاد وعلى من يجب: قال ابن جزى فى القوانين هى ستة: الإسلام والبلوغ والحرية والذكورية والاستطاعة بالبدن والمال(3).

وفى المختصر: وسقط بمرض وصبا وجنون وعمى وعرج وأنوثة وعجز عن محتاج له ورقٍ ودين حل. كوالدين فى فرض كفاية ببحر أو خطر لا جدّ والكافر كغيره(4).

وقال فى القوانين: والأب الكافر كالمسلم فى منع الأسفار والأخطار، إلا فى الجهاد لتهمته، وقيل: يمنع مطلقًا (5).

وفى الزهرات الوردية: اعلم أن لوجوب الجهاد ست شرائط لا يجب إلا بها، متى اختل واحد منها سقط وجوبه. وهى: الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والذكورية =

(1) الشبرخيتى: [1/ورقة ٣١٨ وجه].
(2) الخرشى: [٢/٦-٤].
(3) ابن جزى: [القوانين / ١٤٤].
(4) [المختصر/١١١] ومعنى العبارة الأخيرة هو: أن الوالد المسلم والكافر يتكافآن فى ترك فرض الكفاية لأجلهما. أما فى الجهاد، ففرض الكفاية فيه لا يترك لأجل الوالد الكافر لأن انتماءه لدين آخر ربما يكون السبب فى أن يمنع ابنه من الجهاد.
(5) ابن جزى: [القوانين / ١٤٤].

= والاستطاعة بصحة البدن وما يحتاج إليه من المال (1).

فرائض الجهاد: قال ابن جزى فى القوانين هى ستة: النية، وطاعة الإمام، وترك الغلول، والوفاء بالأمان، والثبات عند الزحف، وتجنب الفساد. ولا بأس بالجهاد مع ولاة الجور (2).

وقال الخرشى فى هذا المحل: يعنى أن الجهاد فرض ولو مع الوالى الجائر فى حكمه، وهو: الذى لا يضع الخمس فى موضعه، ولا يفى بعهده؛ ارتكاباً لأخف الضررين؛ لأن الغزو معهم إعانة لهم على جورهم، وترك الغزو معهم خذلان للإسلام. ونصرة الدين واجبة. والمراد بالوالى أمير الجيش (3).

وقال الشبرخيتى عند قول المصنف «ولو مع والٍ جائر فى رعيته»: بأن كان يظلمهم، أو فى غنيمته بأن كان لا يضع الخمس موضعه. لقوله ﷺ «الجهاد ماض منذ بعث الله نبيه لا ينقضه جور من جار ولا عدل من عدل»(4).

وغزا أبو أيوب الأنصارى مع يزيد بن معاوية بعد أن توقف ثم ندم على توقفه.

وقيل لابن عباس: أَغْزُو مع إمام لا يريد إلا الدنيا. فقال: قاتل أنت عن حظك من الآخرة (5).

وقال عبد الباقى عند قول المصنف «ولو مع والٍ جائر»: أى أمير جيش لا يضع الخمس فى موضعه؛ ارتكابًا لأخف الضررين؛ لأن الغزو معه إعانة له على جوره وتركه معه خذلان للإسلام. ونصرة الدين واجبة. وكذا مع ظالم فى أحكامه أو فاسق بجارحة(6).

وفى الجامع شرح المختصر: وإن كان لا يفى بالعهد؛ ارتكابًا لأخف الضررين. وهو =

(1) عبد المعالى، الزهرات الوردية : [1/ ورقة ٣٢٩ وجه].
(2) ابن جزى: [القوانين/ ١٤٤].
(3) الخرشى: [٢/٦-٤].
(4) رواه أبو داود [٢٥٣٢] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه بلفظ: «والجهاد ماضٍ منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل». وقال الألبانى فى ضعيف أبى داود [٥٤٤]: ضعيف.
(5) الشبرخيتى: [٢/ ورقة ٦٣ وجه].
(6) شرح عبد الباقى على المختصر: [٣/١٣٥]. والفاسق بجارحة هو من ليس كافرًا بالعقيدة، إنما يرتكب معصية مثل شرب الخمر.

- قاعدة مشهورة وسنة مأثورة وهى معتبرة إجماعًا.

وفى الرسالة: ويقاتل العدو مع كل بر وفاجر من الولاة [1].

بيان وجوب الهجرة على العباد [٥٢ : ٥٤].

من يُقاتل فى الجهاد: قال ابن جزى فى القوانين: هم ثلاثة أصناف: الكفار، والبغاة، والمحاربون... وأما الكفار فجميع أصنافهم... ولا يُقتل النساء ولا الصبيان اتفاقًا... ولا أهل الصوامع ولا الشيخ الفانى، خلافًا للشافعية، إلا أن يُخاف منهم أذى أو تدبير ولا يقتل المعتوه ولا الأعمى والزَّمِن. واختُلف إذا كانا ذوى تدبير [2].

وفى المختصر فى استثناء من ذكر: إلا المرأة، إلا فى مقاتلتها، والصبى والمعتوه، كشيخ فان، وزَمِن، وأعمى وراهب منعزل بدير أو صومعة بلا رأى. وترك لهم الكفاية فقط، واستُغفر قاتلهم، كمن لم تبلغهم دعوة، وإن حيزوا فقيمتهم[3]. والراهب والراهبة حُرَّان[4].

وفى الزهرات الوردية: وجميع الكفار يقتلون إلا سبعة: المرأة، والصبى، والمجنون، والشيخ الفانى، والزَّمِن، والأعمى، والراهب المنعزل بدير أو صومعة. فأما المرأة فإنها لا تُقتل إذا لم تقاتل، فإن قاتلت، فقال ابن القاسم فى المَوَّازيَّة والعتبية: تُقتل. وأما الصبى فله حالتان: إحداهما ألا يشك فى أنه صبى فلا يقتل، وظاهر كلامهم: وإن قاتل. الثانية إن شك فيه، فالحكم أن يكشف عن مئزره، فيقتل إن نبت شعر عانته ككونه ممن جرت عليه الموسى. والمراهق كالمرأة إن قاتل بالسيف وشبهه قُتل، وإن رمى بالحجارة لم يُقتل إلا أن يَقتل فيُقتل بذلك. وأما المجنون فإن كان مُطْبِقاً لم يُقتل، وإن كان يفيق أحيانًا فظاهر كلام اللخمى أنه يقتل. وأما الشيخ الكبير الفانى فلا يقتل إلا أن يعلم أنه ممن له الرأى والتدبير على المسلمين. وأما الزَّمْنَى: كالمقعد والأعرج والأشل الذين لا رأى لهم ولا تدبير... فلا يقتلون. وكذلك لا يُقتل الأعمى إلا أن يعلم أنه ممن له رأى وتدبير على المسلمين. وكذلك لا يُقتل الراهب المنعزل فى دير=

(١) ابن أبى زيد القيروانى: [الرسالة /٩٧].

(٢) ابن جزى : [القوانين/ ١٤٥].

(٣) الخرشى: [٢/ ٤١١].

(٤) [المختصر : ١١١].

= أو صومعة إلا أن يكون ذا رأى وتدبير على المسلمين [1].

بيان وجوب الهجرة [٥٧ : ٥٨].

الدعوة قبل القتال: إن دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال واجبة، وفى صحيح البخارى، أن النبى ﷺ لما أعطى عليًا الراية يوم خيبر قال له على: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم» [2].

استمرار وجوب الجهاد: إن وجوب الجهاد مستمر على الأمة بعد الصحابة رضوان الله عليهم؛ لقوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقوله تعالى فى سورة الأنفال: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]. وفى التكملة تفسير عبد الرحمن السيوطى عند قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾: حتى لا يوجد شرك. [3] وفى تفسير الخازن: قال ابن عباس: يعنى حتى لا يكون شرك. وقال عند قوله تعالى: ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ يعنى تكون الطاعة والعبادة كلها خالصة لله دون غيره [4]. ويدل على استمرار وجوب الجهاد أيضًا قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤]. قال المفسرون: أى: حتى تنقضى الحرب ولم يبق إلا مسلم أو مسالم.

والمعنى: حتى يضع أهل الحرب شركهم ومعاصيهم، وهو غاية لما ذكر من الضرب =

(١) عبد المعالى، الزهرات الوردية: [١/ ورقة ٢٢٩ وجه].

(٢) أخرجه البخارى: [٣٠٠٩] عن سهل بن سعد بلفظ: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من أن يكون لك حُمْر النَّعم».

(٣) تفسير الجلالين: [١/ ١٦٠].

(٤) تفسير الخازن: [٢/ ١٨٣].

كوسيلة فى أول الأمر، بل ظل يأمرهم بالدعوة والصبر، بالترغيب تارة، والترهيب أخرى، فلما قامت دولة الإسلام وأصبح المسلمون فى منعة وعزة كان لابد لهم من قوة تُرهب أعداء الله تعالى وتمنعهم من التصدى للدعوة، وتخلى بين الناس وبين اختيارهم.

إذن.. فالجهاد فى سبيل الله ضمان للمؤمن أن يظل المنهج الذى آمن به

= والشد والمن والفداء، بمعنى أن هذه الأحكام جارية فيهم؛ حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم، وقيل: بنزول عيسى عليه السلام[1].

وفى مسند أحمد فى حديث الدجال: «ثم ينزل عيسى عليه السلام» إلى أن قال: «فيقتله حتى إن الشجر والحجر ينادى يا روح الله هذا يهودى فلا يترك ممن كان يتبعه أحداً إلا قتله»[2]. وقد روى البخارى فى صحيحه حديث: «ليتزلن ابن مريم حكماً عدلاً فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية»[3]. وفى رواية أبى داود الطيالسى حتى: «يهلك فى زمانه الملل كلها غير الإسلام» [4].

ويدل على استمرار وجوب الجهاد أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: «الجهاد ماضٍ- أى مستمر- منذ بعث الله نبيه لا ينقضه جور من جار ولا عدل من عدل» [5].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لن يبرح هذا الدين قائماً، يقاتل عليه عصابة من المسلمين، حتى تقوم الساعة» [6].

بيان وجوب الهجرة على العباد: [٤٨ : ٤٩]

---

(١) تفسير البيضاوى: [٥٠٨].

(٢) رواه أحمد فى المسند [٣/٣٦٨] عن جابر بن عبدالله رضى الله تعالى عنه، وقال الهيثمى فى الزوائد [٧/٣٤٦]: رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخارى [٢٢٢٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه بلفظ: «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد».

(٤) رواه أبو داود [٤٣٢٤]، وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٦٣٥]: صحيح.

(٥) سبق تخريجه [ص ٤٥].

(٦) أخرجه مسلم [١٩٢٢/١٧٢] عن جابر بن سَمُرة رضى الله تعالى عنه.

موصولاً إلى أن تقوم الساعة، وذلك لا يتأتى إلا بإشاعة المنهج فى العالم كله. والنفس المؤمنة وقفت نفسها على أن تجاهد فى سبيل الله لأن عندها إيثاراً إيمانيًا. وتعرف أنها أخذت خير الإيمان وتحب أن توصله إلى غيرها، ولا تقبل أن تأخذ خير الإيمان وتحرم منه المعاصرين لها فى غير ديار الإسلام، وتحرص على أن يكون العالم كله مؤمنًا، وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجدها تمثل الفهم العميق لمعنى الحياة، فالناس إذا كانوا أخياراً استفاد الإنسان من خيرهم كله، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرهم الشىء الكثير.

إذن.. من كمال الإيمان أن «يعدى» الإنسان الخير للغير. وإن دعوة المؤمن إلى سبيل الله يجب أن يُخلى بينها وبين الناس.

ومن أجل التخلية بين الناس ومنهج الله تعالى لابد من إزاحة المتسلطين بجبروتهم وسلطانهم وطغيانهم على عباد الله، وهؤلاء المتسلطون تساندهم قوة من المتنفعين والأفاكين، لذلك يجب الإعداد لذلك قبل اللقاء فى ساحات المعارك، فقبل اللقاء مع الخصم فى ساحة المعركة لابد من حسن الإعداد[1]. وعندما يعد المؤمن نفسه يجد أن حركة الحياة كلها تكون معه؛ لأن الدعوة إلى الله تقتضى سلوكاً طيباً، والسلوك الطيب ينتشر بين البشر، وهنا يقوى معسكر الإيمان، فيرتقى سلوكاً وعملاً، وعندما يقوى معسكر الإيمان لابد له أن يستخرج كنوز الأرض ليحمى أرض الإيمان بالتقدم الصناعى والعلمى والعسكرى؛ الحق سبحانه يقول: ﴿لقد أرسلنا رسلنا

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]

وعن عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، ألا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى».

أخرجه مسلم [١٩١٧/١٦٧].

بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾ [الحديد].

إذن.. الله سبحانه وتعالى الذى أرسل الرسل وأنزل الكتب وأمر الناس بالعدل لم يطلب منا سبحانه أن نلتزم بمنهج العبادة فقط، بل أمرنا سبحانه بإعداد العدة لإقامة دين الله فى الأرض، والتمكين لمن اختاروا الإسلام دينًا، وردع كل من تسول له نفسه الاعتداء على المسلمين وبلادهم، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾، فسبحانه كما أنزل القرآن يحمل المنهج، أنزل الحديد فيه بأس شديد، وعلى الإنسان مهمة استخراج الحديد والمواد الخام التى تسهل لنا صناعة الأجهزة العلمية، كما علينا أن نقيم المصانع التى تنتج لنا من الحديد فولاذاً، ونحول الفولاذ إلى دروع، ونصنع أدق الأجهزة التى تُهيِّئ للمقاتل فرصة النصر، وكذلك ندخر المواد الغذائية لتكفى فى أيام الحرب.

إذن.. حركة الحياة كلها جهاد، وإياك أن تُقصر فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة، ولكن أعد نفسك للمعركة؛ لأنك إن أعددت نفسك جيداً وعلم خصمك بقوة ما أعددت له، ربما امتنع عن أن يحاربك.

والذى يمنع العالم الآن من معركة كبيرة تدمره هو الخوف من قِبل الكُتل المتوازنة لأن كل دولة تحاول أن تستقطب فى جوارها دول أخرى، فلعبة التوازنات هذه هى التى تجعل من يحاول أن يقدم على حرب أن يفكر كثيراً. ولو أن فى الكون قوة متسلطة واحدة لفسدت الدنيا وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقول الحق سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ أى: جاهدوا فى سبيل

إقامة منهج الله تعالى؛ بدراسة هذا المنهج وتفهمه، ثم بعد ذلك المجاهدة فيه باللسان وبالسِّنان، والمجاهدة فيه بالكتاب وبالكتيبة.

إذن.. فقول الحق سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ يصنع أمة إيمانية متحضرة؛ حتى لاتترك الفرصة للكافر بالله ليأخذ أسباب الله وأسراره فى الكون. فمن يعبد الإله الواحد أولى بالبحث العلمى، والأخذ بأسباب التقدم والرقى، ولو فرضنا أنه لن تقوم حرب، ولكننا نملك المصانع التى تنتج، وعندنا الزراعة التى تكفى حاجات الناس، عندئذ سنحقق الكفاية. ومالا نستعمله فى الحرب سيعود على السلام. ويجب أن نعلم أن كل اختراعات الحياة التقدمية تنشأ أولاً لقصد الحرب. وبعد ذلك تهدأ النفوس وتأخذ البشرية هذه الإنجازات لصالح السلام.

الترغيب فى الجهاد *

قال الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ

(*) ورد فى ترغيب الناس فى الجهاد فى الكتاب والسنة آيات وأحاديث كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦)﴾ [النساء].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ (١١)﴾ [الصف].

وأما ما ورد فى السنة المطهرة فمنها أيضاً على سبيل المثال لا الحصر:

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دلنى على عمل يعدل الجهاد، قال: «لا أجده» [1].

وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ، قال: «الغدوة فى سبيل الله =

(١) أخرجه البخارى: [٢٧٨٥].

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥)﴾ [النساء]

لهذه الآية سبب نزول فقد روى عن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه - وهو أحد كتاب الوحى، والمأمون على جمع كتاب الله من اللخاف[1] ومن العظام ومن صدور الصحابة- قال رضى الله تعالى عنه: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيته السكينة - وهذه كانت دائماً تسبق نزول الوحى على رسول الله ﷺ - فوقعت فخذه على فخذى حتى خشيت أن ترُضَّها - أى تصيبها بالدَّق الشديد أو الكسر- فلما سُرِّى عنه ﷺ قال: اكتب: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾.

= أو روحة خير من الدنيا وما فيها» [1].

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض» [2].

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من احتبس فرساً فى سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة» [3].

وعن زيد بن خالد رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من جهز غازيًا فى سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا فى سبيل الله بخير فقد غزا» [4].

وعن سهل بن سعد الساعدى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها» [5].

(١) اللخاف: حجارة بيض رقاق، واحدها لخفة.

(١) أخرجه البخارى: [٢٧٩٢].
(٢) أخرجه البخارى: [٢٧٩٠].
(٣) أخرجه البخارى: [٢٨٥٣].
(٤) أخرجه البخارى: [٢٨٤٣].
(٥) أخرجه البخارى: [٢٨٩٢].

فقال ابن أم مكتوم رضى الله تعالى عنه: - وكان ضريراً مكفوف البصر- فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين يا رسول الله؟.

إنها الفطنة الإيمانية من ابن أم مكتوم رضى الله تعالى عنه؛ لأنه أراد أن يعرف موقفه من هذا القول، خاصة وأنه لا يستطيع الجهاد، وعلم أنه إن ظلت الآية على ما هى عليه فلن يكون هو وأقرانه من أولى الضرر مستويًا مع من جاهد، ولهذا قال قولته.

فأخذت رسول الله ﷺ السكينة ثانية، ثم سُرى عنه، فقال لزيد ابن ثابت: اكتب: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١)؛ فقال زيد رضى الله تعالى عنه: فألحقتها. إذن.. الآية نزلت جواباً مُطَمْئناً لمن لا يستطيع القتال مثل ابن أم مكتوم. ولقائل أن يقول: وهل كانت الآية تنتظر أن يستدرك ابن أم مكتوم ويقول قولته هذه؟.

---

(١) أخرج البخارى [٤٥٩٢] عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه «لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله» فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُمِلُّها علىَّ قال: يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت- وكان أعمى- فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذى فثقلت على حتى خفت أن تُرضَّ فخذى ثم سُرِّى عنه فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

وعن البراء رضى الله تعالى عنه قال: لما نزلت ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾. أخرجه البخارى [٤٥٩٣].

وعن البراء، قال: لما نزلت: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبى ﷺ: «ادعوا فلاناً» فجاءه ومعه الدواة واللوح أو الكتف، فقال: اكتب: «لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله» وخلف النبى ﷺ ابن أم مكتوم فقال: يا رسول الله أنا ضرير فنزلت مكانها ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أخرجه البخارى [٤٥٩٤].

ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن ينبه كل مؤمن أنه حين يسمع قول الله تعالى، عليه أن يتدبر ويتبين وهذا كان حال ابن أم مكتوم رضى الله تعالى عنه فيما سمع من رسول الله ﷺ حين نزلت الآية، فهو يعلمنا الفقه والتدبر فيما نسمع أو نقرأ، وأن يعى كل منا مطلوب الله تعالى منه.

وأما قول زيد بن ثابت: فألحقتها، يلفتنا إلى الدقة فى أداء زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه، فكأن زيد بن ثابت كان عليه أن يقوم بتصغير الكتابة ليكتب: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ بين كلمة: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وكلمة: ﴿الْمُجَاهِدُونَ﴾.

قال زيد بن ثابت: لقد نزلت: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وحدها وكأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع الكتف(١)- فقد كانوا يكتبون على أكتاف العظم- والكتف التى كتب عليها زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه كانت مشروخة وكانت هذه علامة فيها.

وقول الحق سبحانه: ﴿لا يَسْتَوِي﴾ يدل على أن هناك شيئين

---

(١) عن زيد بن ثابت، قال: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيته السكينة، فوقعت فخذ رسول الله ﷺ على فخذى، فما وجدت ثقل شىء أثقل من فخذ رسول الله ﷺ، ثم سُرِّى عنه فقال: «اكتب» فكتبت فى كتف: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، فقام ابن أم مكتوم - وكان رجلاً أعمى لما سمع فضيلة المجاهدين، فقال: يا رسول الله، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه غشيت رسول الله ﷺ السكينة، فوقعت فخذه على فخذى ووجدت من ثقلها فى المرة الثانية كما وجدت فى المرة الأولى، ثم سُرِّى عن رسول الله ﷺ، فقال: «اقرأ يا زيد» فقرأت ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ الآية كلها، قال زيد: فأنزلها الله وحدها، فألحقتها، والذى نفسى بيده لكأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع فى كتف.

رواه أحمد فى المسند [٥/١٩١]، وأبو داود [٢٥٠٧]، وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٢١٨٨]: حسن صحيح.

لا يستويان، فأيهما غير المساوى للآخر؟. كلاهما لا يتساوى مع الآخر؛ ولذلك يكون الاثنان فى الإعراب «فاعلاً»، فلا يساوى المجاهدون القاعدين، ولايساوى القاعدون المجهدين؛ لأن كلاً منهما فاعل ومفعول.

وعندما نسمع قول الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نتساءل ما هو مقابل «القاعدين»؟ فى الآية الكريمة إنهم: ﴿الْمُجَاهِدُونَ﴾، لكن المقابل فى الحياة العادية «للقاعدين» هم «القائمون»، ومقابل «المجاهدين» هو «غير المجاهدين». وبذلك كان من الممكن القول: لا يستوى القاعدون والقائمون، أو أن يقال: لا يستوى المجاهدون وغير المجاهدين. فما الحكمة فى مجىء: ﴿الْقَاعِدُونَ﴾ و﴿الْمُجَاهِدُونَ﴾؟

إن الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن كل مؤمن حين يدخل الإسلام. يعتبر نفسه جنديًا فى حالة تأهب، وكانوا دائماً على درجة استعداد قصوى ليلبوا نداء الجهاد فوراً؛ فالمسلم لم يكن فى حالة استرخاء، بل فى تأهب وكأنه واقف دائماً ليلبى النداء، وكأن القاعد هو الذى ليس من صفوف المؤمنين، ويبين لنا ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام:

«من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغى القتل والموت مظانّه، أو رجل فى غُنَيْمة فى رأس شَعَفَة من هذه الشعف، أو بطن وادٍ من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتى الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا فى خير»(1).

(1) أخرجه مسلم [1889/125] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

وقال الإمام النووى، قوله ﷺ: «من خير معاش الناس لهم رجل يمسك عنان فرسه» «المعاش»: هو العيش، وهو الحياة، وتقديره والله أعلم: من خير أحوال عيشهم رجل ممسك.

وقوله ﷺ: «يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار على متنه يبتغى القتل والموت مظانه» معناه: يسرع على ظهره، وهو: متنه، كلما سمع هَيْعة، وهى: =

فإن لم يكن المؤمن متأهباً فهو قاعد، والقاعد- كما نعرف- هو ضد القائم. والحق تعالى يقول: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾[النساء: ١٠٣].

وعلينا أن نعرف أن لكل لفظ معنى محدداً، فبعضنا يتصور أن القعود كالجلوس، ولكن الدقة تقتضى أن نعرف أن القعود يكون عن قيام، وأن الجلوس يكون عن الاضطجاع، فيقال: كان مضطجعاً فجلس، وكان قائمًا فقعد.

إذن.. معنى قول الحق سبحانه وتعالى هنا: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ فالقعود مقابل القيام، فكأن المجاهد حالته القيام دائماً، وهو لا ينتظر إلى أن يقوم، لكنه فى انتباه واستعداد.

ويوسع الحديث الشريف الدائرة فى مسئوليات المجاهد؛ فيرسم صورة للمقاتل أنه على أتم استعداد، فهو على صهوة الفرس وممسك باللجام حتى لا تدهمه أية مفاجأة.

وهل كانت هناك مظنة أن يستوى القاعد والمجاهد؟ لا؛ ولكن يريد الله أن يبين قضية إيمانية فيظهرها بشكل واضح لكل الأفهام.

ونحن عادة ما نقول لأبنائنا طلاب المدارس: إن من يذاكر دروسه ينجح، ومن لا يستذكر يرسب؛ وهذه مسألة بديهية، لكننا نقولها؛ حتى نجعلها واضحة فى بؤرة شعور الطالب، فيلتفت لمسئولياته.

= الصوت عند حضور العدو، وهى بفتح الهاء وإسكان الياء.

والفَزْعة: بإسكان الزاى وهى: النهوض إلى العدو.

ومعنى «يبتغى القتل مظانه»: يطلبه فى مواطنه التى يرجى فيها لشدة رغبته فى الشهادة. وفى الحديث: فضيلة الجهاد والحرص على الشهادة.

قوله ﷺ: «أو رجل فى غُنيمة فى رأس شعفة» «الغُنيمة»: بضم الغين تصغير الغنم، أى: قطعة منها، و«الشَّعَفَة» بفتح الشين والعين: أعلى الجبل.

شرح النووى على مسلم [7/ 42]

وعندما يقول الحق: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هل معنى ذلك أنه كان فى زمن رسول الله ﷺ مَنْ يظن المساواة بين القاعد والمجاهد؟ لا، ولكن الحق سبحانه يريدها قضية إيمانية فى بلاغ إيمانى من الله تعالى.

وبعد ذلك يلفت الأنظار إلى صفة القاعدين الذين لايستوون مع المجاهدين؛ فيقول: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾؛ والضرر: هو الذى يفسد الشىء مثل المرض، وهذا ما يوضحه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢)﴾ [التوبة]

فالضعف إذن ضرر، أخرج الإنسان عن مقومات الصحة والعافية، والمرض ضرر، والذين لا يجدون مالاً ينفقون منه، والذين يجيئون لرسول الله ﷺ حين لا يكون بحوزته ﷺ دواب تحملهم، فينصرفون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لأنهم لا يجدون ماينفقون. وكان المؤمن من هؤلاء يحزن؛ لأن رسول الله ﷺ لم يجد له فرساً أو دابة تنقله إلى موقع القتال.

وقوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا﴾ لها معنى كبير، فلم يقل الحق سبحانه: إن أعينهم تفيض من الدمع من قبل التولى، فهم لايدمعون أمام النبى ﷺ، ولكنهم يدمعون فى حالة انصرافهم، وهذا انفعال نفسى من فرط التأثر؛ لأنهم لا يستطيعون المشاركة فى القتال.

وكلمة: ﴿تَفِيضُ﴾ تدل على أن الدمع قد غلب على العين كلها، فهم لايصطنعون ذلك، لكن الانفعال يغمرهم؛ لأن الذى يتصنع ذلك يقوم

بتعصير عينيه ويبذل جهداً للمراءاة، ولكن انفعال المؤمنين الذين لا يقاتلون يغلبهم فتفيض أعينهم من الدمع.

وفى سورة «الفتح» فَصَّل الله تبارك وتعالى من هم أولو الضرر وأصحاب الحالات التى لا يطالب فيها المؤمن بالقتال قال ربنا سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (١٧)﴾ [الفتح]

ومادام المؤمن صاحب العذر الذى أقعده عن الجهاد، والمؤمن المجاهد لا يستوون فمن الذى يكون فيهم الأفضل؟.

ذلك ماتوضحه بقية الآية الكريمة، يقول تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

الله سبحانه وتعالى وعد الاثنين: ﴿الْحُسْنَى﴾؛ لأن كلاهما مؤمن، ولكن للمجاهد درجة على القاعد.

ولكن لماذا وعدالله القاعد من أولى الضرر ﴿الْحُسْنَى﴾؟ علينا أن ننتبه وأن نحسن الفهم والتدبر، فالمؤمن الذى ابتلاه الله تعالى فصبر لحكم الله ورضى بقضائه، وسلم لقدره، ألا يأخذ ثواباً على ذلك؟.

بالقطع لابد أن يجزيه الله تعالى ثواب صبره، وجزاء استسلامه لقضائه سبحانه وقدره، وشاء فضل الله سبحانه أن يعطى من لم يأخذ ثواباً مثله فرصة ليأخذ ثواباً آخر؛ حتى يكون الجميع فى الاستطراق الإيمانى سواء. لذلك يقول سبحانه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

و﴿الْحُسْنَى﴾ فى: ﴿أُولِي الضَّرَرِ﴾ أنه أخذ جزاء الصبر على المصيبة التى أصابته، والذى لم يصب بضرر سيأخذ ثواب ﴿الْمُجَاهِدِينَ﴾، وبذلك يكون الجميع قد نالوا ﴿الْحُسْنَى﴾ من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

الله سبحانه وتعالى يضع أجراً جديداً للمؤمن المجاهد على المؤمن القاعد من أولى الضرر، ففى صدر الآية جاء قوله تعالى: ﴿ دَرَجَةً ﴾ أعلى للمجاهد، وهنا ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . فما تفسير هذا الأجر العظيم؟ التفسير يجيء فى قوله تعالى: ﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٩٦]

الله تعالى قد أعطى لأولى الضرر درجة، وفضَّل سبحانه المجاهد فى سبيل الله على القاعد من غير أولى الضرر درجات عدة (١).

(١) قال ابن القيم فى تأويل قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦) ﴾ نفى سبحانه التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين، ثم أخبر سبحانه عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة، ثم أخبر أنه فضلهم عليهم درجات. وقد أشكل فهم هذه الآية على طائفة من الناس، من جهة أن القاعدين الذين فُضل عليهم المجاهدون بدرجات، إن كانوا هم القاعدين الذين فُضِّل عليهم أولو الضرر فيكون المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقاً. وعلى هذا فما وجه استثناء أولى الضرر من القاعدين، وهم لايستوون والمجاهدون أصلاً ؟ فيكون حكم المستثنى والمستثنى منه واحداً. فهذا وجه الإشكال.

ونحن نذكر مايزيل الإشكال بحمد الله . فنقول:

اختلف القراء فى إعراب ﴿ غَيْرُ ﴾ فقُرئ رفعاً ونصباً وهما فى السبعة، وقرئ بالجر فى غير السبعة. وهى قراءة أبى حيوة.

فأما قراءة النصب فعلى الاستثناء؛ لأن «غير» يعرب فى الاستثناء إعراب الاسم الواقع بعد «إلا» وهو النصب. هذا هو الصحيح.

وقالت طائفة: إعرابها نصب على الحال، أى لايستوى القاعدون غير مضرورين، أى لا يستوون فى حال صحتهم هم والمجاهدون. والاستثناء أصح، فإن «غير» لا تكاد =

= تقع حالاً فى كلامهم إلا مضافة إلى نكرة، كقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ [البقرة: ١٧٣] وقوله عز وجل: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ﴾ [المائدة: ١] وقوله ﷺ : «مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى» (١).

فإن أضيفت إلى معرفة كانت تابعة لما قبلها. كقوله تعالى: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧] ولو قلت: مرحباً بالوفد غير الخزايا ولا الندامى لجررت «غير» هذا هو المعروف من كلامهم.

والكلام فى عدم تعريف «غير» بالإضافة، وحسن وقوعها إذ ذاك حالاً له مقام آخر.

وأما بالرفع: فعلى النعت «للقاعدين». هذا هو الصحيح.

وقال أبو إسحاق وغيره: هو خبر مبتدأ محذوف تقديره: الذين هم غير أولى الضرر.

والذى حمله على هذا: ظنه أن «غير» لا يقبل التعريف بالإضافة. فلا تجزى صفة للمعرفة. وليس مع من ادعى ذلك حجة يعتمد عليها، سوى أن «غير» توغلت فى الإبهام. فلا تتعرف بما يضاف إليه.

وجواب هذا: أنها إذا دخلت بين متقابلين لم يكن فيها إبهام لتعيينها ما تضاف إليه.

وأما قراءة الجر: ففيها وجهان أيضاً.

أحدهما: وهو الصحيح: أنه نعت «للمؤمنين».

والثانى: وهو قول المبرد: أنه بدل منه. بناء على أنه نكرة. فلا ينعت به المعرفة.

وعلى الأقوال كلها: فهو مُفهِم معنى الاستثناء، وأنَّ نفى التسوية غير مسلط على ما أضيف إليه «غير».

وقوله: ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ هو مبين لمعنى نفى المساواة.

قالوا: والمعنى: فضَّل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر درجة واحدة؛ لامتيازهم عنهم بالجهاد بنفسهم ومالهم. ثم أخبر سبحانه أن الفريقين كليهما موعود بالحسنى فقال: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أى المجاهد والقاعد المضرور لاشتراكهم فى الإيمان.

قالوا: وفى هذا دليل على تفضيل الغنى المنفق على الفقير؛ لأن الله أخبر أن المجاهد بماله ونفسه أفضل من القاعد، وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس. وأما الفقير =

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٥٣] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما.

= فنفى عنه الحرج بقوله: ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة: ٩٢] فأين مقام من حكم له بالتفضيل إلى مقام من نفى عنه الحرج؟

قالوا: فهذا حكم القاعد من أولى الضرر والمجاهد.

وأما القاعد من غير أولى لضرر: فقال تعالى: ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

وقوله: ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ قيل: هو نصب على البدل من قوله: ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وقيل: تأكيد له، وإن كان بغير لفظه. لأنه هو هو في المعنى.

قال قتادة: الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة.

وقال ابن زيد: الدرجات التي فضل الله بها المجاهد على القاعد سبع: وهي التي ذكرها الله في براءة، إذ يقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) ﴾ [التوبة]

ثم قال: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ [التوبة:١٢١] فهاتان اثنتان.

وقيل: الدرجات سبعون درجة مابين الدرجتين حُضْرُ(١) الفرس الجواد المضمر سبعين سنة.

والصحيح: أن الدرجات هي المذكورة في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه الذي رواه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «من آمن لله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، فإن حقًا على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيله أو جلس في أرضه التي ولد فيها». قالوا: يا رسول الله ، أفلا نخبر الناس بذلك؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله. كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنه تُفجر أنهار الجنة»(٢).

قالوا: وجعل سبحانه وتعالى التفضيل الأول بدرجة فقط، وجعل هاهنا بدرجات =

(١) الحُضْر: ارتفاع الفرس في عدوه. لسان العرب: [٤/٢٠١].

(٢) أخرجه البخاري [٢٧٩٠].

= ومغفرة ورحمة، وهذا يدل على أنه يفضل على غير أولى الضرر. فهذا تقرير هذا القول وإيضاحه.

ولكن بقي أن يقال: إذا كان المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقاً لزم أن لايستوى مجاهد وقاعد مطلقاً. فلا يبقى في تقييد القاعدين بكونهم من غير أولى الضرر فائدة. فإنه لا يستوى المجاهدون والقاعدون من أولى الضرر أيضاً.

وأيضاً فإن القاعدين المذكورين في الآية الذين وقع التفضيل عليهم هم غير أولى الضرر، لا القاعدون الذين هم أولو الضرر. فإنهم لم يذكر حكمهم في الآية، بل استثناهم، وبين أن التفضيل على غيرهم. فاللام في القاعدين للعهد. والمعهود هم: غير أولى الضرر، لا المضرورون.

وأيضاً فالقاعد من المجاهدين لضرورة تمنعه من الجهاد له مثل أجر المجاهد، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»(١) وقال ﷺ: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر»(٢).

وعلى هذا فالصواب أن يقال: الآية دلت على أن القاعدين من غير أولى الضرر عن الجهاد لا يستوون هم والمجاهدون، وسكت عن حكمهم بطريق منطوقها ولا يدل مفهومها على مساواتهم للمجاهدين، بل هذا النوع منقسم إلى معذورين من أهل الجهاد، غلبه عذره، وأقعده عنه، ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها وإنما أقعده العجز فهذا الذي تقتضيه أدلة الشرع أن له مثل أجر المجاهد. وهذا القسم لا يتناوله الحكم بنفي التسوية؛ وهذا لأن قاعدة الشريعة أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدمات الفعل نزل صاحبه في الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام، كما دل عليه قوله ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»(٣). =

(١) أخرجه البخاري [٢٩٩٦] عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه بلفظ: «مقيمًا صحيحًا» بدلاً من «صحيحاً مقيماً».

(٢) أخرجه البخاري [٢٨٣٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه بلفظ «إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا فيه، حبسهم العذر». وأخرجه مسلم [١٥٩/١٩١١] عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما.

(٣) أخرجه البخاري [٣١ ، ٨٣-٧] ومسلم [١٤/٢٨٨٨] عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه.

....

= والقسم الثاني: معذور ليس من نيته الجهاد ولا هو عازم عليه عزماً تاماً، فهذا لايستوى هو والمجاهد فى سبيل الله، بل قد فضل الله المجاهدين عليه وإن كان معذوراً؛ لأنه لا نية له تلحقه بالفاعل التام كنية أصحاب القسم الأول.

وقد قال النبى ﷺ فى حديث عثمان بن مظعون: «إن الله قد أوقع له أجره على قدر نيته»(1) فلما كان القسم المعذور فيه التفصيل، لم يجز أن يساوى بالمجاهد مطلقاً، ولا ينفى عنه المساواة مطلقاً، ودلالة المفهوم لا عموم لها، فإن العموم إنما هو من أحكام الصيغ العامة وعوارض الألفاظ، والدليل الموجب للقول بالمفهوم لا يدل على أن له عموماً يجب اعتباره، فإن أدلة المفهوم ترجع إلى شيئين:

أحدهما: التخصيص، والآخر: التعليل.

فأما التخصيص: فهو أن تخصيص الحكم بالمذكور يقتضى نفى الحكم عما عداه، وإلا بطلت فائدة التخصيص، وهذا لا يقتضى العموم، وسلب حكم المنطوق عن جميع صور المفهوم؛ لأن فائدة التخصيص قد تحصل بانقسام صور المفهوم إلى مايسلب الحكم عن بعضها ويثبت لبعضها ثبوت تفصيل فيه، فيثبت له حكم المنطوق على وجه دون وجه، إما بشرط لا تجب مراعاته فى المنطوق، وإما فى وقت دون وقت، بخلاف حكم المنطوق فإنه ثابت أبداً. ونحو ذلك من فوائد التخصيص، وإذا كانت فائدة التخصيص حاصلة بالتفصيل والانقسام، فدعوى لزوم العموم من التخصيص دعوى باطلة؛ فإثباته يجرد التحكم.

وأما التعليل فإنهم قالوا: ترتيب الحكم على هذا الوصف المناسب له يقتضى نفى الحكم عما عداه، وإلا لم يكن الوصف المذكور علة. وهذا أيضاً لا يستلزم عموم النفى عن كل ما عداه، وإنما غايته اقتضاؤه نفى الحكم المرتب على ذلك الوصف عن الصور المنفى عنها الوصف، وأما نفى الحكم جملة فلا يجوز ثبوته بوصف آخر، وعلة أخرى. فإن الحكم الواحد بالنوع يجوز تعليله بعلل مختلفة، وفى الواحد بالعين كلام ليس هذا موضعه. ومثال هذا مانحن فيه لأن قوله تعالى:

﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ لا يدل على مساواة المضرورين المجاهدين مطلقاً من حيث الضرورة بل إن ثبتت المساواة فإنها =

(1) جزء من حديث رواه أحمد فى المسند [٥/٤٤٦]، والنسائى فى المجتبى [١٨٤٦]. وصححه الألبانى فى صحيح النسائى [١٧٤٢].

وساعة نسمع كلمة: ﴿درجة﴾ فهى المنزلة، والمنزلة لا تكفى فقط للإيضاح الشامل للمعنى، ولكن هى المنزلة الارتقائية. أما إن كان التغير إلى منازل أخرى أقل أو أدنى، فنحن نقول: «دركات» ولا نقول: «درجات».

ولكن هل الدرجات هى لكل المجاهدين؟ لا؛ لأننا لابد أن نلحظ الفرق بين مفارقة الأهل للجهاد، وعملية الجهاد فى ذاتها.

عملية الجهاد فى ذاتها تحتاج إلى قوة إيمانية عالية لما فيها من مشقة وإنفاق للأموال وقد يصل الأمر إلى بذل الأرواح فى سبيل إعلاء كلمة الله ولذلك قال الحق سبحانه فى سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾ [التوبة].

يوضح الحق سبحانه أنه لا يجوز لأهل المدينة والأعراب الذين من حولهم أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ ولا يرضوا لأنفسهم بالسعة والدعة والراحة ورسول الله ﷺ فى الشدة والمشقة، فكما ذهب إلى القتال يجب أن يذهبوا؛ لأن الثواب كبير، فلا يصيبهم تعب إلا ولهم عليه أجر العمل الصالح، ولا يعانون من جوع إلا ولهم أجر العمل الصالح، ولا يسيرون فى مكان يغيظ الكفار إلا ولهم أجر العمل الصالح. ولا ينالون من عدو نيلاً إلا ويكتبه الله لهم عملاً صالحاً، فسبحانه يجزى المؤمنين بأحسن ما كانوا يعملون.

= معللة بوصف آخر وهى النية الجازمة والعزم التام، والضرر المانع من الجهاد فى ذلك الحال لا يكون مانعاً من المساواة فى الأجر، و الله أعلم.

بدائع التفسير : [٢/ ٦٦- ٧٣] بتصرف.

وعندما نقوم بعدُّ هذه الدرجات نجدها: الظمأ، وهو: العطش، والنصب، الذى هو: الإعياء والتعب، والمخمصة، التى هى: الجوع الشديد، ويطئون موطئاً يغيظ الكفار أى: ينزلون منزلاً يتمكنون فيه من أن يبسطوا سلطانهم على الكافرين ويُنكِّلوا بهم، ولا ينالون من عدو نيلاً أى: تقتيلاً وأسراً وهزيمة، والنفقة الصغيرة أو الكبيرة، وقطع أى واد فى سبيل الله، هذه هى الدرجات السبع التى يجزى الله عنها بأحسن مما عمل أصحابها، فمن نال الدرجات السبع فقد نال منزلة عظيمة، وكل مجاهد على حسب مابذل من جهد. فمن المجاهدين من ينال درجة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو سبع درجات (١).

وهنا نلحظ أن الله يُرَغِّبُ المؤمنين فى أن يكونوا مجاهدين، وأن يبذلوا

(١) قال الفخر الرازى: اعلم أن الله تعالى لما أمر بقوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] بوجوب الكون فى موافقة الرسول عليه السلام فى جميع الغزوات والمشاهد، أكد ذلك فنهى فى هذه الآية عن التخلف. فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ والأعراب الذين كانوا حول المدينة: مزينة، وجهينة، وأشجع، وأسلم، وغفار، هكذا قاله ابن عباس.
وقيل: بل هذا يتناول جميع الأعراب الذين كانوا حول المدينة فإن اللفظ عام، والتخصيص تحكم، وعلى القولين فليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله، ولا يطلبوا لأنفسهم الحفظ والدعة حال مايكون رسول الله فى الحر والمشقة.
وقوله: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ يقال: رغبت بنفسى عن هذا الأمر أى: توقفت عنه وتركته، وأنا أرغب بفلان عن هذا أى: أبخل به عليه ولا أتركه. والمعنى: ليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم مايرضاه الرسول ﷺ لنفسه.
واعلم أن ظاهر هذه الألفاظ وجوب الجهاد على كل هؤلاء. إلا أنا نقول: المرضى والضعفاء والعاجزون مخصوصون بدليل العقل، وأيضاً بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وأيضاً بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور:٦١] الآية. وأما أن الجهاد غير واجب على كل أحد بعينه، فقد دل الإجماع عليه، فيكون مخصوصاً من هذا العموم، وبقى ماوراء هاتين الصورتين داخلاً تحت هذا العموم.
واعلم أنه تعالى لما منع من التخلف بين أنه لا يصيبهم فى ذلك السفر نوع من أنواع =

= المشقة إلا وهو يوجب الثواب العظيم عند الله تعالى ثم إنه ذكر أموراً خمسة:
أولهـا: قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو شدة العطش، يقال: ظَمِئَ فلان إذا اشتد عطشه
وثانيهـا: قوله: ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ومعناه الإعياء والتعب.
وثالثهـا: ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يريد مجاعة شديدة يظهر بها ضمور البطن. ومنه يقال: فلان خميص البطن.
ورابعهـا: قوله ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أى ولا يضع الإنسان قدمه، ولا يضع فرسه حافراً ولا يضع بعيره خفه بحيث يصير ذلك سبباً ليغيظ الكفار.
قال ابن الأعرابى: يقال غاظه وغيظه وأغاظه بمعنى واحد، أى أغضبه.
وخامسهـا: قوله: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أى: أسراً وقتلاً وهزيمة، قليلاً كان أو كثيراً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أى: إلا كان ذلك قربة لهم عند الله. ونقول: دلت هذه الآية على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله. وكذا القول فى طرف المعصية، فما أعظم بركة الطاعة وما أعظم شؤم المعصية. واختلفوا فقال قتادة: هذا الحكم من خواص رسول الله إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر. وقال ابن زيد: هذا حين كان المسلمون قليلين فلما كثروا نسخها الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة:١٢٢] وقال عطية: ما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله إذا دعاهم وأمرهم وهذا هو الصحيح؛ لأنه تتعين الإجابة والطاعة لرسول الله إذا أمر وكذلك غيره من الولاة والأئمة إذا ندبوا وعينوا. لأنا لو سوَّغنا للمندوب أن يتقاعد، لم يختص بذلك بعض دون بعض ولأدى ذلك إلى تعطيل الجهاد.
ثم قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ يريد: تمرة فما فوقها، وعلاقة سوط فما فوقها، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ والوادى: كل مفرج بين جبال وآكام يكون مسلكاً للسيل، والجمع الأودية. إلا كتب الله لهم ذلك الإنفاق وذلك المسير.
ثم قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وفيه وجهان:
الأول: أن الأحسن من صفة فعلهم، وفيها الواجب والمندوب والمباح والله تعالى يجزيهم على الأحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح.
والثانى: أن الأحسن صفة للجزاء، أى: يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل، وهو الثواب.

التفسير الكبير: [١٦/ ٢٢٣-٢٢٥]

الغالى والنفيس لتكون كلمة الله هى العليا. فإذا ما آمن الإنسان فليس له أن يتخلف عن الصف الإيمانى؛ لأنه مادام قد نفع نفسه بالإيمان فلم لا ينضم إلى ركب من ينفع سواه بالإيمان؟.. ويريد الله سبحانه أن يعبئ كل من باشر الإيمان قلبه، وحتى لو كان موجوداً فى مكان يسيطر عليه الكفار، فيدعوه لأن يتخلص من التفاف الكفار حوله وينخلع منهم ويخرج منضمًا إلى جماعة المؤمنين واقرأوا إن شئتم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)﴾ [النساء]

تحريض المؤمنين على الجهاد

قال الله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)﴾ [النساء]

مادة: «شرى»، ومادة «اشترى» كلها تدل على التبادل والمقايضة، فأنت تقول: أنا اشتريت هذا الثوب بدرهم؛ أى: أنك أخذت الثوب ودفعت الدرهم، «وشرى» تأتى أيضًا بمعنى: باع، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)﴾

فالجماعة الذين وجدوا يوسف عليه السلام فى الجب كانوا فيه من الزاهدين. ولذا باعوه بثمن بخس.

إذن.. «شرى» من الأفعال التى تأتى بمعنى البيع، وبمعنى الشراء [1]؛ لأن المبيع والمشترى يتماثلان فى القيمة، وكان الناس قديماً يعتمدون على المقايضة فى السلع، فلم يكن هناك نقد متداول، كان هناك من يعطى بعض الحب ويأخذ بعض التمر، فواحد يشترى التمر وآخر يشترى الحب،

---

(١) شَرَى الشئَ يَشْرِيه شِرًى وشِراءً، واشْتَراه سَوَاءٌ. وشراه واشتراه: باعه. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وقال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)﴾ [يوسف] أى باعوه. قال أبو زيد: شريت: بعت، وشريت أى: اشتريت. قال الله عز وجل: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال الفراء: بئسما باعوا به أنفسهم، وللعرب فى شروا واشتروا مذهبان: فالأكثر منهما أن يكون شروا: باعوا، واشتروا: ابتاعوا، وربما جعلوهما بمعنى باعوا. الجوهرى: الشراء يُمَدُّ ويُقْصَرُ شَرَيْتُ الشئَ أَشْرِيه شِرَاءً: إذا بعتَه وإذا اشتريته أيضاً وهو من الأضداد.

لسان العرب: [١٤/٤٢٧ - ٤٢٨] بتصرف.

والذى جعل المسألة تأخذ صورة شراء وبيع هو وجود سلع تباع بالمال.

وما الفرق بين السلع والمال؟ السلعة هى طعام مباشر، والمال طعام غير مباشر. فأنت مثلاً تأكل رغيف الخبز وثمنه خمسة قروش، لكن لو عندك جبل من ذهب وتحتاج رغيفاً ولا تجده، هل تستطيع أن تأكل من الذهب؟!.

إذن فالرغيف طعام مباشر؛ لأنك ستأكله، أما الذهب فهو طعام غير مباشر؛ لأنك تشترى به ماتنتفع به. وبذلك نستطيع أن نحدد المسألة، فالسلعة المستفاد منها مباشرة هى رزق مباشر، ندفع ثمنها مما لا ننتفع به مباشرة، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعقد مع المؤمنين به صفقة فيها بيع وشراء. قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ [٧٤: النساء] فالمؤمن هنا يعطى الدنيا؛ ليأخذ الآخرة التى تتمثل فى الجنة والجزاء، ومنزلة الشهداء؛ واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١]

تلك هى الصفقة التى يعقدها الحق سبحانه مع المؤمنين به، وهو جل وعلا يريد أن يعطينا مانتعرف به على الصفقات الرابحة، فكل منا فى حياته يحب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطى شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه، ولذلك يقول سبحانه فى آية أخرى: ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر: ٢٩]

هنا أيضاً تجارة، وأنت حين تريد أن تعقد صفقة عليك أن تقارن الشىء الذى تعطيه بالشىء الذى تأخذه، وما الذى يجب أن يُضحى به فى سبيل الآخر؟

الحق سبحانه قد وصف الحياة بأنها: «الدنيا» ولا يوجد وصف أدق من

هذا. فأوضح سبحانه المسألة: إنك ستعطى الدنيا وتأخذ الآخرة، فإذا كان الذى تأخذه فوق الذى تعطيه فالصفقة- إذن- رابحة، فالدنيا مهما طالت فإلى نهاية، ولا تقل كم عمر الدنيا؛ لأنه لا يعنيك أن يكون عمر الدنيا ألف قرن، وإنما عمر الدنيا بالنسبة لكل فرد: هو مقدار حياته هو فيها، وإلا فإن دامت لغيرى فما نفعى أنا؟.

إذن.. فقيمة الدنيا هى: مقدار عمرك فيها، ومقدار عمرك فيها مظنون، وعلى الرغم من ثبات متوسطات الأعمار فى القرن العشرين تقريباً، فالبعض يقول: متوسط الأعمار سبعون، أو خمس وستون سنة، لكن ذلك لا يمنع الموت من أن يأخذ طفلاً، أو فتى، أو رجلاً، أو شيخاً.

إن عمر الدنيا بالنسبة لكل إنسان هو مقدار حياته فيها، فلا تقارنها بوجودها مع الآخرين، إنما قارنها بوجودها معك أنت، وهب أنه متيقن ولكنه محدود بسبعين عاماً على سبيل المثال، ستجد أن تَنَعُّمَكَ خلالها مهما كبر وعظم فهو محدود؛ لأن حياتك فيها محدودة، وإمكاناتك محدودة.

ولماذا يدخل الله العبد فى عملية البيع هذه؟ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعرض عليك الصفقة لتدخل فى عملية البيع التى تجهدك إن لم تَقتل أو تُقتل فى سبيل الله، لابد أن يوضح لك كيفية الوسيلة التى تأخذ بها الغاية وهى الفوز فى الآخرة، ولن تأخذ هذا الفوز بالكلام فقط، ولكن انظر إلى المنهج الذى ستقاتل من أجله، إنه إقامة المجتمع المؤمن المتكامل، الذى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، مجتمع فيه الناس سواسية كأسنان المشط لا فرق بين أبيض وأسود، التفاضل فيه بالتقوى، والعمل الصالح.

إن مثل هذا المنهج الذى يكفل أمان الجميع يستحق أن يدافع الإنسان عن

تطبيقه. واعلم أنك ساعة تذهب إلى القتال، قد تُقتل، فستأخذ صفقة الآخرة، وقَصُرت مسافة غاياتك؛ لأن كل شئ إنما يقاس بزمن الغاية له، فإن قتُلت فقد قصرت المدة للوصول إلى الغاية، فتصل إلى الجنة.

والحمق هو الذى يصيب الناس عندما يموت عزيز أو حبيب فيغرقون فى الحزن. نقول لهم: ألسنا جميعاً سائرين إلى هذه الغاية، فلماذا الاستغراق فى الحزن إذن؟.

والحق سبحانه وتعالى يكافئ من يُقتل فى سبيله بحياة فى عالم آخر فيها رزق كريم (١). وبعض الناس يظنون أنهم إن فتحوا قبر الشهيد فسيجدونه حيًا يُرزق. ونقول لهم: إن الحق لم يقل: إن الشهداء أحياء عندكم، بل أحياء عنده سبحانه فى عالم الغيب.

والحق سبحانه يطلب من الذى آمن بالإسلام أن ينشره، وأن يصلح المسلمون ما بين أنفسهم لتتصلح أمورهم، وأن يواجهوا أصحاب الشر الذين لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

وسبق أن قلنا: إن الله تعالى لم يأمر بقتال قبل رسالة رسول الله ﷺ فقد كان الرسول من السابقين على محمد ﷺ يبلغ قومه برسالته، فإن آمنوا فبها ونعمت، وإن لم يؤمنوا يتدخل الله بالعقاب: بريح صرصر، رجفة، صيحة، خسف الأرض بهم، طوفان، إذن.. فالرسول قبل النبى محمد ﷺ كان يبلغ، و الله يعاقب مَنْ لم يؤمن.

لقد جاء الإسلام وآمن به الضعاف الذين لايملكون أن يقاتلوا، فلم يكن باستطاعتهم أن يحموا حتى أنفسهم؛ ذلك حتى نعرف أن الحق ساعة يأتى، يأتى عادة لا من قوى بل يأتى من ضعيف تعب كثيراً كى يثبت الإيمان، ونحن نعلم أن الإسلام جاء أول ما جاء فى مكة، لكنه لم ينتصر

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران]

كرسالة ولم ينتشر إلا من المدينة. فمكة بلد محمد ﷺ وفيها قبيلته قريش التى ألفت السيادة على الجزيرة كلها، ولا أحد يستطيع أن يجرؤ على الاعتداء عليها ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تعترض قوافلها بالتجارة إلى الجنوب أو إلى الشمال.

إن أى قبيلة تخاف أن تتعرض لها فى الطريق؛ لأن القبائل ستأتى إلى قريش فى موسم الحج، وتخاف كل قبيلة من انتقام قريش، فلو أن الإسلام الذى جاء به رسول الله ﷺ انتصر فى مكة ربما قالوا: قبيلة عشقت السيادة، ودانت لها أمة العرب، فما المانع من أن تطمح فى أن يدين لها العالم كله؟.

وشاء الحق سبحانه أن تكون قريش هى أول من يضطهد رسول الله ﷺ ويحاربه، والضعاف هم الذين يتبعونه، ثم بعد ذلك يأتى النصر لدين الله من مكان بعيد عن مكة من «المدينة».

ونعلم أن القتال عملية ضرورية فى الحياة. فالحق سبحانه: يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١]

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]

إذن.. فدفع الله بعض الخلق بالخلق أمر ضرورى واقعى. وحين يحاول المستشرقون الإساءة بالباطل إلى الإسلام لأنه أمر بالقتال، نقول لهم: إن الحق سبحانه وتعالى حينما شرع هذا القتال فقد شرعه لأن قوى البغى هى التى تحول دون وصول منهج الله تعالى إلى الناس وتصد عن دعوة الحق، وترغم الناس على عدم الدخول فى الإسلام.

ويوضح الحق سبحانه أن رسالة الرسول ﷺ إنما جاءت لتحقق حرية الاختيار عند الإنسان، فهو سيد الأجناس التى تحيط به، فالجماد مسخر،

والنبات مسخر، والحيوان مسخر، وليس لأى منهم حرية فى أن يقول: افعل ولا أفعل، فلا توجد إرادة ولا اختيار عند كل الأجناس إلا عند الإنسان؛ فالحق سبحانه هو القائل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢] (١)

(١) قال أبو السعود: لما بين عظم شأن طاعة الله ورسوله، ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الأليم، ومآل المراعين لها من الفوز العظيم عقّب ذلك ببيان عظم شأن مايوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن ماصدر عنهم من الطاعة وتركها، صدر عنهم بعد القبول والالتزام. وعبر عنها بـ﴿الأمانة﴾ تنبيهاً على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين، وائتمنهم عليها، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد. وأمرهم بمراعاتها، والمحافظة عليها وأدائها، من غير إخلال بشيء من حقوقها. وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ماذكر من السموات وغيرها، بالعرض عليهن، لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة فى قبولهن لها- وعن عدم استعدادهن لقبولها، بالإباء والإشفاق منها، لتهويل أمرها وتربية فخامتها- وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها، بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة التى يستعمل فيها القوى الجسمانية، التى أشدها وأعظمها مافيهن من القوة والشدة. والمعنى: أن تلك الأمانة فى عظم الشأن، بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام، التى هى مثل فى القوة والشدة، مراعاتها، وكانت ذات شعور وإدراك، لأبين قبولها وأشفقن منها. ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق، روماً لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه. وقوله تعالى: ﴿وحملها الإنسان﴾ أى عند عرضها عليه. إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده، أو بتكليفه إياها يوم الميثاق- أى تكلفها والتزمها مع مافيه من ضعف البنية ورخاوة القوة- وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى، أو عن اعترافه بقوله: (بلى). وقوله تعالى: ﴿إنه كان ظلوما جهولا﴾ اعتراض وسط بين الحمل وغايته، للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله أى أنه كان مفرطًا فى الظلم، مبالغًا فى الجهل. أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة. أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلا"

تفسير القاسمى [١٣/ ٤٩٢٤]

إذن.. فبأى شئ تميز الإنسان على هؤلاء الأجناس؟ تميز عليهم بالعقل، ومهمة العقل أن يختار بين الأبدال، أما إذا كان هناك أمر ليس له بديل، فليس للعقل عمل فيه.

ومثال ذلك: إذا سألت عن مكان تريد أن تذهب إليه، وحينما سألت عن الطريق، قيل لك: لا يوجد إلا هذا الطريق، فهل تفكر أن تذهب من طريق آخر؟ بالطبع لا.

إذن.. فالعقل لا عمل له إلا الاختيار بين الأبدال، فإن لم يكن هناك بديل فلا عمل له. وإذا أراد العقل أن يختار بين الأبدال أنجعل له حرية الاختيار أم نقيد حرية الاختيار لديه؟.

إنك إن قيدت حرية الاختيار بالإكراه فقد أخذت النعمة التى أعطاها الله تعالى له، وجعلته مقهوراً مُسخراً مُكرهاً؛ ولذلك فالمكره لا يكون له حكم على الأشياء بل هو مجبر ومسخر.

ومادمت تقول: إن العقل هو الذى يختار بين الأبدال، فلا بد أن يكون حق الاختيار موجوداً، فإن كان فى الإنسان عطب كأن يكون مجنوناً، فلا اختيار له، وإن كان العقل موجوداً، لكنه لم ينضج بعد نقول أيضاً: لا اختيار.

إذن.. فلابد أن يكون العقل موجوداً وناضجاً للاختيار بين الأبدال، ويكون للإنسان حرية أن يختار، فإن لم يكن العقل موجوداً فهو مجنون فلا تكليف عليه. والمجنون قد سلبه الله أعز ما أعطى للإنسان وهو العقل، ولذلك أعفاه الله من أن يسأله أحد عن شئ، فيفعل مايفعل دون سؤال، فلا تكليف لمجنون، فالتكليف إذن لصاحب العقل الناضج، وكذلك لا تكليف من قبل البلوغ.

إذن.. الإسلام جاء ليحمى كرامة الإنسان فى حرية الاختيار، ويعرض

عليه أمر الإيمان، فالذى حمل السيف لم يحمله ليجبر أحداً على الإيمان. ولوكان الإسلام يفرض الإيمان على الناس فى البلاد التى فتحها لما وجدنا أتباع لأى دين فى البلاد التى دخلها الإسلام، وهذه شهادة للمسلمين.

إن الإسلام لم يجئ ليفرض ديناً، وإنما جاء ليحمى حرية اختيار الدين والذين يقولون: إن الإسلام جاء بالسيف نقول لهم: افهموا جيداً، لقد كان المؤمنون الأوائل ضعافاً وظلوا على الضعف مدة طويلة، والبلاد التى فتحت بالإسلام مازال فيها أناس غير مسلمين، وهذا دليل أن الإسلام جاء ليحمى حرية الاختيار: ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

وعلى ذلك يجب أن نفهم أن قول الحق سبحانه: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٤].

فالقتال إنما جاء حتى يَحكُم منهج الله الخالق سبحانه، خلقه، فهو الأعلم بهم، وسبحانه حينما يقول: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فهذا يدلنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله، كأن يقاتل الرجل حمية، أو ليقال أنه شجاع، فقتال الرجل دائماً حسب نيته، ولذلك يتساءل بعض الناس: من الشهيد؟ والجواب هو: مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا هو الشهيد(١).

إذن.. فالقتال مرة يكون فى سبيل الله، ومرة يكون فى سبيل النفس، ومرة يكون فى سبيل الشيطان.

والله تعالى يقول: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

(١) أخرج البخارى [٢٨١٠] عن أبى موسى رضى الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال الرجل يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل للذكر، والرجل يُقاتل ليُرَى مكانه، فمن فى سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله».

بالآخرة ﴾ [النساء: ٧٤] أى: يبيعون الدنيا ليفوزوا بالآخرة.

ويقول تعالى: ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٤].

إذن.. فالذى يدخل القتال هو أمام أمرين اثنين: إما أن يُقتل من الأعداء، وإما أن ينتصر، وهذه هى القضية الجدلية التى تنشأ بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، والمقاتل من معسكر الإيمان يقول لمعسكر الكفر: أنا أقاتل فى سبيل الله طلبًا لاحدى الحسنيين: إما أن أُقتل فأصبح شهيداً؛ وآخذ حياة أفضل من هذه الحياة، وإما أن أنتصر عليكم؛ فأفوز بالنصر والغنيمة.

إن المؤمن يثق أنه فائز على كل حال؛ فإن قُتل ذهب إلى الجنة وإلى حياة أفضل من حياة الدنيا، وإما أن ينتصر، والحالتان على سواء من الخير.

ولقد رأى رسول الله ﷺ الذين يقاتلون فى سبيل الله، وعرضت عليه حياتهم وهو فى ليلة الإسراء والمعراج، نقد رأى ﷺ جماعة يزرعون ويحصدون بعد البذر مباشرة؛ لأن الذى قُتل فى سبيل الله إنما فعل ذلك إعلاء لكلمة الله، فلا ينتهى قطفه أبداً للخير الذى بذله، وحياته مستمرة فى حياة الملايين الذين قتل فى سبيل إبلاغهم الدعوة (١) ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾. وعرفنا أن كل مؤمن

(١) ذكر البيهقى فى حديث الإسراء الطويل عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ① ﴾ [الإسراء] قال: أتى بفرس فحمل عليه، قال: كل خطوة منتهى أقصى بصره، فسار وسار معه جبريل عليه السلام، فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال: «يا جبريل، من هؤلاء؟» قال: هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله يُضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩]. جزء من حديث رواه البيهقى فى الدلائل [٢/٣٩٧-٣٩٩]، وانظر الدر المنثور [٥/١٩٨-٢٠٠]، وتفسير الطبرى [١٥/٦، ٧].

يقاتل فى سبيل الله إنما يقول لمعسكر الكفر ما جاء به الحق فى قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]

فالمؤمن يعلم أنه إما أن يُقتل فيكون شهيداً، وإما أن يغلب معسكر الكفر، فله النصر والغنيمة، وهو يتربص بالكافرين أن يصيبهم الله بعذاب من عنده، أو بأيدى المؤمنين؛ إذن.. فالمؤمنون رابحون على كل حال، والكافرون خاسرون على كل حال(1).

و«المعَرِّى» قبل أن يهديه الله وكان متشككاً قال:

تحطمنا الأيام حتى كأننا   زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك (2)

(1) قال الشوكانى: وعدَ المقاتلين فى سبيل الله بأنه سيؤتيهم أجراً عظيماً لا يُقدَّر قدره؛ وذلك أنه إذا قُتل فاز بالشهادة التى هى أعلى درجات الأجور، وإن غلب وظفر كان له أجر من قاتل فى سبيل الله مع ما قد ناله من العلو فى الدنيا والغنيمة، وظاهر هذا يقتضى التسوية بين من قتل شهيداً، أو انقلب غانماً، وربما يقال: إن التسوية بينهما إنما هى فى إيتاء الأجر العظيم ولا يلزم أن يكون أجرهما مستوياً؛ فإن كون الشئ عظيماً هو من الأمور النسبية التى يكون بعضها عظيماً إلى ما هو دونه، وحقيراً بالنسبة إلى ما هو فوقه.

فتح القدير: [1/577]

(2) أبو العلاء المعرى: ولد يوم الجمعة فى السادس والعشرين من كانون الأول سنة تسعمائة وثلاث وسبعين للميلاد، 363هـ. واسماه أبوه أحمد، وعرف بأبى العلاء بين الناس بعد ذلك. ولما وصل للثالثة من عمره أصيب بالجدرى ففقد بصره.

انصرف للعلم وتلقى مبادئه عن أبيه، ودرس أسرار اللغة والنحو فى بلده، ثم سافر إلى حلب سعياً وراء التخصص والاستماع إلى كبار العلماء، وزار مكتباتها، ثم ذهب إلى أنطاكية، ثم اللاذقية، ثم إلى طرابلس الشام، ثم عاد إلى وطنه وقد حظى من علوم عصره بحظ وفير وكان قوى الحافظة حتى حكى عنه أن كان يحفظ كل مايسمعه ومنزلته من علوم اللغة والصناعة الشعرية معروفة.

توفى سنة 449هـ- 1057م. =

فقالوا: إنه ينكر البعث، فمادام قد جاء بقول يقول فيه: إن الإنسان كالزجاج إن تحطم فلن يستطيع أحد أن يعيده إلى سيرته الأولى، قال ذلك أيام تكبُّر الفكر، فى أيام الغرور، ثم جاءت الأحداث لتلويه وتضرب فى فكره وينتهى إلى الإيمان، لكن: أكان ضامنًا أن يعيش حتى يؤمن؟ فلماذا لم يخلص نفسه من مرارة تجربة الشك؟ ولكنه بعد أن آمن قال كما قال غيره: هأنذا أموت على عقيدة عجائز أهل نيسابور. ربنا حق وربنا سميع وربنا بصير، وأنشد:

قال المنجم والطبيب كلاهما   لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر   أو صح قولى فالخسار عليكما (1)

أى: إن صح قولكما على أنه لا بعث وقمت أنا بالأعمال الطيبة فى الدنيا، فماذا أكون قد خسرت؟ إننى لن أخسر شيئًا، وإن صح قولى وفوجئتم بالآخرة والبعث، فأنا الذى يكسب، والخُسران والبوار والعذاب عليكما، إذن.. فإيمانى إن لم ينفعنى فلن يضرنى، وكلامكما حتى لو صح - وهو غير صحيح ولا سديد - فلن يضرنى.

وقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ انظروا دقة الأداء القرآنى ولأن القائل هو الله تعالى، فلنَرَ كيفية ترتيب فعل على فعل، فحين أقول لك: «احضر لى أكرمك»، فبمجرد الحضور يحدث الإكرام، ولكن إن قلت لك: «إن حضرت إلى فسأكرمك»، فهذا يعنى أن الزمن يمتد قليلاً، فلن تكرم فور أن تأتى، بل أنت تحضر عندى، وبعد ذلك تأخذ تحيتك، ويأتيك الإكرام بعد قليل.

= والبيت ورد فى الديوان:

«يحطمنا صرف الزمان كأننا   زجاج ولكن لا يعاد له السبك.

لزوم ما لا يلزم: [2/111]

(1) لزوم ما لا يلزم: [2/324].

وإن أردت أنا أن أطيل الزمن أكثر فإنى أقول: «إن حضرت إلى فسوف أكرمك». إذن فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل:

○ جزاء يأتى من فور حصول الشرط.

○ وجزاء يأتى بعد زمن يسير تؤديه «السين».

○ وجزاء يأتى بعد زمن أطول تؤديه. «سوف».

الحق سبحانه قال: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ولم يقل: «فسنؤتيه أجراً عظيماً» هذا القول سيبقى ليوم القيامة؛ لذلك كان لابد أن تأتى «سوف» هنا،وهذا دليل على أنه جزاء موصول لا مقطوع ولا ممنوع.

وقوله سبحانه: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يلفتنا إلى أن كل فعل إنما هو حدث يتناسب مع فاعله أثراً وقوة. فالطفل عندما يصفع آخر لا تكون صفعته فى قوة الشاب أو قوة الرجل، فإذا كان الذى يعطى الأجر مثلاً لك فسيعطيك أجراً على قدره؛ لكن إذا كان من يعطى هو ربنا سبحانه، فسيعطى الأجر الأعلى ولذا لا بد أن يكون ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ . والأجر هو الشىء المقابل للمنفعة.

وهناك فرق بين: الأجر والثمن، فالثمن مقابل العين، أما الأجر فهو مقابل المنفعة، أنا اشتريت هذه، فهذا يعنى أنى دفعت ثمناً، لكن إن استأجرت شيئاً فهو لصاحبه، ولكن أخذته لانتفع به فقط.

وجزاء الحق لمن يُقتل فى سبيل الله أهو أجر أم ثمن؟ نلحظ هنا أن الحق قد أوضح: أنا لم أُثمِّن من قُتل، بل نظرت لعمله، فأخذت أثر عمله، وأعطيته: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ

تَنكِيلًا﴾ [النساء:٨٤] حين نرى جملة فيها الفاء فاعلم أنها مسببة عن شىء قبلها. فإذا سمعت على سبيل المثال قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس:٢١] فمعنى ذلك أن القبر جاء بعد الموت. فإذا ما وجدنا «الفاء» فلنعرف أن ما قبلها سبب فيما بعدها، ويسمونها «فاء السببية» .

فما الذى كان قبل هذه الآية لتترتب عليه السببية فى قول الله سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ ؟.

نقول: مادام الأمر جاء بقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ﴾ ، فعلينا أن نبحث عن آيات القتال المتقدمة لهذه الآية، ألم يقل الله قبل هذه الآية: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ (٧٥)﴾ [النساء]

إذن.. أمر القتال من الله لمن؟ لرسول الله ﷺ . والرسول يبلغ هذا الأمر للمؤمنين به [1].

(١) قال محمد الطاهر بن عاشور فى قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾

تفريع على ما تقدم من الأمر بالقتال، ومن وصف المبطئين عنه، والمتذمرين منه، والذين يفتنون المؤمنين فى شأنه؛ لأن جميع ذلك تأثم، أفلد الاهتمام بأمر القتال، والتحريض عليه، فتهيأ الكلام لتفريع الأمر به. ولك أن تجعل الفاء فصيحة بعد تلك الجمل الكثيرة، أى: إذا كان كما علمت فقاتل فى سبيل الله ، وهذا عود إلى ما مضى من التحريض على الجهاد، وما بينهما اعتراض. فالآية أوجبت على الرسول ﷺ القتال، وأوجبت عليه تبليغ المؤمنين الأمر بالقتال وتحريضهم عليه، فعبر عنه بقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا الأسلوب طريق من طرق الحث والتحريض لغير المخاطب؛ لأنه إيجاب القتال على الرسول، وقد علم إيجابه على =

إذن.. فالرسول ﷺ هو أول من التزم أمر الله سبحانه فى قوله تعالى: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ثم بلغ ﷺ ذلك إلى المؤمنين، فمن آمن فهو مصدق لرسول الله ﷺ فى هذا الأمر. لكن علينا أن نعلم أن رسول الله ﷺ هو أول منفعل بالقرآن. فلما قال الحق سبحانه: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ فعليه ﷺ أن يُلزِم نفسه أولاً بهذا الأمر، وإن لم يستمع إليه أحد؛ وإن لم يؤمن به أحد؛ أو لم يتبعه أحد. وهذا دليل على أنه واثق من الذى قال له: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ لأنه ﷺ بإقباله على القتال وحده، إنما يدلل على صدق دعوته،ويعطى الأسوة لغيره، فساعة يراه غيره يقول: إن محمدا لن يغش نفسه. فقبل أن يأمر المؤمنين أن يقاتلوا قاتل هو وحده. ولذلك نجد أن أبا بكر الصديق رضوان الله تعالى عليه حينما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وولى الخلافة وحدثت الردة من بعض العرب. أصر رضى الله تعالى على أن يقاتل المرتدين وقال: لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه [1].

إذن.. فقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ هذا

= جميع المؤمنين بقوله: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ فهو أمر للقدوة بما يجب اقتداء الناس به فيه. وبين لهم علة الأمر وهى رجاء كف بأس المشركين، فـ«عسى» هنا مستعارة للوعد. والمراد بهم هنا كفار مكة، فالآيات تهيئة لفتح مكة.

وجملة: ﴿ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ تذييل لتحقيق الرجاء أو الوعد، والمعنى أنه أشد بأساً إذا شاء إظهار ذلك، ومن دلائل المشيئة امتثال أوامره التى منها الاستعداد وترقب المسببات من أسبابها.

والتنكيل عقاب يرتدع به رائيه فضلاً عن الذى عوقب به.

[التحرير والتنوير: ٥/١٤٢، ١٤٣]

(١) عن أبى هريرة قال: لما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر =

القول ينبهنا إلى أن هناك فرقاً بين البلاغ وبين تنفيذ المبلَّغ به.

فمادام الرسول ﷺ بُلغ من الله، فهو ملزم بتطبيق الفعل أولاً. وبعد ذلك يبلغ الرسول المؤمنين، فمن آمن به فعل فعله.

وقول الحق سبحانه: ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ هذا هو تكليف الفعل. لكن التكليف بالبلاغ شىء آخر.

إن الرسول ﷺ يبلغ، لكن أن يفعل المبلَّغون ما أمرهم به الله تعالى أم لا يفعلون، فهذا ليس شأنه، ولكن هل معنى ذلك أن يترك الرسول ﷺ الذين آمنوا به لأهوائهم؟لا.. قال له الحق سبحانه: ﴿ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ومعنى: ﴿ وَحَرِّضِ ﴾ [1] مأخوذة من «الحرض» وهو ما به تزال العوائق وما ينظف الأيدى والملابس مما علق بها من الوسخ والدنس. إن عليك يا رسول الله أن تنظر فى أمر صحابتك وأتباعك وتعرف لماذا لا يريدون أن يقاتلوا، وعليك أن تزيل الموانع التى

= من العرب قال عمر لأبى بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق. أخرجه البخارى [٧٢٨٤، ٧٢٨٥]، ومسلم [٢٠/٣٢].

(١) التحريض: التحضيض. قال الجوهرى: التحريض على القتال الحث والإحماء عليه. قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ [الأنفال: ٦٥]. قال الزجاج: تأويله حثهم على القتال، قال: وتأويل التحريض فى اللغة أن تحث الإنسان حثًا يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه، قال: والحارض الذى قد قارب الهلاك. قال ابن سيده: وحرضه: حضه. وقال اللحيانى: يقال حارض فلان على العمل وواكب عليه وواظب وواصب عليه: إذا داوم القتال، فمعنى ﴿ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ حثهم على أن يحارضوا أى يداوموا على القتال، حتى يثخنوهم.

لسان العرب [٧/١٣٣].

تمنعهم أن يقاتلوا، قال عز وجل: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لرسوله ﷺ: إنك لا تُنصر بالكثرة المؤمنة ولا بقوة العتاد، ولكن الله سبحانه وتعالى هو ناصرك ومؤيدك، قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:١٢٦]. لماذا؟

إن ورود كلمة: ﴿بَأْس﴾ فى الآية، يراد بها قوة الحق، ويراد بها المكيدة ويراد بها هزيمة الأعداء.

إذن.. كلمة: ﴿بَأْس﴾ فيها معن متعددة. فالحق يبلغ رسوله ﷺ: إنك يا محمد لا تكلف إلا نفسك، وإياك أن يخطر على بالك أن تقول: كيف أقاتل هؤلاء وحدى؟ كما أن القوم الذين آمنوا معك إذا ما دخلوا القتال، فهم أيضاً لا ينصرونك، ولكن النصر من عند الله تعالى، فالحق يقول: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤] فما هم إلا أسباب، فقد ينصر الله بهم أو بغيرهم، وقد يقول قائل:

ولماذا كل ذلك؟ لماذا لا ينصر الله المؤمنين والرسول مباشرة؟ فتكون الإجابة: إن النصر لو جاء بسبب غيبى من الحق ربما قالوا: ظاهرة طبيعية قد نشأت. ولكن الحق يريد أن يظهر أن القلة المؤمنة هى التى غلبت، وهذا هو معنى قول الحق: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾.

إذن.. فالمؤمن يقبل على الأسباب ولا ينسى المسبب. ولذلك حينما نظر المسلمون إلى الأسباب فقط فى «حنين»، وقال بعضهم: لن نهزم عن قلة فنحن كثير، ذاق المسلمون طعم الهزيمة أولاً، وبعد أن أعطاهم الحق الدرس التأديبى أولاً، نصرهم ثانياً. وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة:٢٥] وهذا لفت للمؤمنين أن

يأخذوا بالأسباب، ولكن عليهم الاّ ينسوا المسبب أبداً.

والفرق بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة المادية فى الخصوم قد حدث لخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام. فلم يكن الحق سبحانه يريد مجرد إنقاذ إبراهيم عليه السلام من النار. فلو كان هذا هو القصد لما مكن أعداء إبراهيم عليه السلام من القبض عليه، ولو فعل الحق ذلك لقال أعداء نبى الله إبراهيم عليه السلام: «آه لو كنا قد أمسكنا به!!» ولكن الحق سبحانه جعلهم يمسكون بإبراهيم عليه السلام. ولم يكن القصد أن ينجيه الحق من النار فقط؟ لا .. لأنه كان قادراً سبحانه على إرسال ريح أو مطر. ولكن سبحانه ترك النار تتأجج. وأمسك أعداء إبراهيم عليه السلام به، والنار ظلت متأججة ولكن الله أراد أن يقطع الأسباب، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] هذه هى النكاية، فلو جاء إنقاذ إبراهيم بطريق غير ذلك من الأمور الغيبية غير المادية المحسة، لوجد خصوم إبراهيم المخارج للهزيمة (١).

---

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى: ﴿قُلْنَا﴾ أى تعجيزاً لهم ولأصنامهم، وعناية بمن أرسلناه، وتصديقاً له فى إنجاء من آمن به ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا﴾ أى باردة على إبراهيم، مع كونك محرقة للحطب ﴿وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى ولا تنتهى فى البرد إلى حيث يهلكه، بل كونى غير ضارة. وجوز كون سلاماً منصوباً بفعله. والأمر مجاز عن التسخير؛ كما فى قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ [البقرة:٦٥] ففيه استعارة بالكناية بتشبيهها بمأمور مطيع، وتخييلها الأمر والنداء؛ ولذا قال أبو مسلم: المعنى أنه سبحانه وتعالى جعل النار برداً وسلاماً، لا أن هناك كلاماً، كقوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] أى فيكونه. فإن النار جماد ولا يجوز خطابه. وهو ظاهر.

تنبيه: قال الرازى: لهم فى كيفية برودة النار ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الله تعالى أزال عنها مافيها من الحر والاحتراق، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق. و الله على كل شئ قدير.

وثانيها: أن الله تعالى خلق فى جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه. =

لذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ ما معناه: يا محمد أنا الذى أرسلتك، ولم أكلك إلى نصرة من يؤمن بك، وإننى قادر على نصرتك بدون شىء. ولكن أمتك التى آمنت بك، أردت أن ينالها عن الإيمان بك فيستشهد بعضها، وتثاب الأمة، فتنتصر ، فتقوى هامتها.

وقول الحق سبحانه : ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ إن الحق قادر على أن يوقف حرب وكيد الكافرين . . وهذا ما حدث . فبعد موقعة أحد التى لم ينتصر فيها أى طرف نصراً بيناً؛ فرسول الله ﷺ والذين معه قد انتصروا أولاً. ثم خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ، فحدث خلل فى صفوف المقاتلين المسلمين. وعلى الطرف الثانى: لم يبق المحاربون من قريش فى مكان المعركة، ولم يتجاوزوها إلى داخل المدينة، إن المعركة فى أحد لم تنته بنصر أحد.

وبعد ذلك هددوا بأن الميعاد فى بدر الصغرى فى العام القادم. ومر العام، وجاء الميعاد، وأراد رسول الله ﷺ أن يخرج، فلما طالب بالخروج وجد كسلاً من القوم، ولم يطعه إلا سبعون رجلاً، وخرجوا إلى المكان المحدد. وجعل الله هؤلاء يذهبون إلى المكان، وأثبتوا أنهم لم يخافوا الموقف، وقذف الله الرعب فى قلب أبى سفيان وقومه فلم يخرجوا. أليس الله بقادر على أن يكف بأس الذين كفروا؟!

لقد أقام رسول الله ﷺ فى المكان، وجلس مع المقاتلين وكان معهم

= كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة. وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة، وبدن السمندل: بحيث لا يضره المكث فى النار.

وثالثها: أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلاً يمنع من وصول أثر النار إليه.

قال المحققون: والأول أولى؛ لأن ظاهر قوله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا﴾ أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها، لا أن النار بقيت كما كانت.

تفسير القاسمى: [١١/٤٢٨٥، ٤٢٨٦]

تجارة وباعوها وغنم المسلمون الكثير من هذه التجارة.

قال تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ كلمة ﴿عَسَى﴾ فى اللغة تأخذ أوضاعاً متعددة، فـ﴿عسى﴾ معناها فى اللغة: الرجاء، كقول واحد: «عسى أن يجىء فلان» أى «أرجو أن يجىء فلان» ، أو قول واحد مخاطبًا صاحبًا له: «عسى أن يأتيك فلان بخير» . إن هذا رجاء أن يأتى فلان إلى فلان ببعض الخير. وقد يأتى فلان بالخير وقد لا يأتى، ولكن الرجاء قد حدث. وقد يقول الإنسان لصاحبه: عسى أن آتيك أنا بخير. هنا يكون الرجاء أكثر قوة، لأن الرجاء فى الأولى فى يد آخر غير المتحدث. أما الخير هنا فهو فى يد المتحدث.

لكن أيضمن المتحدث أن يعيش وأن توجد له القوة حتى يأتى بالخير لمن يتحدث إليه؟ إنه صحيح ينوى ذلك، ولكنه لا يضمن أن توجد عنده القدرة. وإذا قال قائل: عسى الله أن يأتيك بالفرج، هذه الأخيرة هى الأوغل فى الرجاء. لكن هل من يقول ذلك واثق من أن الله يجيب هذا الرجاء ؟ قد يحدث أن يجيب الله وقد لا يحدث.

لكن عندما يقول الحق سبحانه : ﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ هنا يكون قول الحق هو البالغ لنهايات كل الرجاءات، فـ«عسى» بمراحلها المختلفة تبلغ قمتها عندما يقول الحق ذلك . فمراحل «عسى» كما أوردنا هى كالآتى:

أن يقول قائل: «عسى أن يفعل لك فلان خيراً» هذه مرحلة أولى فى الرجاء.

وأن يقول قائل: «عسى أن آتيك أنا بخير» هذه مرحلة أقوى فى

الرجاء. فقد يحب الإنسان أن يأتى بالخير لكن قد تأتى له ظروف تعوقه عن ذلك.

وأن يقول قائل: «عسى الله أن يفعل كذا» هذه مرحلة أكثر قوة، لأن الخير فيها منسوب إلى الله تعالى. لكن هذا الرجاء قد يجيبه الله وقد لا يجيبه.

والأقوى على الإطلاق هو قول الله سبحانه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إن ﴿عسى﴾ هنا رجاء محقق لأنه طمع في كريم، والطمع هنا ليس من العبد ولكن الرب هو القائل سبحانه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ لماذا؟ لأن أصحاب البأس من الخلق هم أهل أغيار، فالقوى منهم قد يضعف أو يصاب ببعض من الرعب فيخلخل عظامه. لكن واهب الفعل وواهب القوة للغير قادر على أن يفعل، فهو الأشد بأساً، وهو سبحانه أشد تنكيلاً.

وساعة يسمع الإنسان أى شئ من مادة «نكل» فعلينا أن نعرف أنها مأخوذة من القيد، فـ «النكل» هو القيد. وعندما يوقع الحاكم - مثلاً - العذاب على مرتكب لجريمة، فمن يرى من الناس هذا العذاب يخافوا من ارتكاب مثل هذه الجريمة، فكأن الحاكم قد قيدهم بالعذاب الذى ألحق بأول مجرم أن يفعلوا مثل فعله. بحيث يكون عبرة لمن يراه فلا يرتكب جريمة مثلها أبداً.

إذن.. فالتنكيل والنكال والنكل معناها القيد الذى يمنع إنساناً أن يتحرك نحو الجريمة أو قيد يمنع الإنسان أن يرجع إلى الجريمة فى ذاته أولاً، أو فيمن يراه ثانيًا (١).

(١) نكّل به تنكيلاً: صنع به صنيعاً يحذّر غيره. وقيل: نكله: نحّاه عما قبله. =

والحق سبحانه وتعالى خلق الخلق وجعلهم متفاوتين فى المواهب، ولا يوجد واحد قد جمع كل المواهب . لماذا؟ لأن فكر الإنسان وطاقة الإنسان وزمن الإنسان وظروف الإنسان، كل ذلك لا يجعل الإنسان موهوبًا فى كل مجال. ولكن الله سبحانه أعطى عبد جزءاً من المواهب، ويعطى العبد الآخر جزءاً آخر. وذلك حتى يتكامل المجتمع. فلو أن صاحب موهبة تجمعت لديه مواهب الآخرين لاستغنى كل إنسان عن مواهب الآخرين. و الله يريد منا مجتمعًا متساندًا متكافلاً متكاملاً،(١) فما لا أعرفه أنا أجده عند غيرى. فنحن نجد بارعًا فى الهندسة، لكن عندما يصاب هذا المهندس البارع بقليل من الألم فهو يطلب طبيبًا.

= والنُّكال والنُّكلة بالضم، والمُنَكّل كمقعد: مانكلت به غيرك كائناً ما كان.
والنِّكْل بالكسر: القيد الشديد، أو قيد من نار،وضرب من اللُّجُم، ولجام البريد، وحديدة اللّجام، والجمع فى النكل أنكال، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا﴾ [المزمل:١٢] وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ [البقرة: ٦٦] رنَكِل: قَبِلَ النّكال. وإنَّه لَنِكْلُ شَرٍّ: أى يُنَكَّل به أعداؤه. ورماه بنُكلة، أى بما يُنَكّلُه به.
بصائر ذوى التمييز: [١٢٦/٥].

(١)عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺقال: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبّك ﷺأصابعه. أخرجه البخارى [٤٨١] واللفظ له، ومسلم[٦٥/٢٥٨٥].
وعن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحُمّى». أخرجه البخارى [٦٠١١] واللفظ له، ومسلم [٦٦/٢٥٨٦].
وعن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كلُّه، وإن اشتكى رأسه اشتكى كلّه».
أخرجه مسلم [٦٧/٢٥٨٦].
عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺأنه قال: «ذمة المسلمين واحدة فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدل».
جزء من حديث أخرجه البخارى [١٨٧٠] واللفظ له، ومسلم [٤٦٧/١٣٧٠].

والطبيب يريد بناء عيادة فيطلب المهندس، وكلاهما يطلب مشورة المحامى فى كتابة العقود، وكل هؤلاء فى حاجة إلى من يقيم البناء. والذين يقيمون البناء من مهن متعددة أخرى.

إذن.. لا يوجد فرد واحد قادر على أن يقوم بكل هذه العمليات بمفرده، ولو أن هناك واحدًا يستطيع كل ذلك لما احتاج إلى أحد، ولو حدث ذلك لكان التفكك فى المجتمع.

ولذلك جاء قول الحق: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾ [الزخرف: ٣٢] إن الناس حين ينظرون لتفضيل الله لبعض الناس على بعض لا ينظرون إلى ذلك إلا فى مجال المال فقط. ونقول لمن يظن ذلك: إنك مخطئ:

فإن فضلك الله فى القوة والجسم فهذه رفعة.

وإن فضلك فى العلم فذلك رفعة.

وإن فضلك فى الحلم فهذه رفعة.

إن تفضيل الحق لك فى أى مجال هو رفعة لك، فأنت كعبد تكون مفضلاً ومفضلاً عليك.

إذن.. عندما نسمع قول الحق سبحانه: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ هنا نسأل: أى بعض مرفوع وأى بعض مرفوع عليه؟.

إن كل واحد مرفوع بموهبته، والآخرون مرفوعون عليه بمواهبهم. ومن الخطأ أن ننظر إلى التفضيل فى مجال المال فقط، ولكن يجب أن ننظر من كل الزوايا. لأننا إذا نظرنا من جميع الزوايا سنجد فرد مرفوعًا فى شىء ومرفوعًا عليه فى أشياء، والآخر مرفوع فى شىء ومرفوع عليه فى أشياء وهكذا.. فالكل مسخر لخدمة الكل.

وتتابع الآيات فى ترغيب المؤمنين وتحريضهم على القتال فى سبيل الله، يقول تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا (٧٥)﴾ [النساء]

نلاحظ أن الآية تبدأ بالاستفهام؛ ذلك أنه بعد إيضاح لون الجزاء على القتال فى سبيل الله تعالى كان لابد أن يصير هذا القتال متسقاً مع الفطرة الإنسانية، ونحن نقول فى حياتنا العادية: وما لك لا تفعل كذا؟ وكأننا نتساءل عن سبب التوقف عن فعل يوحى به الطبع والعقل. فإن لم يفعله الإنسان صار عدم الفعل مستغرباً وعجيباً.

فالقتال فى سبيل الله بعد أن أوضح الله تعالى جزاءه، فالذى لا يقدم عليه يصبح مثاراً للتعجب منه، ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ أى: لإعلاء كلمة الله. ومرة يكون القتال للوقوف بجانب المؤمن المستضعف الذى أوذى بسبب دينه. ويكون ذلك أيضاً لإعلاء كلمة الله تعالى.

يقول سبحانه: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين﴾ أى أن القتال يكون فى سبيل الله لاستنقاذ المستضعفين، وفى ذلك استثارة للهمم الإيمانية حتى يقاتل المؤمن فى سبيل رفع العذاب عن المستضعفين، وتخليصهم من العذاب؛ لأنهم ماداموا صابرين على الإيمان مع هذا العذاب، فهذا دليل على قوة الإيمان وتمكنه من نفوسهم، وهم أولى أن ندافع عنهم ونخلصهم من العذاب.

ويعطينا سبحانه ذلك فى أسلوب تعجب: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين﴾ فكأن منطق العقل والعاطفة والدين يحتم أن نقاتل.

وهذه الآية تعنى أن كل الناس يستوون عند رؤيتها فى أنها تكون مثاراً

للعجب لديهم، مثلها مثل قول الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]

يعنى: كيف تكفرون بالله الذى خلقكم من عدم ورزقكم من غير حول منكم ولا قوة؟! إن هذه مسألة عجيبة لا يتصورها عقل.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ يأتى بعدها ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ والمفروض فى الرجل القوة، وهذا يلفتنا إلى الظرف الذى جعل الرجل مستضعفاً، وبالطبع من يأتى بعده أشد ضعفاً.

إذن قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

هؤلاء المستضعفون من المؤمنين كانوا بمكة وليست لهم عصبية تمكنهم من الهجرة بعد أن هاجر رسول الله ﷺ، وظلوا على دينهم، هؤلاء المستضعفون رجالاً ونساءً وولداناً، أصابهم اضطهاد شرس لم يرحم حتى النساء، والولدان، فيحرض الحق سبحانه المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾.

وهؤلاء المستضعفون لم يجدوا ناصراً ينصرهم ومعيناً يعينهم على الهجرة من مكة واللحاق برسول الله ﷺ، ولم يكن أمامهم إلا أن يتجهوا إلى الله تعالى ويشكوا إليه - سبحانه - ما أصابهم من أهل هذه القرية الذين منعوهم من الهجرة. قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [النساء: ٧٥] وعبارة الدعاء تدل على أنهم لن يخرجوا؛ بل سيظل منهم أناس وثقوا فى أنه سوف يأتيهم ولى يلى أمرهم من المسلمين، فكأنها أوحت لهم بأنه سيوجد فتح لمكة. وقد كان.

ولقد جعل الله لهم من لدنه خيرَ ولى وخيرَ ناصر وهو عبده ورسوله

وخيرته من خلقه محمد ﷺ فتولاهم أحسن التولى ونصرهم أعظم النصر.

هذه الجماعة من المستضعفين كان منهم «سلمة بن هشام» لم يستطع الهجرة، ومنهم «الوليد بن الوليد» و«عياش بن أبى ربيعة» و«أبوجندل» و«سهيل بن عمرو». وعبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما الذى قال: لقد كنت أنا وأمى من هؤلاء المستضعفين من النساء والولدان [1].

فمثل هؤلاء كان يجب نصرتهم، ولذلك يحفز الله إخوانهم المؤمنين ويهيج الحمية الإيمانية فيهم ليقاتلوا فى سبيل خلاصهم؛ فلقد كان ظلم الكافرين لهم شرساً لا يفرق بين الرجال والنساء والولدان فى العذاب [2].

ثم بعد ذلك هيج الله تعالى المؤمنين على قتال أعدائه وأعدائهم،

(١) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: «كنت أنا وأمى من المستضعفين».
أخرجه البخارى [٤٥٧٨]
وعن ابن عباس أنه تلا: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ٩٨]
قال: كنت وأمى ممن عذر الله.
أخرجه البخارى [٤٥٨٨]

(٢) قال أبو حيان فى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥)﴾ [النساء] هذا الاستفهام فيه حث وتحريض على الجهاد فى سبيل الله، وعلى تخليص المستضعفين.
وأجاز الزمخشرى أن يكون: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ منصوباً على الاختصاص يعنى: واختص من سبيل الله خلاص المستضعفين؛ لأن سبيل الله عام فى كل خير، وخلاص المستضعفين من المسلمين من أيدى الكفار من أعظم الخير وأخصه. انتهى كلامه.
ولا حاجة إلى تكلف نصبه على الاختصاص، إذ هو خلاف الظاهر. ويعنى بالمستضعفين من كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال قريش وأذاهم، إذ كانوا لا يستطيعون خروجاً، ولا تطيب لهم على الأذى إقامة. ومن المستضعفين: عبد الله بن عباس وأمه، وقد دعا رسول الله ﷺ بالنجاة للمستضعفين من المؤمنين وسمى منهم: الوليد =

ووضح لهم أنهم يقاتلون فى طاعة الله تعالى ورضوانه، وأن هؤلاء الكفرة الذين يعذبونهم ويستضعفونهم إنما يقاتلون فى طاعة الشيطان، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]

الطاغوت هو: المسرف فى الطغيان، ويطلق على المفرد، وعلى المثنى، وعلى الجمع: فتقول: رجل طاغوت، رجلان طاغوت، رجال طاغوت،

* ابن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة. وقوله: ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ تبيين للمستضعفين.

والظاهر أن ﴿الْوِلْدَانِ﴾ المراد به الصبيان، وهو جمع وليد. قيل: وقد يكون جمع ولد، ونبه على الولدان تسجيلاً بإفراط ظلم من ظلمهم، وهم غير مكلفين ليتأذى بذلك آباؤهم، ولأنهم كانوا يشركون آباءهم فى الدعاء طلباً لرحمة الله تعالى، وتخليصهم من أذى الكفار. وهم أقرب إلى الإجابة حيث لم تكن لهم ذنوب كما فعل قوم يونس، وكما هى السنة فى خروج الصبيان فى الاستسقاء.

وقيل: المراد بقوله: ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ﴾ الاحرار، وبالولدان: العبيد لانه يطلق على العبد وليد، وعلى الأمة وليدة وغلب المذكر على المؤنث؛ إذ درج المؤنث فى جمع المذكر و ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ ليس لهم من القوة والمنعة من الظلم إلا بالدعاء والاستنصار بالله تعالى، والقرية هنا مكة بإجماع.

ووُصف أهلها بالظلم إما لإشراكهم، وإما لما حصل منهم من شدة الوطأة على المؤمنين وإذلالهم.

قال ابن عطية: والآية تتناول المؤمنين والأسرى، وحواضر الشرك إلى يوم القيامة. انتهى. ولما دعوا ربهم أجاب كثيراً منهم فى الخروج، فهاجر بعضهم إلى المدينة، وفر بعضهم إلى الحبشة، وبقى بعضهم إلى الفتح. والجمهور على أن الله تعالى استجاب دعاءهم، فجعل لهم من لدنه خير ولى وناصر وهو محمد ﷺ، فتولاهم أحسن التولى، ونصرهم أقوى النصر. ولما خرج من مكة ولى عليهم عتاب بن أسيد وعمره إحدى وعشرون سنة، فرأوا منه الولاية والنصر كما سألوا. قال ابن عباس: كان ينصف الضعيف من القوى، حتى كانوا أعز بها من الظلمة.

[البحر المحيط: ٣/ ٧١٠-٧١٢] بتصرف.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

وقيل: الطاغوت هو الشيطان؛ وهو الظالم الجبار الذى يطغيه تسليم الناس له خوفاً من بطشه وظلمه واتقاء لشره.

وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾. أولياء الشيطان هم: الذين يطيعون الشيطان فى معصية الله تعالى ويعرضون عن منهج الله تعالى، ويصدون الناس عن عبادة الله سبحانه ويحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ يدل على أنه ليس للشيطان سلطان يقهر الإنسان على فعل، وليس له حجة مقنعة.

ثم يقول الحق مرغباً ومحرضاً للمؤمنين على قتال عدوهم: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]

﴿أَلَا﴾ تسمى أداة تحضيض، مثل قولنا: ألا تذهب إلى فلان، وهى حث على الفعل؛ لأن التحضيض نوع من أنواع الطلب.

وقوله تعالى: ﴿نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أى نقضوا عهودهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ أى: هم الذين بدأوا بالعداوة ومحاولة إخراج الرسول ﷺ من مكة.

و﴿هَمُّوا﴾ أى: عقدوا النية على العمل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى أنهم هم الذين بدءوا بعداوة المسلمين والصد عن الإسلام من أول أن بدأ يدعو إليه رسول الله ﷺ.

والبدء هو: العمل الأول، وهو فعل لا يتكرر.

هم إذن الذين بدءوا الفعل الأول بالعداوة. والإسلام- كما نعلم- قد

واجه قوتين فى مرحلتين مختلفتين من مراحل الدعوة للإسلام:

القوة الأولى: قوة المشركين من قريش. والقوة الثانية: قوة اليهود.

أما قريش فقد هموا بإخراج الرسول ﷺ من مكة، وقد يقول قائل: لكن المؤمنين هم الذين بدءوا القتال فى بدر. وأقول: لم يذهب المسلمون إلى بدر للقتال، بل ذهبوا من أجل العير عوضاً عن مالهم الذى تركوه فى مكة، ولكن الكفار قالوا: لن نرجع حتى نستأصل محمداً ومن معه، وجاءوا بالنفير ليقاتلوا فى بدر(1).

إذن.. فعلى الرغم من سلامة العير بحيلة من أبى سفيان (2) إلا أن قريشاً هى التى أرادت القتال، فجمعوا الجند والفرسان؛ ليقاتلوا المسلمين.

وكذلك فعل اليهود، فقد نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ﷺ من المدينة. كما فعل به المشركون وأخرجوه من مكة؛ وكان بينه ﷺ وبين اليهود معاهدة، وهذه المعاهدة كانت من أوائل أعمال رسول الله ﷺ فى المدينة، فهل حافظ اليهود على هذه العهود؟.. لا، فقد تعهدوا من ضمن ما تعهدوا ألا يعينوا عدواً عليه، ولكنهم نكثوا أيمانهم ونقضوا العهد فأعانوا قريشاً على رسول الله ﷺ والمسلمين.

---

(1) وذلك: أن ضمضم بن عمرو كان يستصرخ قريشاً وهو يصرخ ببطن الوادى واقفاً على بعيره قد جدع بعيره -أى: قطع أنفه-، وحول رحله، وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة - وهى: الإبل تحمل الطيب- أموالكم مع أبى سفيان، قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث. سيرة النبى ﷺ لابن هشام [٢/٢٦٥].

(2) وذلك أن أبا سفيان غير طريقه إلى مكة ومعه قافلة قريش، فأخذ طريق الساحل وترك بدراً وانطلق حتى أسرع، قال ابن إسحاق: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم فقد نجاها الله فارجعوا، ولكنهم لم يستمعوا له. سيرة النبى ﷺ لابن هشام [٢/٢٧٦/٢٧٧].

وكذلك فعل بنو النضير، فقد أرادوا اغتياله ﷺ، وذلك بإلقاء صخرة عليه، بل وتمادى اليهود فى غزوة الأحزاب وأعانوا قريشاً ضد الرسول ﷺ، واتفقوا معهم على أن يدخلوهم من أرضهم بالمدينة ليفاجئوا الرسول ﷺ وجيش المسلمين غدراً من الخلف.

إذن.. فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لها أكثر من حيثية، بمعنى: أن نقضهم العهود وبدؤهم القتال يجعلكم تقاتلونهم؛ لتأمنوا شرهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ﴾ تحريض على القتال، أى: ما الذى يمنعكم من قتالهم إلا أن تكونوا خائفين منهم، ولذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

وهنا يلفت الحق سبحانه المؤمنين إلى أنهم إن كانوا بين خشيتين: خشية من البشر وإيذائهم، وخشية من الله، فالأحق بالخشية منه هو الله سبحانه وتعالى لما له من نعم لا تعد ولا تحصى على الإنسان، من خلق وإيجاد، وهداية. وكذلك رهبة منه سبحانه لعظم قوته وقهره وجبروته وسلطانه فإنه سبحانه لا يعز من عاداه ولا يذل من والاه.

إذن.. إذا كنت بين اختيارين فأنت تقدم على أخف الضررين، فكيف يخاف المؤمنون ما يمكن أن يصيبهم على أيدى الكفار؟ ولا يخشون ما يصيبهم من الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]

وهكذا أزال الحق سبحانه وتعالى الخوف من نفوس المؤمنين والآية فيها استفهام للتوبيخ؛ فالله سبحانه وتعالى يخبر المؤمنين أن يقولوا للكافرين:

إن قتلناكم فلنا النصر والغنيمة ,إن قتلتمونا فلنا الجنة والشهادة، أما أنتم فانتظروا عقوبة من الله لتهلككم، كما أصاب الأمم السابقة من قبلكم.

وقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ استفهام استنكارى معناه: ما كان يصح أبداً أن تخشوهم وتخافوهم؛ لأنهم لو كانوا أقوى منكم وتغلبوا عليكم فزتم بالشهادة، ولو كانوا أضعف منكم وتغلبتم عليهم فزتم بالنصر والغنيمة. وكلاهما أمر محبب لنفوس المؤمنين بالله تعالى.

إذن.. ففى أى معركة يدخلها الإيمان مع الكفر، نجد أن الجانب الفائز هو جانب المؤمنين، سواء استشهدوا أم انتصروا. والخاسرون على أى حال هم الكفار؛ لأنهم إما أن يُعذَّبوا بأيدى المؤمنين، فيخزيهم الله تعالى فى الدنيا، وإلا فإن مصيرهم إلى الله فيعذبهم عذاباً شديداً فى الآخرة.

وهكذا نزع الله سبحانه الخوف من نفوس المؤمنين فى قتالهم مع الكفار، حتى ولو كانوا أقل منهم عدة وعدداً، قال سبحانه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

وهكذا يجب ألا يحسب حساب للفارق فى القوة المادية، فهذه خشية لا محل لها فى قلوب المؤمنين فى جانب الإيمان؛ لأن الله مع الذين آمنوا.

ثم تواصل الآيات فى تحريض المؤمنين على القتال، يقول سبحانه: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤)﴾ [التوبة]

قوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ للتحريض والترغيب فى القتال، وأمر إيمانى للمؤمنين بأن يقاتلوا الكفار.

ويخبرهم الله سبحانه بالحكمة من الأمر بالقتال فيقول: ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ وقد يسئل سائل:

إذا كان الله يريد أن يعذبهم، فلماذا لا يأتى بآية من عنده مباشرة؟

نقول: لو انتصر المؤمنون بحدث كونى غير القتال لقال الكفار: حدث كونى هو الذى نصرهم. وشاء الله سبحانه وتعالى أن ينهزم هؤلاء الكفار بأيدى المؤمنين؛ لأن الكفار ماديون لا يؤمنون إلا بالأمر المادى، ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله لانتهت المسألة، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يرى الكفار بأس المؤمنين؛ لتمتلئ قلوبهم هيبة وخوفاً ورعباً من المؤمنين، فلا تحدثهم أنفسهم بأن يجترئوا على الدين، أو أن يستهينوا بالمؤمنين.

ولقائل أن يقول: إن الحق جل شأنه هنا يأمر فيقول: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ وفى آية أخرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]

فكيف يثبت الله العذاب وينفيه؟

ونقول: لقد نزلت الآيتان فى الكفار. الله سبحانه وتعالى قال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ ولو قال: قاتلوهم تعذبوهم بأيديكم، لاختلف المعنى، ولكن الآيتين تثبت إحداهما العذاب والأخرى تنفيه، ونقول كما سبق وقلنا: إن الجهة منفكة، فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أى: لا يُنزل الله تعالى عليهم عذاباً من السماء مادمت فيهم وقد أوضح هذا فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾[1] [الأنفال]

فقد طلب الكفار عذابًا ينزل عليهم من السماء إن كان هذا الدين هو

(١) عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال أبو جهل: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أخرجه البخارى [٤٦٤٨، ٤٦٤٩].

الحق، فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله السالف بأنه جل جلاله لا يعذبهم مادام رسول الله ﷺ فيهم؛ لأنه أرسله رحمة للعالمين.

وإن عدم أخذهم بالعذاب بعد بعث رسول الله بالرسالة، لا يعنى أن العذاب قد انتهى بالنسبة للكفار. فإن الله ائتمن المؤمنين على نصرة منهجه ودينه وهو معهم ناصرهم ومؤيدهم؛ وذلك لأن العذاب من الله يكون استئصالاً لكل الكافرين؛ صغاراً وكباراً، كأن يكون كما قلنا من قبلُ: يغرقهم الطوفان، أو تأتى الصيحة فتبيدهم عن آخرهم، أو تجيئهم ريح صرصر عاتية تدمرهم، أو تصيبهم الرجفة فتجمدهم، وفى كل هذه الحالات لا يبقى أحد من الكفار، ولكن القتال لا يقضى على الكفار نهائيًا، فالإسلام يمنعنا من قتال النساء والصبيان [١]، الذين لم يقاتلونا [٢].

إذن.. فالعذاب بعد رسالة رسول الله ﷺ ليس عذاب استئصال وإبادة

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان». متفق عليه، أخرجه البخارى [٣٠١٥] ومسلم [٢٥/١٧٤٤]

وقال النووى: قوله: «نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان» أجمع العلماء على العمل بهذا الحديث، وتحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا، فإن قاتلوا قال جماهير العلماء: يقتلون، وأما شيوخ الكفار فإن كان فيهم رأى قتلوا، وإلا ففيهم وفى الرهبان خلاف، قال مالك وأبو حنيفة: لا يقتلون، والأصح فى مذهب الشافعى: قتلهم. النووى على صحيح مسلم [٦/٢٩٢]

(٢) قال ابن العربى: قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]

فيها ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: فى بقاء حكمها أو نسخه: وفيه قولان:

أحدهما: أن هذا كان فى أول الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال، ثم نسخ؛ قاله ابن زيد.

الثانى: أنه باق، وذلك على وجهين:

أحدهما: أنهم خزاعة ومن كان له عهد. =

كما كان فى الأمم السابقة. ولكن الحق تبارك وتعالى أمر محمداً ﷺ وأمته من بعده أن تحمل لواء الدعوة إلى الله تعالى، وأن تبلغ رسالة النبى ﷺ لكل الناس، وأذن لها بحمل السيف للتخلية بين الناس وحريتهم فى الاختيار، وكذلك تأديب من تسول له نفسه الاعتداء على مجتمع المسلمين من الكفار والمشركين؛ وكذلك الذين ينقضون عهودهم.

وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]

ما الفرق بين العذاب والخزى؟ نقول: قد نجد واحداً له كبر وجلد، وقوة تحمل فإن أصابه العذاب فهو يتحمله ولا يظهر الفزع أو الخوف أو الضعف، ويمنعه كبرياؤه الذاتى من أن يتأوه، مثل ذلك له عذاب آخر هو الخزى، والخزى أقسى على النفس من العذاب؛ لأن معناه الفضيحة.

كأن يكون هناك إنسان له جبروت وبطش فى الحى الذى يسكن فيه،

= الثانى: ما رواه عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه أن أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه طلق امرأته قتيلة أم أسماء فى الجاهلية، فقدمت عليهم فى المدة التى كان رسول الله ﷺ هادن فيها كفار قريش، وأهدت إلى أسماء بنت أبى بكر قرطًا، فكرهت أن تقبل منها، حتى أتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأنزل الله الآية.

والذى صح فى رواية أسماء ما بيناه من رواية الصحيح فيه من قبل.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾، أى تعطوهم قسطًا من أموالكم على وجه الصلة، وليس يريد به من العدل؛ فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل.

المسألة الثالثة: استدل به بعض من تعقد عليه الخناصر على وجوب نفقة الابن المسلم على أبيه الكافر، وهذه وهلة عظيمة؛ فإن الإذن فى الشئ أو ترك النهى عنه لا يدل على وجوبه، وإنما يعطيك الإباحة خاصة. وقد بينا أن إسماعيل بن إسحاق القاضى دخل عليه ذمى فأكرمه، فوجد عليه الحاضرون، فتلا هذه الآية عليهم.

أحكام القرآن لابن العربى [٤/ ١٧٨٥]

مثل فتوة الحى، ثم يأتى شاب لهذا الفتوة ويدخل معه فى مشاجرة أمام الناس ويلقيه على الأرض، هذا الإلقاء لا يعذبه ولا يؤلمه، وإنما يخزيه ويفضحه أمام الناس، بحيث لا يستطيع أن يرفع رأسه بين الناس مرة أخرى، والخزى هنا أشد إيلامًا لنفسه من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ مرحلة من مراحل النصر والتمكين.

أول هذه المراحل قول الله تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾.

والثانية: ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾.

والثالثة: ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

والرابعة: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

أى أن النصر سيشفى صدور المؤمنين الذين استذلهم الكفار واعتدوا عليهم وأخذوا أموالهم وأخرجوهم من ديارهم، فكان هذا النصر يذهب غيظ قلوبهم. أى: يخرج الغيظ والانفعال المحبوس فى الصدور.

إذن.. قتال المؤمنين للكفار لا يحقق فقط العذاب والخزى للكفار، والنصر للمؤمنين، ولكنه يشف صدور المؤمنين التى ملأها الألم والغيظ من سابق تسلط الكفار عليهم وإخراجهم من أموالهم وديارهم.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٥]

وقوله سبحانه: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾، أنه سبحانه وتعالى رغم تعذيبه لهم، وتشديد النكير عليهم، يفتح لهم باباً للتوبة، وهى مسألة لا يقدر عليها إلا رب رحمن رحيم، وفى ذلك إشارة للمؤمنين إذا جاءهم هؤلاء المحاربين، أو نفر منهم تائب إلى الله تعالى نادماً على ما فعل طالبًا الدخول فى الإسلام فلا يتعالوا، ويقولوا: إنما جاء بعد الهزيمة والانكسار؛

فإن الذى أتى به هو الله تعالى لما فتح له باب التوبة ليتوب.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: أنه سبحانه عليم بخلقه، حكيم فى تقديره فالقتال أراده الله عز وجل ليدك به جبروتهم وطغيانهم، والتوبة قدرها لهم لمنع تمادى الكفار فى الشر؛ لأن مشروعية التوبة هى رحمة من الحق سبحانه وتعالى بخلقه، ولو لم يشرع الله التوبة لقال كل من يرتكب المعصية: ما دامت لا توجد توبة، وما دام مصيرى إلى النار، فلآخذ من الدنيا ما أستطيع، وبذلك يتمادى فى الظلم ويزيد فى الفساد والإفساد؛ لأنه يرى أن مصيره واحد مادامت لا توجد توبة.

إذن.. تشريع التوبة يجعل الظالم لا يتمادى فى ظلمه، وبهذا يحمى الله المجتمع من شروره، ويجعل فى نفسه الأمل فى قبول الله لتوبته والطمع فى أن يغفر له؛ فيتجه إلى العمل الصالح لعله يكفر عما ارتكبه من الذنوب والمعاصى؛ وفى هذا حماية للناس ومنع لانتشار الظلم والفساد.

إذن.. فالقتال له حكمة، والتعذيب له حكمة، والخزى له حكمة، والتوبة لها حكمة، وسبحانه وتعالى حين يعاقب، إنما يعاقب عن حكمة، وحين يقبل التوبة فهو يقبلها عن حكمة. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

تشوق المؤمنين للإذن بالقتال

قال رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء: ٧٧]

إن قول الحق سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ يعني: أن بوادر مد الأيدي كانت موجودة. لقد جاء الأمر هنا بكف اليد عن القتال، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

إذن.. قوله سبحانه ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ كان لأن بوادر مد الأيدي إلى القتال قد ظهرت منهم إما قولاً بأن قالوا: دعنا يا رسول الله نقاتل. وإما فعلاً بأن يتهيئوا لعملية القتال.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ يدلنا على أن هناك زمنين بصدد هذه الآية: زمنًا قيل لهم فيه: ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾. وزمنًا كُتب عليهم فيه القتال.

ونفهم من هذا أنهم كانوا قد استعدوا تأهباً ببوادر مد الأيدي للقتال قبل أن يكتبه الله عليهم. والذين قالوا: دعنا نقاتل هم: عبد الرحمن بن عوف وأصحاب له. هؤلاء قالوا لرسول الله ﷺ: إننا مضطهدون في مكة ويجب أن نقاتل هؤلاء الناس وليحدث لنا ما يحدث. فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم».

فلو كان هناك أمر إلهي بالقتال لقال لهم: هيا إلى القتال. وهذا

دليل على أن الرسول ﷺ كان ينتظر أمراً من الله تعالى[1].

وبعد ذلك كتب الله عليهم القتال، فلما كُتب عليهم القتال جزع

(١) قال ابن كثير: كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات النصب، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً؛ لأسباب كثيرة منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها: كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض؛ فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفًا شديداً: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي: لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى فإن فيه سفك الدماء، ويتم الأولاد، وتأيم النساء، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ الآية [محمد: ٢٠]. قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن عبد العزيز عن أبي زرعة وعلي بن رمحة قالا: حدثنا علي بن الحسن عن الحسين بن واقد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا يا نبي الله: كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»، فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا، فأنزل الله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ الآية. ورواه النسائي والحاكم[1] وقال أسباط عن السدي: لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال فلما فرض عليهم القتال، ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ وهو الموت، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ وقال مجاهد: إن هذه الآية نزلت في اليهود. رواه ابن جرير.

وقوله: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ أي آخرة المُتقي خير من دنياه =

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره [٥٦٣٠]، والنسائي في الكبرى [٤٢٩٣]، والحاكم في المستدرك [٢/٣٠٧] وصححه، ووافقه الذهبي.

٥

بعضهم لما فيه من يتم للأولاد وترمل للنساء وسفك للدماء، وقالوا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧]

إذن فعندما تصل المسألة إلى الأمر التطبيقى، قد يدب فى النفوس الخَوَر والخوف، والحق سبحانه لم يمنع الأغيار أن تأتى على المؤمن، فمادام الإنسان ليس رسولاً ولا معصوماً فلا تقل: فلان عمل كذا أو فلان عمل كذا؛ لأن فلاناً هذا لم يدع أنه معصوم، وكل بنى آدم خطَّاء، وتأتيه خواطر نفسه، وتأتيه هواجس فى رأسه، ويقف أحياناً موقف الضعف، ولذلك عندما يقول لك واحد: فلانة عملت كذا وفلان عمل كذا، قل له: وهل قال أحد: إن هؤلاء معصومون؟ وما داموا غير معصومين فقد يتأتى منهم هذا.

والآية تعنى: أنهم ليسوا سواء، ففريق منهم أصابه الضعف، وفريق آخر بقى على شدته وصلابته فى إيمانه، لم تلن له قناة ولم ينل منه وهن ولا ضعف.

ثم انظر أدب الأداء. لم يقل: فلان أو فلان. بل قال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذا يستدعى أن يبحث كل إنسان فى نفسه، وهذه عملية أراد بها

= ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أى: من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء، وهذه تسلية لهم عن الدنيا، وترغيب لهم فى الآخرة، وتحريض لهم على الجهاد.

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقى حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا حماد بن زيد عن هشام قال: قرأ الحسن ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ قال: رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك، وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى فى منامه بعض مايحب ثم انتبه(١).

تفسير ابن كثير: [١/٤٩٨]

---

(١) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره [٥٦٣٥].

الحق سبحانه الستر للعبد، ومادام الستر قد جاء من الرب فلنعلم أن ربنا أغير على العبد من نفسه، ولذلك نقول دائماً: إن ستر ربنا غيب الناس عن الناس هو تكريم للناس جميعاً.

فهب أن واحداً أحب أن يطلعه الله على غيب الناس، أيحب هذا العبد أن يطلع الله الناس على غيبه؟! لا، إذن.. فأنت حين ترى أن الله ستر غيبك عن الناس، وستر غيب الناس عنك فهذه نعمة من الله ورحمة؛ لأن الإنسان ابن أغيار. والله ستير يحب الستر.

إن الإنسان قد يعصى الله ولكن الله تعالى يحب من يستر على هذا الإنسان(١)، ويأمرنا: إياكم أن تتبعوا عورات الناس، فماداموا قد امتلكوا بعضاً من الحياء جعلهم يستترون، فليكن لهم الاستتار؛ حتى لا يفقدوا الأمل فى رحمة الله، وحتى يحمى الله المجتمع من آثامهم لو أعلنوا معصيتهم وجاهروا بها، ونشروا فى الناس الفاحشة. ولكن من جهل بعض الناس أنهم يلحون على أن يعلموا الغيب، ويحاولوا قراءة الطالع بزعمهم، لا يعلمون من فرط جهلهم أن ستر الغيب نعمة من الله عليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ يدل على أنهم قد نسوا هنا أنهم طلبوا القتال من قبل أن يكتبه الله عليهم، كى نعرف أن النفس البشرية، حين

---

(١) عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة، فرَّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».
أخرجه البخارى [٢٤٤٢] واللفظ له، ومسلم [٢٥٨٠/٥٨].

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال: «لا يستر عبدٌ عبداً فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة». أخرجه مسلم [٢٥٩٠/٧٢].

تكون بمنأى عن الشىء، تتمناه، وعندما يأتيها تعارضه.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ فهل جاء هذا الكلام منهم على سبيل الاستفهام؟ يوضح الله لنا ذلك: إنهم يقولون: يارب لماذا ابتليتنا هذا الابتلاء، وقد لا نقدر عليه فى ساعة لقاء العدو؟ لذلك طلبوا أن يؤجل الله ذلك، وأن يجعلهم يموتون حتف أنوفهم لا بيد العدو، إن قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ يُوضح أن كل واحد منهم يعى تماماً أنه سيموت حتماً، لكن لا أحد منهم يريد أن تنتهى حياته بالقتل.

ولماذا يطلبون التأخير؟ أحبًا فى الدنيا ومتاعها؟ ويأتى جواب الحق: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ فلا يصح أن تحرصوا عليه -أيها المؤمنون- حرصاً يمنعكم أن تذهبوا لتقاتلوا، فكلكم ستموتون، وكل منا سيجازيه ربنا على عمله، أما الذى يُقتل فى سبيل الله فسيجازيه على عمله أحسن الجزاء، ويعطيه حياة أخرى مقابل الموت [1]، ولذلك يأمر الحق رسوله ﷺ بأن يقول: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ إن قارنته بما يصل إليه المرء من ثواب عظيم إذا قُتل مجاهداً فى سبيل الله.

وروى أن بعض العارفين قال: إذا كان لا مفر من الموت، فلماذا لا نذهب لنقاتل فى سبيل الله، فإن قتلنا فليكن موتنا بثمن زائد عن عملنا، إذن فهذا ربُوٌّ وتنمية للفائدة، ولذلك قال الحكيم:

ولو أن الحياة تبقى لحى لعددنا أضلنا الشجعانا

أى أن الحياة لو كانت تبقى لحى لكان أضل ناس فينا هم الشجعان

(1) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: 169]

الذين يقتلون أنفسهم فى الحرب، لكن المسألة ليست كذلك، والشاعر العربى يقول:

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى؟

والمتنبى يقول:

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهامًا بها صبا
فحب الجبان النفس أورده البقا وحب الشجاع النفس أورده الحربا[1]

إذن فالاثنان يحبان نفسيهما، لكن هناك فرق بين الحب الأحمق والحب الأعمق.

وعندما ننظر إلى إجمال السياق فى الآية نجد أن الحق سبحانه يربى الجماعة المؤمنة تربية إيمانية، لا تخضع لعصبية الجاهلية ولا لحمية النفس، ففريق من المؤمنين وهم فى مكة وقد ذاقوا الاضطهاد أحبوا أن يقاتلوا، لكن الرسول ﷺ يبلغهم أنه لم يؤمر بالقتال بعد، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يصبروا على ماهم فيه حتى يأذن الله بالقتال، وتلك تربية أولى للجماعة المؤمنة؛ لأن الإسلام جاء وفى نفوس العرب حمية وعصبية وعزة وأنفة، فكلما أُهيج واحد منهم فى شىء فزع إلى سيفه وإلى قبيلته وشنها حرباً، فيريد الله سبحانه أن يستل من الجماعة المؤمنة الغضب للنفس والغضب للعصبية والغضب للحمية، وأراد أن يجعل الغضب كله فى الله، ولله.

وحينما جاء الإذن بالقتال، جاء لا ليفرض على الناس عقيدة، ولا ليكرههم على إسلام، وإنما جاء ليحمى النفس الإنسانية من أن يتسلط عليها الأقوى الذى يريد أن يجعل الأضعف تابعاً له، فأراد الله سبحانه أن

(1) انظر ديوان المتنبى [325- 328].

يحمى حرية الاختيار فى الإنسان؛ فكان القتال حفاظاً على كرامة الإنسان أن يكون تابعاً فى العقيدة لغيره، وبعد ذلك يعرض قضية الإسلام عرضاً عقليًا؛ فمن استجاب له وآمن فلنفسه، ومن لم يستجب فعليها.

وهذا يدل على أن الإسلام دينٌ منَعَ التسلط على عقائد الناس، وضمن لهم الحرية فى أن يختاروا ما يرغبون من العقائد بعد أن بيَّن لهم الرشد من الغى.

وحينما شرع الله القتال فقد شرعه دون أن يكون هناك أدنى تدخل لغضب النفس ولا لحميتها ولا لعزتها، ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يصور العواطف الإنسانية التى تواجه الإسلام ويواجهها الإسلام تصويراً طبيعياً. فبين لنا أن الطبع الإنسانى يعالج بالتربية، ولهذا نجد أن بعضاً من الذين طلبوا القتال خافوا، وذلك قول الله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾

إذن.. فهناك فرق بين أن نطلب أن نقاتل، وأن نخوض القتال بالفعل؛ لذلك تجد أن بعضهم خاف الذهاب إلى القتال خشية أن يُقتلوا، والقتل كما نعلم: هدم بنية، ولكن الموت حتف الأنف هو الذى يقبض الله به الروح الإنسانية، دون هدم بنية أو نقض لها.

وأيضًا: فالقتال يكون مظنة القتل، والخوف من القتال مظنة الإطالة فى الأجل، فالقتل موت مقرب أمام المقاتل، لكن الموت حتف الأنف علمه عند الله؛ لذلك قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾

فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن الأمة الإسلامية ستواجه عنفاً شرساً فى سبيل الدعوة، لذلك أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يحفزهم على القتال ويحرضهم عليه ويزهدهم فى الدنيا، : ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ فالحرص

على أن يستبقى المؤمن نفسه من القتل ليموت بعد أجل قريب يعنى أنه يريد أن يأخذ من الحياة فرصة أكبر، وهذا تصور خاطئ؛ فالأجل محدد ومقدور ولا يقربه قتالاً أو يؤخره؛ وشئ آخر وهو الأهم من الدنيا ومتاعها القليل وهو: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

إنه شراء وبيع، الموت فى سبيل الله مقابل الجنة ونعيمها الدائم. وتلك هى التجارة الرابحة دائماً التى لا تبور. قال سبحانه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١)﴾ [الصف].

إذن.. فالله تعالى يدلنا على ماينجينا من عذاب النار، والتاجر الذكى هو الذى يتاجر فى الصفقة الرابحة والمضمونة، والتى تكون جدواها والفائدة منها أكثر من سواها. فلو أننا تأملنا الدنيا، لعلمنا أنها مهما طالت لا تؤثر ولا تزيد فى عمر الفرد؛ لأن الدنيا تطول فى الزمن لكنها بالنسبة للأفراد تكون بمقدار عمر كل واحد فيها، لا بمقدار أعمار الآخرين، فإن دامت للآخرين طويلاً، فما دخل الواحد منا فى ذلك؟.

إذن.. فالدنيا بالنسبة للفرد هى زمن محدد، والله يُبشِّر المؤمن الذى يقتل فى سبيله أنه سيأخذ أجراً عظيماً فى حياة أبدية لا نهاية لها.

وأيضاً فالبقاء فى الدنيا بدون قتل إلى أن يموت الواحد حتف أنفه، هو بقاء غير متيقن. ونحن نرى من يموت طفلاً أو شاباً أو كهلاً. أما الآخرة فهى غير محدودة بزمن وهى متيقنة.

إن النعيم فى الدنيا يكون على مقدار تصور الفرد للنعيم وإمكانات الفرد فى تحقيق النعيم. وأما النعيم فى الآخرة فيكون على المقدار الذى

أعده الله لعباده بطلاقة قدرته وسعة رحمته. وإن قارنا صفقة الدنيا بالآخرة نجد أن متاع الدنيا على فرض أنه متاع هو قليل لا يساوى شيئاً بالنسبة للآخرة.

إذن.. فالحق سبحانه يرغبنا فى الصفقة الإيمانية، ويعلم سبحانه أن كل إنسان يحب الخير لنفسه، فلا يظنن أحد أن الدين جاء ليسلبه حياته، أو ليستذله فى تلك الحياة!! لا.. إنما جاء الدين ليعلى من شأن المؤمن فى الدنيا والآخرة، فالمجاهد فى سبيل الله يجمع الله تعالى له الحسنيين بمعنى: إن انتصر فى الحرب، فاز بالغنيمة والظفر على عدوه، بخلاف ما له عند الله تعالى فى الآخرة، وإن قاتل فقتل فى سبيل الله، فهو شهيد فى مقعد صدق عند مليك مقتدر(1) مع النبيين والصديقيين، فالله تبارك وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً وهو سبحانه الذى نهانا أن نبخس الناس أشياءهم، كما نهانا عن الظلم وأمرنا بالعدل حتى مع قوم بيننا وبينهم عداوة قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ونحن نعرف أن الفتيل هو ما فُتل من الخلايا الميتة على سطح جلد الإنسان مع ما علق بها من الأوساخ والأتربة وما شابه ذلك؛ نلاحظ ذلك حينما يدعك الإنسان كفيه معاً، فيخرج ناتجًا كالفتلة، والفتيل هو: الفتلة فى بطن النواة، أى: أن الله تعالى لايظلم حتى لو كان بمقدار ذلك الشئ القليل (2).

(1) مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝﴾ [القمر]

(2) قال الفيروزآبادى: فتل الحبل وفتله: لواه فهو فتيل ومفتول، وقد انفتل وتفتل وفتل وجهه عنهم: صرفه. وقوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ مثل فى الحقارة والقلة، وهو مايكون فى شق النواة لكونه على هيئة الفتيل، وقيل: هو ماتفتله بين أصابعك من خيط. أو وسخ بصائر ذوى التمييز [٤/١٦٦].

إذن.. قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يعنى فيما قضى به سبحانه متفضلاً به على عباده بالفضل مع العدل. والحق سبحانه يريد أن يطمئننا على أن قضايا الإيمان يجب أن يحافظ عليها، فإياك أن تظن أن عملك هو الذى سيعطيك الجزاء، لا.. إن فضل الله هو الذى سيعطيك الجزاء. واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(1) [يونس: ٥٨].

ويوم أحد قال المنافقون فى شهداء المسلمين: ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾(2) [آل عمران: ١٥٦]. ففهموا أن العندية عندهم حصن لهم من الموت، وأن الذهاب إلى القتال هو الذى يجلب الموت.

وهذا زعم باطل وقول غير صحيح؛ فإننا نعرف أن كل حدث من الأحداث له زمان وله مكان ونسميه الظرف.

إن الذين درسوا «الظرف» فى النحو يقولون: «ظرف زمان، أو ظرف مكان»، فكل حدث من الأحداث لابد أن يوجد له زمان ومكان. والزمان فى الموت مبهم والمكان فى الموت أيضاً مبهم، نظرف حدوث الموت زماناً أو مكاناً مبهم، ولم يبهم الله شيئاً، فلا تظنوا أنه يريد أن يخفيه ويُعمضه علينا، إن الحق يبهم الأمر ليوضحه أوضح بيان، فالإبهام من

(1) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يُدخل أحداً عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة، فسدِّدوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت؛ إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب».

أخرجه البخارى [٥٦٧٣] واللفظ له، ومسلم [٢٨١٦/٧١].

(2) عن الحسن فى قوله: ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ قال: هذا قول الكفار، إذا مات الرجل فيقولون: لو كان عندنا ما مات. ولا تقولوا كما قال الكفار.

رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره [٤٣٩٨].

أوضح بيان، كيف؟ إنه سبحانه حين يجهلنا بزمن الموت ويخفيه علينا فمعنى ذلك أن الإنسان قد يستقبل الموت فى أى لحظة، وهل هناك بيان أوضح من هذا؟. فحين جهّلنا بزمن الموت فهو لم يمنع عنا معرفة زمنه، ولكنه أشاع زمنه فى كل زمن، فلا أحد بقادر على الاحتياط من الموت.

وكذلك الحال في مكان الموت، يقول الحق جل شأنه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨] كلمة يهدى : أى يدل ويبين؛ لأن الهداية هى الدلالة والبيان فالله سبحانه يسألهم ، والاستفهام قد يكون لتعلم ما تجهل وقد يكون إنكاراً للشىء، وقد يكون بهدف إقرار المستفهم منه بشىء. فالكفار يرون ما حدث للأمم التى كذبت رسلها من قبل ومع ذلك لم يتعظوا بما وقع لأسلافهم، من هذه الأمم التى حل بها عذاب الله[1] .

يقول سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر]

وهناك آيات كثيرة تتحدث عن نصر الله لرسله على الأمم الظالمة والأقوام الذين تمردوا على منهج الله. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات].

---

(1) عن قتادة في قوله سبحانه : ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ قال: افلم نبين لهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ نحو عاد وثمود، ومَنْ أهلك من الأمم. الدر المنثور: [٥/ ٦١٠]

وقال أيضاً : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] فالله سبحانه لا يتخلى عن رسله؛ بل ينصرهم ويؤيدهم حتى تكون الغلبة لمنهج الله فى الأرض . وبعد ذلك يكون مصير المكذبين هو البوار والخسران. فالله تعالى يذكر المشركين بمن سبقوهم فى معاندة الرسل والوقوف فى وجه دعوتهم والمصير الذى حاق بهم فى النهاية . وكلمة : ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ معناها شىء كثير فوق الحصر . مثل قولك لصديق غاب عنك: كم سألت عنك؟ أى أنك سألت عنه مرات كثيرة. ومثل قولك لإنسان ينكر إحسانك إليه: كم أحسنت إليك؟ لأنك أحسنت إليه مرات كثيرة وهو يعلم ذلك جيداً ولا يستطيع الإنكار، وأنت تريده أن يقر بهذا أمامك. ولا تستفهم عنه إلا إذا كان الجواب فى صالحك.

إذن.. الاستفهام عن الشىء ليس معناه أن تعرف ما تجهل، ولكن أن تقرر المقابل ومن لسانه هو بما حدث .

ومعنى : ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾. أى ألم يدلهم ويبين لهم وجود هذه القرى والأماكن الكثيرة التى كذبت رسلها، وما حدث لها من هلاك وعذاب ، كان يجب أن ينتبهوا إلى ذلك؛ حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه بسبب عدم إيمانهم بالرسول ﷺ. وهم الذين يمشون فى مساكن هؤلاء الأقوام الذين لا زالت آثارهم باقية ، ألم يتعظوا من أن يحل بهم نفس هذا المصير جزاء كفرهم وعنادهم . وهذه الأشياء فيها آيات عجيبة لمن يفكر فيها من أصحاب العقول والألباب. لأن قوله ﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ بمعنى: أصحاب العقول والألباب.

وكلمة: ﴿النُّهَىٰ﴾ تحل لنا إشكالات متعددة فى الكون؛ لأن الناس يفهمون خطأ أن الله خلق لنا العقل لنعربد به فى الفكر ونستخدمه كما نشاء، وهذا خطأ فادح لأن العقول اسمها نُهى «جمع نهية» أى أن العقل جاء لكى ينهى عن الفعل القبيح، لا ليجعلك تعربد فى الكون

بلا ضوابط (١). كلمة: عقل، مأخوذة من عقال البعير، وأنت تقيد البعير بالحبل حتى لا ينطلق على غير هدى . فربنا سبحانه أعطاك العقل حتى يضبط سلوكك فلا تمشى فى الكون على هواك (٢).

فالرجل الذى يسرق مثلاً لو كان عنده عقل كان لابد أن يقول له عقله: أنت إن سرقت وأنت واحد، فأبح للناس جميعاً أن يسرقوك.

وحين يقول لك الشرع: غض بصرك عن محارم غيرك. العقل يقول: ما دام الله طلب منى أن أغض بصرى عن محارم الناس فلابد أن الله طلب من غيرى أن يغض بصره عن محارمى.

فالعقل لا يأخذ هذا على أنه تضييق عليه وعلى غيره وإنما لتستقيم الأمور. فساعة يمنعك من شىء يمنع غيرك منه أيضاً، وهذا لصالحك ولصالحهم. أما من يريد أن يعربد فى أعراض الناس فليترك الناس يعربدوا فى عرضه !!.

ولذلك يقول أبو أمامة رضى الله تعالى عنه: أن فتى شابًا جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لى بالزنا! ، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه، فقال: «ادنه» فدنا منه قريباً. قال: فجلس ، قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله، جعلنى الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلنى الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفتحبه لأختك؟» قال:

(١) النُّهى: العقل، والنُّهية: العقل، بالضم، سميت بذلك؛ لأنها تنهى عن القبيح . لسان العرب: [١٥/٣٤٦].

(٢) قال ابن الأنبارى: رجل عاقل، وهو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه. وقيل: العاقل الذى يحبس نفسه ويردها عن هواها.
لسان العرب: [١١/٤٥٨].

لا والله جعلنى الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله، جعلنى الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه ، وحصن فرجه». قال: فلم يكن - بعد ذلك - الفتى يلتفت إلى شىء» (١).

إذن.. العقل جاء ليعقلك عن العربدة، وسمى بـ «النهى» لأنه ينهى عن الفعل غير المشروع. فالكفار كان عليهم أن ينظروا إلى مصير الأمم السابقة التى كذبت رسلها وما حدث لها، فيرتدعوا ويؤمنوا بمنهج الله ؛ حتى لا تكون نهايتهم مثلهم. ولكن لأن الله أخَّر عنهم العذاب كانوا يقولون : نحن لا زلنا نحيا كما نحب ولم يحدث لنا أى شىء، فلا عذاب ولا صعق ولا مسخ ولا ريح صرصر. ولا أى شىء، فربنا سبحانه يبين لهم أن السبب فى منع نزول البلاء عليهم كما حدث مع الأمم السابقة هو كلمة سبقت من الله لرسوله ﷺ حين قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

لذلك قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩]. فهذه هى الكلمة التى سبقت من الله لرسوله، والرسول عليه الصلاة والسلام يوضحها بقوله: « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله » (٢) فهناك سببان منعا نزول العقاب والهلاك فى

(١) رواه أحمد فى المسند [٥ / ٢٥٦ ، ٢٥٧] والطبرانى فى الكبير [٨ / ٧٦٧٩]، والبيهقى فى السنن الكبرى [١٨٥٠٧]، وذكره الهيثمى فى المجمع [١/ ١٣٤] وقال: رواه أحمد والطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح.

(٢) عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم=

الدنيا على المعاندين للرسول ﷺ هما: الكلمة التى سبقت من الله تعالى بأنه لن يعذبهم والرسول ﷺ بينهم؛ والأجل المسمى لكل واحد منهم (1).

فلولا الكلمة التى سبقت من الله؛ لكان من اللازم أن يصنع بهم مثلما فعل بالأمم السابقة . ولأنهم سيكفرون ولن يترل عليهم عقاب فى الدنيا. فنتيجة ذلك أنهم سيتمادون فى الكفر والطغيان والعناد للرسول ﷺ. ولذلك الحق سبحانه وتعالى يعطى المناعة للرسول ﷺ وهى الصبر .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠] فالصبر مطلوب فى الدعوة ولك بكل صبر أجر،

▪ كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك. وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة. إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل، فنادانى ، فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال: فنادانى ملك الجبال وسلم علىّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئًا».

أخرجه البخارى [٣٢٣١] ، ومسلم [١١١/١٧٩٥] واللفظ له.

(1) عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه: قال أبو جهل : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢] ، فنزلت : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .
أخرجه البخارى [٤٦٤٩].

وقال ابن كثير: أى لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذى ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة؛ لجاءهم العذاب بغتة. تفسير ابن كثير: [٣ / ١٦٥].

والصبر مرة يأتى سهلاً، ومرة يكون على شىء صعب وشديد على النفس. والأقوال التى أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يصبر عليها مثل قولهم عليه: إنه ساحر، وشاعر، ومجنون، كما قالوا: أساطير الأولين اكتتبها. فوجب عليه ﷺ أن يصبر على كل نولة يقولونها؛ لأن كل كلمة منهم تحمل معها دليل كذبها .

فقالوا: ساحر، والمنطق يقتضى أن الساحر يسحر كل من حوله، فلماذا لم يسحرهم فيؤمنوا به وتنتهى المشكلة؟ فهذا كذب لأن بقاءهم على عنادهم وكفرهم به دليل على أنه لا يسحر أحداً.

وقالوا: شاعر، وهذه مقولة تحمل فى طيتها دليل كذبها؛ لأن العرب أمة بلاغة وصنعتهم الكلام ويعرفون الكلام المنظوم من الكلام المنثور أو المسجوع ، والقرآن ليس بشعر وليس له بحر أو قافية فهو معجزة خالدة تحداهم الله تعالى به (1).

والعرب أكثر الناس معرفة باللغة وأساليبها، وكانوا يقيمون لها الأسواق والمهرجانات فى عكاظ، ويعلمون تمامًا أن القرآن لا هو بالشعر ولا هو من قول البشر، وشهد بذلك صنديد من صناديد الكفر هو الوليد بن المغيرة .

(1) قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣].
وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨].
وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣].
وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

عندما سمع القرآن فعاد إلى الكفار ليقول لهم: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يُعلى عليه وما هو من قول البشر(1).

(1) روى ابن إسحاق ومقاتل فى تفسيره وابن أبى حاتم وأبو نعيم والبيهقى والواحدى من طرق عن ابن عباس ، قال: لما أنزل على النبى ﷺ سورة غافر قرأها النبى ﷺ فى المسجد، فسمعها الوليد ثم انطلق إلى مجلس بنى مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد كلامًا آنفًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمورق، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه يعلو ولا يعلى . ثم انصرف فقالت قريش : لقد صبأ الوليد ، والله لئن صبأ الوليد لتصبأن قريش كلها. وكان يقال للوليد: ريحانة قريش. فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه.

فانطلق حتى دخل عليه وهو حزين فقال : يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه؛ فإنك، أتيت محمدًا تتعرض لما قِبَله. فقال : لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له. قال : وماذا أقول فيه؟ و الله إنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن. فقال له أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال : دعنى أفكر فيه.

فلما اجتمع بقومه قال، وقد حضر الموسم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس أقم لنا رأياً نقوله فيه. قال : بل أنتم فقولوا أسمع.

قالوا: نقول كاهن. قال : و الله ما هو بكاهن، فقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول مجنون . قال: و الله ما هو بمجنون فقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر. قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله: رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بشاعر . قالوا : فنقول ساحر . قال : و الله ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: و الله إن لقوله حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أصله لمغدق، وإن فرعه لمثمر وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر، فما يقول سحر يفرق بين المرء وابنه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته =

ثم قالوا: مجنون، والجنون ينافيه الخُلق الانسجامى مع كل تصرف، فأنت لا تقول عن المجنون: إنه كذاب أو منافق أو لص؛ لأن عقله غائب فلا تصفه بأى صفة . فكيف يصلح أن يقال هذا عن محمد ﷺ؟! وهم الذين سموه الصادق الأمين وكانوا يحفظون أماناتهم عنده رغم اختلافهم مع دعوته .

ولذلك قال رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم] فالخُلق هو الملكة المستقرة للخير، والرسول ﷺ كان صاحب خلق عظيم كما وصفه ربه سبحانه.

كما اتهموه بالافتراء مع أنهم لم يجربوا عليه أنه كذب مرة واحدة أو قال شعرًا ذات يوم، فإذا كان الرسول جاء بهذا الكلام العظيم مع أنه ليس من أصحاب صنعة الكلام، بل أنتم أصحاب صنعة الكلام والبلاغة، فلماذا لم تأتوا بمثل هذا الكلام الذى جاء به محمد ﷺ وتعارضوه به؟ قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]

= فتفرقوا عنه بذلك، وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروه لهم.

وأنزل الله تعالى فى الوليد وفى ذلك قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨)﴾ [المدثر].

سبل الهدى والرشاد: [٢ / ٤٧٢].

إذن.. يا محمد، اصبر على ما يقولونه عنك وسبح بحمد ربك[1]، والتسبيح هو التنزيه وهو صفة لله قبل أن يخلق من ينزهه، فالله تعالى منزه من قبل أن يوجد من ينزهه سبحانه.

(1) قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل:10]. أى: من الأذى والسب والاستهزاء، ولا تجزع من قولهم، ولا تمتنع من دعائهم.

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ أى: لا تتعرض لهم، ولا تشتغل بمكافأتهم، فإن فى ذلك ترك الدعاء إلى الله. وكان هذا قبل الأمر بالقتال، ثم أمر بعد بقتالهم وقتلهم، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك؛ قاله قتادة وغيره.

وقال أبو الدرداء: إنا لنكشر فى وجوه أقوام ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقليهم أو لتلعنهم. تفسير القرطبي [4589].

الجهاد.. فتنة واختبار

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:16]

ساعة تسمع ﴿أَمْ﴾ فاعلم أنها حرف إضراب أى: ما كان الله سبحانه ليترككم حتى يعلم- علم الواقع- من منكم يؤمن إيمانًا يؤهله للجهاد فى سبيل الله؛ فإن ظننتم أن الله تارككم بدون ابتلاء وبدون أن يختبركم ويمحصكم، فيجب أن تعرضوا عن ذلك وتفهموا ما يقابله [1].

إذن فالابتلاء أمر ضرورى لمن شرفه الله تعالى وهداه لهذا الدين وحمل رسالته.

وساعة يقول الحق عز وجل: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ فليس معنى ذلك أنه لم يعلم وسيعلم. لا؛ فسبحانه يعلم كل شئ أزلاً، ولكن العلم الأزلى لا يكون حجة على البشر. ودائماً أضرب هذا المثل- ولله المثل الأعلى- نجد عميد إحدى الكليات أحيانًا يعلن عن جائزة علمية يريد أن يعطيها للمتفوقين؛ فيقول له الاستاذ الذى يشرف على تحصيل الطلبة: إن فلاناً هو الاول وهو يستحق الجائزة، فيقول العميد: ولكنى أريد أن تعقد امتحاناً؛ ليكون حجة على غير المتفوقين؛ وهذا هو علم الواقع العملى الذى أراده الحق عز وجل من الابتلاء، وسبحانه وتعالى يعلم كل شئ أزلاً، ولكن

(1) قال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾ أم هذه هى المنقطعة التى بمعنى بل، والهمزة والاستفهام للتوبيخ، وحرف الإضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر، والمعنى: كيف يقع الحسبان منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه.
فتح القدير: [2/362]

العلم الواقعي هو حجة على المخالفين.

وكلمة ﴿ وَلَمَّا ﴾ للنفى، ومثلها مثل قولنا: «لما يأت» أى أنه لم يتحقق المجىء حتى الآن، وتختلف «لما» عن «لم»؛ فـ«لم» لا تؤذن بتوقع ثبوت مابعدها، فما يأتى بعدها لن يتحقق أبدًا، أما «لما» فتؤذن بتوقع ثبوت ما بعدها، أى أن ما بعدها لم يتحقق إلى لحظة نطقها، ولكنه قد يتحقق بعد ذلك. فإن قلت: «لما يثمر بستاننا» أى أن البستان الذى تملكه لم يثمر بعد، ولكنه سيثمر من بعد ذلك.

ومثل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]

ومعنى الآية: أن الإيمان لم يدخل فى قلوبهم، ولكنه سوف يدخل بعد ذلك، وهذه بشارة لهم. فقد قالت الأعراب: ﴿ آمَنَّا ﴾ فأوضح الحق سبحانه وتعالى: بل أسلمتم ولم يدخل الإيمان قلوبكم؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد القلبى الجازم، والإسلام انقياد لما يتطلبه إيمان القلب من سلوك، أى: أنتم قد سلكتم سلوك الإسلام، ولكن لم تؤمنوا حقًا.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾: العلم المراد هنا هو علم الواقع الذى سوف يكون حجة عليكم؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يختبركم لقلتم: لو أمرتنا يا رب بالقتال لقاتلنا، ولو أمرتنا بالصبر فى الحرب لصبرنا.

ولذلك جاءت الابتلاءات كتجربة عملية، ومن هذه الابتلاءات مواجهة العدو فى القتال، فمن هرب ثبت له التقصير فى المواجهة، ومن لم يصبر على الابتلاءات عرف نقص إيمانه وأصبح ذلك علماً واقعاً.

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾

إذن.. فالله يريد بعلم الواقع التمييز بين صدق الجهاد وبين الفرار منه، وأن يكون هناك سلوك إيمانى واضح؛ يبين أن هؤلاء القوم لم يتخذوا من دون الله تعالى ولا رسوله ﷺ وليجة، و«الوليجة» من فعيلة، بمعنى فاعل، و«والجة» يعنى «داخلة». والمعنى: أن لا يجعل له من دون الله سبحانه ولا من دون رسوله ﷺ بطانة يطلعهم على أمره وسره.

واقرأ قول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [الحج: ٦١]

أى: يدخل الليل على النهار ويدخل النهار على الليل، والمراد بـ«الوليجة» الشىء الذى يدخل فى شىء ليس منه، وهى من الكلمات التى تطلق ويستوى فيها المفرد المذكر والمؤنث، والمثنى والمثناة وجمع المذكر وجمع المؤنث، وتقول: «امرأة وليجة» و«رجل وليجة»، و«امرأتان وليجة»، «رجلان وليجة»، و«نساء وليجة»، و«رجال وليجة». كما تقول: «رجل عدل» و«امرأة عدل»، و«رجلان عدل»، و«امرأتان عدل»، و«رجال عدل»، و «نساء عدل»، لا تختلف فى كل هذه الحالات.

والمراد بالوليجة هنا بطانة السوء(1) التى تدخل على المؤمنين الضعاف،

(1) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ وَلِيجَةً ﴾ بطانة ومداخلة؛ من الولوج وهو الدخول، ومنه سمى الكناس الذى تلج فيه الوحوش تولجًا. ولج يلج ولوجًا إذا دخل. والمعنى: دخيلة مودة من دون الله ورسوله. وقال أبو عبيدة: كل شىء أدخلته فى شىء ليس منه فهو وليجة، والرجل يكون فى القوم وليس منهم وليجة. وقال ابن زيد: الوليجة الدخيلة، والولجاء الدخلاء؛ فوليجة الرجل من يختص بدخلة أمره دون الناس. تقول: هو وليجتى وهم وليجتى؛ الواحد والجمع فيه سواء. قال أبان بن تغلب رحمه الله:

فبئس الوليجة للهاربين ... والمعتدين وأهل الريب

وقيل: وليجة بطانة؛ والمعنى واحد؛ نظيره: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١١٨]
وقال الفراء: وليجة: بطانة من المشركين يتخذونهم ويفشون إليهم أسرارهم ويعلمونهم =

وتتخلل نفوسهم ليفشوا أسرار المؤمنين ويبلغوها للكفار. ولذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا﴾ أى: أن يعلم سبحانه علماً واقعياً من جاهدوا، ولم يتخذوا بطانة سوء من الكفار يدخلونهم فى شئونهم دخولاً يجعلهم يكتشفون أسرارهم.

فالممنوع هنا- إذن- أن يتخذ المؤمنون الكفار وليجة؛ لأن الكافر من هؤلاء سيأخذ أسرارهم ويفشيها لعدوهم. وبذلك يتعرض المؤمنون للخطر. وعلى المؤمن أن يجعل المؤمنين هم وليجته، ويسمح لهم أن يتداخلوا معه، وهم مأمونون على مايعرفونه من بواطن الأمور، أما الأعداء والخصوم من الكفار فهم غير مأمونين على شئ من أسرار المؤمنين.

وقوله تعالى : ﴿والله خبير بما تعملون﴾

أى: إن كنتم تحسبون أنكم تتداخلون مع الكفار وتعطونهم أسرار المؤمنين، ولا أحد يعرف، فاعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى، وأن الله خبير لا تخفى عليه خافية، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إن أخفيتم شيئًا عن عيون الخلق قد يخفى على الله !!. واعلموا أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء.

= أمورهم. تفسير القرطبي: [٨/ ٨٨].

وفى الحديث عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: «ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى». أخرجه البخارى [٧١٩٨]

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ [التوبة: ١٢٢]. قوله: ﴿فلولا﴾ هنا للحث والترغيب أن ينقسم المؤمنون قسمين : قسمًا يجاهد ، وقسمًا يبقى مع رسول الله ﷺ؛ ليعلموا ما أنزل الله تعالى من القرآن ويبلغوه إخوانهم إذا رجعوا (١) .

(١) قال الدكتور وهبة الزحيلى فى فريضة الجهاد: إن لم يكن النفير عامًا: فالجهاد فرض كفاية، ومعناه أنه يفترض على جميع من هو أهل للجهاد، لكن إذا قام به البعض سقط عن الباقين، لقوله عز وجل: ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى﴾ [النساء: ٩٥] فإنه سبحانه وعد الحسنى كلاً من المجاهدين والقاعدين عن الجهاد ، ولو كان الجهاد فرض عين لما وعد القاعدين الحسنى؛ لأن القعود يكون حراماً.

وقوله سبحانه: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين﴾ الآية، ولأن المقصود من الجهاد- وهو الدعوة إلى الإسلام، وإعلاء الدين الحق، ودفع شر الكفرة وقهرهم- يحصل بقيام البعض به، فإذا قاموا به يسقط عن الباقين.

وإن ضعفوا عن مقاومة الكفرة، فعلى من يجاورهم من المسلمين، الأقرب، فالأقرب أن يجاهدوا معهم وأن يمدوهم بالسلاح والمال.

ولا يجوز للمرأة الاشتراك فى الجهاد إلا بإذن زوجها؛ لأن القيام بحقوق الزوجية فرض عين، كما لا يجوز الجهاد للولد بدون إذن أبويه أو أحدهما إذا كان الآخر ميتاً؛ لأن بر الوالدين فرض عين، فيكون مقدماً على فرض الكفاية.

وأقل الجهاد مرة فى السنة كإحياء الكعبة، ولقوله تعالى: ﴿أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين﴾ [التوبة: ١٢٦]

قال مجاهد: نزلت فى الجهاد ولفعله ﷺ منذ أمر به. =

= فإن كان النفير عامًا: كأن هجم العدو على بلد إسلامي، فالجهاد فرض عين على كل قادر من المسلمين، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ انفروا خفافًا وثقالاً ﴾ [التوبة: ٤١] . قيل: نزلت في النفير. وقوله عز وجل: ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ [التوبة: ١٢٠]. فإذا عم النفير خرجت المرأة بغير إذن زوجها، وجاز للولد أن يخرج بدون إذن والديه.

ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع :

الأول: إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان، حرم على من حضر الانصراف وتعين عليه المقام لقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا ﴾ [الأنفال: ٤٥]

الثاني: إذا نزل الكفار ببلد، تعين على أهله قتالهم ودفعهم.

الثالث: إذا استنفر الإمام قومًا، لزمهم النفير معه، لقول الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾ [التوبة: ٣٨] وللحديث المتفق عليه: «إذا استنفرتم فانفروا»(١).

وهذا الحكم المذكور في فرضية الجهاد باتفاق الفقهاء.

الفقه الإسلامي وأدلته [٦/٤١٦، ٤١٧]

وعن ابن عباس في قوله: ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ يعني ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا ويتركوا النبي ﷺ وحده ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ يعني عصبة، يعني السرايا فلا يسيرون إلا بإذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد نزل قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ ، قالوا : إن الله قد أنزل على نبيكم بعدكم قرآنًا وقد تعلمناه، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم ﷺ بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ يقول: يتعلمون ما أنزل الله على نبيه ﷺ ويعلمونه السرايا إذا رجعت إليهم ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ .

الدر المنثور: [٤/٣٢٢، ٣٢٣].

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير في قوله: ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ أمروا إذا بعث النبي ﷺ سرية أن تخرج طائفة وتقيم طائفة فيحفظ المقيمون على الذين خرجوا ما أنزل الله من القرآن ، وما يسن من السنن فإذا رجعوا إلى إخوانهم =

(١) أخرجه البخاري [٢٨٢٥] من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنه.

وقوله تعالى : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة ﴾ كلمة: ﴿ نفر ﴾ تستخدم دائمًا في مسألة الخروج للجهاد، مصداق ذلك قوله جل جلاله : ﴿ ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾ [التوبة: ٣٨] ولكن لماذا تستخدم كلمة النفرة لمعنى الخروج للجهاد ؟ نقول: إن الذي يعوق الإنسان عن الجهاد، حبه لبيته وأهله وماله ووطنه. ولذلك إذا خرج إلى الحرب يكون هذا شيئًا ثقيلاً على نفسه، مصداق ذلك قوله عز وجل: ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ [البقرة: ٢١٦]. إذن.. فالخروج للقتال صعب على النفس ، ولكن الذي يرغب فيه هو أنه طاعة لله سبحانه وتعالى، رغبة فيما عنده سبحانه من الثواب الكبير الذي وعد به المجاهد في سبيل الله تعالى، هذا الأمر يجعله ينفر ، ولا يحب البقاء في بيته مع أهله وماله ، بل ينفر من البقاء معهم طمعًا في ثواب الله وجنته ؛ لأن كل ما يغريك أيها المؤمن على عدم الجهاد من متاع الدنيا لا يقارن بما ستحصل عليه من أجر في الآخرة. لذلك فأنت تنفر من كل ما يعوقك ويمنعك من هذا الأجر .

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾ نلاحظ ذكر الحق تبارك وتعالى لفعل ﴿ نفر ﴾ في وصف الذين يتفقهون في الدين . هنا قد يقول المسلم لنفسه : وهل تنفر الطائفة التي تتفقه في الدين ، إنها الفرقة الباقية والمستقرة مع الرسول ﷺ في المدينة ؟.

ونجيب : إن قول الحق سبحانه: ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾

= أخبروهم بذلك، وإذا خرج رسول الله ﷺ لم يتخلف عنه أحد إلا بإذن، أو عذر .
تفسير ابن أبي حاتم [١٠١١٧].

نجد فيه كلمة ﴿ فِرْقَةٍ ﴾ وهى الجماعة، والجماعة تنقسم إلى طوائف، فنحن نسمى كل مجموعة من الناس فرقة ، هذه الفرقة الأولى ، وهذه الفرقة الثانية، وهذه الفرقة الثالثة، ثم تنقسم الفرقة إلى طوائف: جماعة للدعوة، وجماعة للكشافة، وجماعة للتثقيف، وجماعة للرياضة، هذه كلها اسمها طوائف، والطائفة هى بعض الفرقة. والحق سبحانه وتعالى قسم كل فرقة إلى طائفتين : طائفة ستقاتل ، وطائفة تتفقه فى الدين .

إذن .. قول الحق سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ مقصود به هؤلاء الذين يأتون من الأماكن البعيدة عن المدينة؛ ليجلسوا إلى الرسول ﷺ، ليسمعوا، ويتفقهوا فى الدين حتى إذا رجع إخوانهم الذين خرجوا فى سبيل الله تعالى يعلمونهم أمور الإيمان وما نزل من القرآن.

وإما أن تكون أمراً مستقلاً للذين يبعد بهم المكان عن منبع المنهج ، وهو رسول الله ﷺ ، فهو ﷺ يُعلِّم من يأتون إليه؛ ليرجعوا بعد ذلك لقومهم، ويبلغوهم مطلوبات المنهج ، وهذه مسألة بعيدة عن القتال .

إذن .. تكون النفرة للتفقه فى الدين على أى معنى، ليس هناك فرق بين الطائفة الباقية التى تتفقه ؛ لتُعلِّم الطائفة التى تجاهد ، أو الطائفة التى تجاهد تتفقه بالمعجزات وبالأحداث التى حدثت أثناء قتالهم وتُعلمها للطائفة التى لم تخرج للقتال .

أو أن المعنى هو الأمر الثانى الذى لا قتال فيه ، بل يتناول أمر استقبال الرسول ﷺ لطائفة من كل بلد ليسمعوا منه ﷺ،وقد سماها الحق «نفرة»؛ لأنها جهاد فى البحث فى المنهج وتعلمه ، وهى نفرة النفرة ؛ لأن النفرة للجهاد بالقتال تتطلب فهماً لحيثيات الدفاع عن هذا المنهج المنزَّل من الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى:﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أى عندما يعود هؤلاء القوم من الغزوات ، يخبرهم الذين

لم ينفروا أن رسول الله ﷺ أنزل عليه كذا وكذا .

إذن .. فرقة نفرت وفرقة لم تنفر ، والذين لم ينفروا يأخذون عن رسول الله ﷺ ما نزل من القرآن. على أن الفرقة المجاهدة لم تخرج عن التفقه فى الدين ؛ لأنهم عندما يعودون يتحدثون عما جرى فى الغزوة ، والمعجزات التى حدثت، كما حدث فى بدر مثلاً كنزول الملائكة للنصرة والتأييد، وكيف انهزم المشركون وهم كثرة من المؤمنين وهم قلة، فكأن التفقه فى الدين للطائفتين ، طائفة تتفقه فى علم ما يتنزل من القرآن، وطائفة تتفقه فى معجزات الغزوة .

فحين ندقق فى هذا الأمر نجده عدة مراحل :

المرحلة الأولى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ .

المرحلة الثانية: ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ .

أما الثالثة فهى: ﴿ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ .

إذن : فالتفقه يكون للدعوة تبشيراً وإنذاراً ؛ حتى يتجنب القوم ما يضرهم .

نقض العهد موجب للقتال

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]

﴿نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم﴾، أى: لم ينفذوا بنود العهد الذى عاهدوا رسول الله ﷺ عليه، والله سبحانه وتعالى يعطينا هنا حيثية قتال الكفار بعد كل المراحل التى حاربوا فيها الإيمان، فهم قد نقضوا عهدهم، ولم يكتفوا بذلك بل ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾، أى: عابوا فى الدين عيباً مقذعاً.

وعندما يقال: إن فلاناً طعن فى فلان، فلابد أنه قد تجاوز مرحلة السب إلى مرحلة أكبر بكثير. وهنا يأمرنا الحق سبحانه وتعالى إما بقتالهم، وإما أن يعلنوا الإيمان.

وهذا حق للمسلمين؛ لأنهم قدموا من قبل كل ما يؤمن أهل العهد على حياتهم وممتلكاتهم، لكن أئمة الكفر نقضوا عهدهم وخانوا ما اتفقوا عليه.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾، أى أن القتل يأتى أولاً لزعماء الكفار الذين يصدون عن سبيل الله تعالى، ويحرضون أتباعهم على محاربة دين الله، فالأتباع ليسوا سوى قوم مقهورين على اتباع شئ قد يكونوا غير راغبين فيه؛ ولكن أئمة الكفر من علية القوم وسادة الناس هم الذين يخططون وينفذون ويحرضون (١).

---

(١) قال ابن العربى فى قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾: فيها مسألتان:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ دليل على أن الطاعن فى الدين كافر، وهو الذى ينسب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف =

وهم كما يوصفون فى العصر الحديث بأنهم مجرمو حرب، والعالم كله يعرف أن الحرب تنتهى متى تُخُلِّص من مجرمى الحرب؛ لأن هؤلاء هم الذين يضعون الخطط ويديرون المعارك ويقودون الناس إلى ميادين القتال، تماماً كأئمة الكفر، الذين صدوا عن سبيل الله تعالى فى البدء بمكة بتعذيب من يختار رسول الله ودينه؛ حتى القبائل التى كانت تأتى للحج كانوا يحولون بينها وبين الاستماع إلى رسول الله ﷺ وحاربوا الدين بكل السبل من إغراء وتحريض، وتهديد ووعد ووعيد؛ ثم طغوا وتجبروا وألجأوا المؤمنين إلى ترك ديارهم وأموالهم وأهليهم والفرار مرة إلى الحبشة،

= على ما هو من الدين، لما ثبت من الدليل القطعى على صحة أصوله واستقامة فروعه.

المسألة الثانية: إذا طعن الذمي فى الدين انتقض عهده لقوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم﴾ إلى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ فأمر الله بقتلهم وقتالهم إذا طعنوا فى دينكم فإن قيل: إنما أمرنا بقتالهم بشرطين:

أحدهما: نكثهم للعهد.

والثانى: طعنهم فى الدين.

قلنا: الطعن فى الدين نكث للعهد؛ بل قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إن عملوا ما يخالف العهد انتقض عهدهم. فقد روى أن عمر رفع إليه أن ذميًا نخس دابة عليها امرأة مسلمة، فرمحت، فأسقطتها، فانكشف بعض عورتها، فأمر بصلبه فى الموضع.

وقد قال علماؤنا: إذا حارب الذمى نُقض عهده. وكان ماله وولده فيئًا. قال محمد ابن مسلمة: ولا يؤخذ ولده؛ لأنه نقض وحده، وقال: أما ماله فيؤخذ.

وهذا تعارض لا يشبه منصب محمد؛ لأن عهده هو الذى حمى ولده وماله، فإذا ذهب عنه ذهب عن ولده وماله.

وقال أشهب: إذا نقض الذمىّ العهد فهو على عهده، ولا يعود الحر فى الرق أبدًا.

وهذا من العجب، وكأنه رأى العهد معنى محسوساً، وإنما العهد حكم اقتضاه النظر، والتزمه المسلمون، فإذا نقضه انتقض كسائر العقود من البيع والنكاح، فإنها تعقد؛ فترتب عليها الأحكام، فإذا نقضت وتسخت ذهبت تلك الأحكام.

أحكام القرآن: [٢/ ٩٠٥، ٩٠٦]

وأخرى إلى المدينة ناهيك عمن مات تحت قسوة التعذيب أو أخفى إيمانه خوفاً من بطشهم.

والأمر العجيب أنك ترى من يبرر لك قتل مجرمي الحرب ويستنكر قتل أئمة الكفر، والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾.

وفى فهم هذه الآية يأتى المستشرقون ومن يميلون إليهم بقلوبهم ويُحسبون علينا بقوالبهم وظواهرهم فيقولون: إن هناك تناقضاً؛ فالله يقول: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم﴾ يعنى: أثبت أن لهم أيماناً، ثم يقول: ﴿لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ (١). فكيف يثبت لهم الأيمان ثم ينفيها عنهم؟. والنفى والإثبات لا يجتمعان فى وصف الشخص الواحد.!!

ونقول: إنهما لا يجتمعان عند من يأخذ الأمور بظواهرها، ولكن من يعرف مرامى الألفاظ، يعلم أن نفى الشىء وإثباته فى القرآن الكريم معناه أن الجهة منفكة. فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ فى غزوة بدر:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]

فقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ نفى للرمى من رسول الله ﷺ، وقوله سبحانه: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾: إثبات للرمى. فقد جاء نفى الشىء وإثباته فى آية واحدة، والفاعل والفعل واحد. وهذه تسمى: انفكاك الجهة، أى أن كل جهة تطلب معنى مختلفاً عن الجهة الأخرى، تماماً مثلما يقال: إن فلاناً

(١) قال الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ جمع يمين، وقرئ: «لا إيمان لهم»، أى لا إسلام لهم، أو لايعطون الأمان بعد الردة والنكث، ولا سبيل إليه.
فإن قلت: كيف أثبت لهم الأيمان فى قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم﴾ ثم نفاها عنهم.
قلت: أراد أيمانهم التى أظهروها، ثم قال: ﴿لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ على الحقيقة، وأيمانهم ليست بأيمان، وبه استشهد أبو حنيفة رحمة الله عليه أن يمين الكافر لا تكون يميناً، وعند الشافعى رحمه الله: يمينهم يمين، وقال: معناه أنهم لا يوفون بها بدليل أنه وصفها بالنكث.
الكشاف: [٢/١٤١، ١٤٢]

يسكن أعلى منى. فهذا قول صحيح، ولكنه فى ذات الوقت يسكن أسفل بالنسبة لمن فوقه، إذن فهو فى نفس الوقت: عالٍ عمن تحته، وأسفل ممن فوقه.

أو تقول مثلاً: فلان أب وابن. هنا يبدو تناقض ظاهرى، ولكنه أب لابنه، وابن لأبيه، ولا يوجد تعارض. وهذا ما يسمى انفكاك الجهة.

إذن.. لا يوجد أدنى تعارض بين نفى الرمى عن رسول الله ﷺ وإثباته له؛ لأن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصى ورمى بها جيش الكفار، هذا مافعله الرسول ﷺ وهو من البشر(١)، لكن الله جلت قدرته أخذ هذا الحصى وأوصله إلى كل جندى من جيش الكفار.

وفى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٦، ٧] يزعم المستشرقون: إن الله نفى العلم عن أُناس وأثبته لهم، ونقول: لا؛ إنه نَفَى عنهم العلم الحقيقى، وأثبت لهم ظاهر العلم، وهذا مختلف عن ذلك تماماً.

إذن.. قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم﴾ [التوبة: ١٢] أثبتت الآية أن لهم أيماناً، وفى آخر الآية ينفى عنهم الأيمان فيقول: ﴿إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢]

ونخلص من ذلك إلى فائدة مهمة وهى: أن صاحب اليمين أو العهد عليه أن يُحافظ على يمينه، ومن لا يحافظ على يمينه أو عهده يكون لا أيمان له؛ لأن أيمانه وعهوده لا قيمة لها؛ لأنها مجردة من الوفاء.

(١) روى ابن جرير فى تفسيره [١٥٨٢٧- شاكر] عن على، عن ابن عباس قال: رفع رسول الله ﷺ يده يوم بدر فقال: يا رب، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً! فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب! فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها فى وجوههم، فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين.

وعندما يحلف الكذاب نقول: هذا لا يمين له. وهؤلاء أيمانهم لا حظ لها من الوفاء، فكأنهم لا أيمان لهم، كأن يكون لك ابن اقترب امتحانه وتجبره على استذكار دروسه، وتجلس تراقبه تقلب صفحات الكتاب ولكنه لا يفهم شيئاً. فإذا حاولت أن تحسب حصيلة المذاكرة لم تجد شيئًا، فتقول: ذاكرت وما ذاكرت، وهذا نفى للفعل وإثباته ولا تناقض بينهما؛ لأن الجهة منفكة.

ونفى الأيمان فى آخر الآية معناه أنهم لا وفاء لهم، وما داموا بلا وفاء فلا قيمة لأيمانهم.

وقول الله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]

هذا أمر بقتالهم لا بقتلهم، فيكون المعنى: قاتلوهم، فإن لم يُقتلوا فقد يجعلهم القتال ينتهون عن عدائهم للدين وصدهم عن سبيله؛ لأنهم حين يرون البعض منهم قد قُتل، وهم أضعف من المواجهة، هنا ستخف حدة محاربتهم للمسلمين، وتنتهى المكابرة والمعاندة.

أولويات القتال

قال رب العزة سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]

وهذا يعنى: أن هناك قوماً قريبين منهم ما زالوا كافرين، وهناك قوم أبعد منهم، والحق قد قال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]

إذن. فهناك أولويات فى القتال، وقتال الكفار القريبين فيه تأمين لمعسكر الإيمان؛ لذلك جاء الأمر بقتال الأقرب؛ لأنه قتال لن يتطلب رواحل ولا مئونة للسفر البعيد، كما أن العدو القريب منك أنت أعلم بحاله أكثر من علمك بحال الكفار البعيدين عنك؛ لذلك فأنت تعلم مواطن قوتهم وضعفهم، وكيفية تحصيناتهم. فإذا تيسر أمر قتال العدو الأقرب كان ذلك طريقاً لمجابهة العدو الأبعد، بدلاً من أن تواجه العدو البعيد؛ فيتفق مع العدو القريب، ويصنع الاثنان حولك كما يقولون بلغة الحرب «كماشة»، فلا بد أن تحمى ظهرك أولاً، من شر العدو الأقرب[1].

(١) قال القرطبي: إنه سبحانه عرفهم كيفية الجهاد، وأن الابتداء بالأقرب فالأقرب من العدو؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بالعرب، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام.
وقال الحسن: نزلت قبل أن يؤمر النبى ﷺ بقتال المشركين؛ فهى من التدريج الذى كان قبل الإسلام.
وقال ابن زيد: المراد بهذه الآية وقت نزولها العرب، فلما فرغ منهم نزلت فى الروم وغيرهم: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.
وقد روى عن ابن عمر أن المراد بذلك الديلم.
وروى عنه أنه سئل بمن يبدأ بالروم أو بالديلم؟ فقال: بالروم.
وقال الحسن: وهو قتال الديلم والترك والروم.
وقال قتادة: الآية على العموم فى قتال الأقرب فالأقرب، والأدنى فالأدنى. =

إذن.. فلا تعارض بين محاربة العدو البعيد والعدو القريب. ولا تعارض بين قول الحق سبحانه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾؛ لأن معنى ﴿كَافَّةً﴾ أى: جميعاً، ولكن الجماعة لها أولوية. فخذ القريب منك؛ لتضمه إليك، ومتى ضممته إليك نقصت أرضاً من عدوك، وأصبح زائداً فيك، فإذا كان الخصم معه سيف ومعك سيف، وبعد ذلك دخلت المعركة فأوقعت سيفه من يده؛ فأخذته؛ يصبح معك سيفان وهو لا سيف معه.

ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى للكفار: اعتبروا أيها الكفار، فأنتم ترون الأرض كل يوم وهى تنقص من تحت أقدامكم[1]، وما ينقص من أرض الكفار يزيد فى أرض المسلمين.

وما دام الحق قد جاء بكلمة «قتال» فهذه الكلمة تحتاج إلى عزيمة، وجرأة تحفز على القتال، وتعين عليه، فقد تَجِدُ فى مواجهتك من هو أقوى منك أو من هو أشجع منك، فإن رأى شجاعة منك تفوق شجاعته، وأحس منك قوة ومثابرة تفوق قوته ومثابرته، فهذا ينزع من قلبه الأمل فى الانتصار عليك؛ ولذلك يقول الحق: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ والغلظة صفة، ويقال: غِلْظَة، وغُلْظَة، وغَلْظَة[2] والمعروف أنها الشدة، فحين

= قلت: قول قتادة هو ظاهر الآية، واختار ابن العربى أن يبدأ بالروم قبل الديلم؛ على ما قاله ابن عمر لثلاثة أوجه. أحدها: أنهم أهل كتاب، فالحجة عليهم أكثر وآكد. الثانى: أنهم إلينا أقرب، أعنى أهل المدينة.
الثالث: أن بلاد الأنبياء فى بلادهم أكثر، فاستنقاذها منهم أوجب.
تفسير القرطبى: [٨/ ٢٩٧، ٢٩٨]

(١) روى الطبرى فى التفسير [١٣/ ١٧٢] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١] قال: أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض.

(٢) قال صاحب القاموس القويم للقرآن الكريم: غَلُظَ يَغْلُظُ غِلَظًا وغِلْظَةً وغَلَاظَةً: ضد=

تضرب عدوك اضربه بقوة الواثق من النصر، وبجرأة صاحب الحق، وبشجاعة المؤمن.

وحين يحاول عدوك أن يضربك استقبل الضربة بتحمل وجلد، وهكذا نجد أن الغلظة مطلوبة فى حالتين اثنتين؛ فى حالة الإرسال منك، وفى حالة استقبالك منه، فلا يكفى أن تضرب عدوك ضربة قوية، وحين يرد لك الضربة تخور وتضعف. إن الحق سبحانه يطلب منك غلظة وأنت تحمل على عدوك، وقوة تتحمل بها ضربة عدوك. ولذلك نجد فى آية آل عمران يقول الحق سبحانه: ﴿اصْبِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

وهنا يثور سؤال: هب أن عدوك صبر أيضاً، فماذا أنت فاعل؟ هنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

أى: حاول أن تغلبه فى الصبر. وحذر الحق من إلقاء السلاح بعد انتهاء المعركة؛ وأمر باليقظة وأخذ وضع الاستعداد الدائم لأن العدو قد ينتهز فرصة غفلة المؤمن عن سلاحه فيميل عليه؛ لذلك جاء الأمر من الحق:

﴿وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠][1]

أى: ظل على استنفارك ويقظتك أيها المؤمن؛ ليعلم العدو أنك تنتظره

= رَقّ رِقّة. واستغلظ: تهيأ لأن يكون غليظاً أو صار غليظاً، ويستعمل غلظ الأجسام للمعانى بمعنى الكبر والكثرة والعنف الشديد، فقوله: ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧] أى كبير كثير شديد صعب، وقوله ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] أى عظيماً كبير الشأن هو ميثاق الزواج، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أى غير رقيق القلب غير لطيف العشرة. القاموس القويم: [٢/ ٥٨].

(١) قال النووى فى شرح مسلم: قوله ﷺ: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله» هذه فضيلة ظاهرة للمرابط، وجريان عمله بعد موته فضيلة مختصة به، لا يشاركه فيها أحد، وقد جاء صريحاً فى غير مسلم: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة». النووى على صحيح مسلم: [٧/ ٧٠]

ومستعد لمنازلته إن حاول الكرة من جديد أو حدثته نفسه بالقتال مرة أخرى.

إذن.. فالغلظة تطلب منك أن تهاجم، وتطلب منك أن تتحمل، والتحمل يقتضى صبراً، والهجوم يقتضى شجاعة، فإذا ما كان فى خصمك صبر وشجاعة؛ فعليك أن تصابره أى: تصبر أكثر منه، وهى مأخوذة فى الأصل من: نافس فلان فلاناً، أى سابقه وحاول أن يسبقه، والمنافسة من النفس، وفى الذكر الحكيم يقول تعالى:

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦]

أى تنافسوا فى الخير، وإذا ما نافست العدو فأنت تصطاد الشىء النفيس، وهو إعلاء منهج الله . وحين تصابر أهل الباطل، فكل واحد من أهل الباطل قد يصابر لحاجة لمدة قصيرة ثم يتراجع؛ لأن الباطل زهوق.

وكيف يطلب الله منا أن تكون لنا غلظة عليهم مع أنه قال لرسوله ﷺ:

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

فإن هذا ينفى الغلظة، وأقول: لنفرق بين أمرين، أمر الغلظة فى أن تكون الحجة قوية، وأمر الغلظة التى يتطلبها القتال، أما المعايشة والمؤاكلة والملاطفة، فهذه تحتاج إلى لين ورقة.

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ يفيد أن الغلظة ليست صفة دائمة، بل تعنى: إن تَطَلَّب الأمر ذلك فيجب أن تكون فيك.

ومعلوم أن الله لم يطبع قلب المؤمن على الغلظة، ولم يطبعه على الشدة، وكذلك لم يطبعه عزيزاً على المؤمنين، بل على العكس تماماً، قال سبحانه:

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]

وقال سبحانه: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]

وقوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ يعنى: إياك أن تفهم أنك تواجه أعداءك من الكفار بعددك وعدتك؛ وإن كان العدد والعدة أمرين مطلوبين؛ لتدخل المعركة وأنت عندك شىء من الاطمئنان، ومثل ذلك من يسلك مفاوز(1) أو صحارى مقفرة(2) أو طريقاً موحشاً، ولذلك تجده يأخذ حذره ويحمل معه سلاحه لعله يصادف قطاع طريق، أو غير ذلك مما يعوق سيره؛ فهذا يعطيه شيئاً من الاطمئنان النفسى فقط، وهكذا الحال مع العدد والعدة للمجاهد.

أما النصر فهو من عند الله سبحانه وتعالى. ومادام الله مع المتقين، فلا بد أن يمدهم بمدد من عنده، ولله جنود لا يعلمها إلا هو سبحانه. وقد يكون المؤمن غليظاً طمعاً فى المغنم، فيدخل على الكافر بالقسوة، لذلك يأتى التحذير فى قول الحق سبحانه: ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فإن سلَّم لك واستسلم، فاستأسره، وإياك أن تؤذيه من أجل أن تأخذ معداته على أنها مغنم، فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم، أو لتكسب مكانة فى مجتمعك كمقاتل، بل أنت تقاتل حين يكون القتال مطلوباً لإقامة أمر الله، وتسلك بالخلق الإيمانى اللائق فى إطار أنك من المتقين لله، وتقاتل من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا (3).

إذن.. فالغلظة ليست طبع أصيل فى المؤمن، ولكنها عارض يتطلبه موقف. فإن لم يحتج الأمر إلى غلظة؛ فالأصل فى المؤمنين اللين والموادعة.

---

(1) المفاوز: جمع مفازة، وهى الصحراء المهلكة، وسميت هكذا؛ لأن من دخلها وخرج منها وقطعها فاز. قال ابن شميل: المفازة التى لا ماء فيها.

لسان العرب [٥/ ٣٩٣] بتصرف.

(2) مقفرة: القفر، الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلام.

المعجم الوسيط: [٢/ ٧٥٠].

(3) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه، قال: قال أعرابى للنبى ﷺ الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله».

متفق عليه، أخرجه البخارى [٣١٢٦]، ومسلم [٤/ ١٩٠٤/ ١٥٠].

ولذلك يُقال: الرجل كل الرجل هو من كانت له فى الحرب شجاعة، وفى السلم وداعة، وخيركم من كان فى الجيش كمياً وفى البيت صبياً، فلا يصطحب غلظته مع العدو إلى البيت والزوجة والأبناء؛ لأن ذلك وضع للأمر فى غير نصابه.

إذن.. قول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]

أى: كونوا فى حربكم غلاظاً بما يناسب الموقف؛ لأن الحرب تتطلب القسوة والشدة، ولكن إياك أن تستعمل القسوة والغلظة لصالحك، ولكن استعملها من أجل نصرة دين الله [1].

(١) قال السيد محمد رشيد رضا فى تأويل قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] اعلم أن هذه الآية قاعدة من قواعد القتال الذى نزلت أهم قواعده وأحكامه فى هذه السورة والتى قبلها، وإنما وضعت ههنا على سنة القرآن فى تفريق الموضوع الواحد الكثير الأحكام فى مواضع متفرقة، وبينا حكمت آنفاً عوداً على بدء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ أى الذين يدنون منكم وتتصل بلادهم ببلادكم؛ وذلك أن القتال شرع لتأمين الدعوة إلى الإسلام وحرية الدين والدفاع عن أهله، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧] وقال لأهل مكة: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أى وكل من بلغته دعوته بل أمره أن يخص الأقرب إليه فى النسب من أهل بلده أم القرى فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال: كان الذين يلونه من الكفار العرب فقاتلهم حتى فرغ منهم [1].

وعن قتادة قال: الأدنى فالأدنى.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر: أنه سئل عن غزو الديلم فقال سمعت رسول الله ﷺ

(١) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره [١٣٩/١٠].

= يقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ قال «الروم» اهـ يعنى أن الروم هم المراد بالكفار فى الآية لأنهم كانوا عند نزولها فى هذه السورة بعد الفراغ من أمر يهود المدينة وخيبر هم الذين يلونهم فى تبوك وسائر بلاد الشام.

وترجيح البدء بالأقرب فالأقرب معقول من وجوه كثيرة كالحاجة والإمكان والسهولة والنفقة، ولذلك كانت القاعدة فيه عامة فى الدعوة والقتال والنفقات والصدقات، وكذا ما يدار فى المجلس من شراب ونحوه فكان ﷺ يعطى من على يمينه وإن لم يكن أفضل الجالسين ثم الذى يليه فالذى يليه [1]. وأمر بأن يأكل الإنسان مما يليه [2].

وإنما تطرد القاعدة فى الحالة العادية. وأما ما يعرض من ضرورية فى كل ذلك فله حكمه فأحكام الضرورات مستثناة فى الواجبات والمحرمات والآداب.

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى وليجدوا فيكم شدة وخشونة فى القتال ومتعلقاته كما تقدم فى تفسير آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] والغلظة على المقاتلين فى زمن الحرب من مقتضيات الطبيعة والمصلحة، وتنكيرها فى الآية يدل على أن لأولى الأمر أن يحددوها فى كل زمن وكل حال بما يتفق مع المصلحة، وإنما أمروا بها على كونها طبيعية لتقييد ما أمروا به فى الأحوال العامة من الرفق والعدل والبر فى معاملة الكفار حتى صار ذلك من أخلاق الإسلام، وأمر القتال مبنى على الشدة والغلظة فى كل الأمم، وقد حرم فظائعها الإسلام كما تقدم فى تفسير سورة الأنفال، وقد بلغت فظائعها عند الإفرنج فى هذا العصر ما يخشى أن يفضى إلى تدمير العمران كله.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ له فى مراعاة أحكامه وسننه بالمعونة والنصر، وأهمها ما يجب اتقاؤه فى الحرب، من التقصير فى أسباب النصر والغلب التى بينها فى كتابه، والتى تعرف بالعلم والتجارب، كإعداد ما يستطاع من قوة، والصبر والثبات، والطاعة والنظام، وترك التنازع والاختلاف، وكثرة ذكر الله، والتوكل عليه فيما وراء الأسباب. تفسير المنار [١١/ ٦٥- ٦٦].

(١) عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه رأى رسول الله ﷺ، شرب لبناً وأتى داره فحلبت شاة فشبت لرسول الله ﷺ من البئر فتناول القدح فشرب وعن يساره أبو بكر وعن يمينه أعرابى فأعطى الأعرابى فضله ثم قال: «الأيمن فالأيمن». أخرجه البخارى [٥٦١٢]

(٢) عن عمر بن أبى سلمة قال: كنت فى حجر رسول الله ﷺ. وكانت يدى تطيش فى الصحفة. فقال لى: «يا غلام! سم الله وكل بيمينك. وكل مما يليك». أخرجه مسلم [٢٠٢٢/ ١٠]

قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)﴾ [البقرة].

هذه القضية هي التي تميز الأمة الإسلامية بخصوصية فريدة؛ لأنه سبحانه قد أقام هذه الأمة على منهاج قويم لم تظفر به أمة من قبل، وهذه الخصوصية هي أن الله قد أمَّن أمة محمد ﷺ على أن تؤدب الخارجين على منهج الله، والصادِّين عن سبيله(١)، فقديماً كان الله سبحانه يؤدب هؤلاء الخارجين على المنهج، بعد أن يكون الرسول قد بلَّغ المنهج، واجتهد ما وسعه الجهد حتى إذا يأس الرسول، ولم يجد فيهم خيراً، دعا الله عليهم، فيعاقبهم الله تعالى، إما

(١) قال ابن القيم: لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة. وأيده الله بنصره، بعباده المؤمنين الأنصار، وألَّف بين قلوبهم بعد العداوة والإحَن(١) التي كانت بينهم، فَمَنَعَتْه أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه؛ وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمَّروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح. حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

(١) الإحنة: الحقد، وجمعها: «إحَن». مختار الصِّحاح: [١٢].

بصاعقة، وإما بعذاب، وإما بفيضان، وإما بأي وسيلة أخرى. ولم يكن الرسل مكلفين بالدفاع عن المنهج ولا مأمورين بالتخلية بين من يريد المنهج، والصاد عنه.

- وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسورة مكية، وهذا غلط لوجوه:

أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

الثاني: أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠] وهؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] نزلت في الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين(١).

الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والخطاب بذلك كله مدني، فأما الخطاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١] فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يعم الجهاد باليد وغيره، ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة، فأمر به في مكة بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ، وجهاد الحجة، وأما الجهاد المأمور به في سورة «الحج» فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى في «مستدركه» من حديث الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون لَيَهْلكُنَّ، فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ وهي أول آية نزلت في القتال(٢). وإسناده على شرط الصحيحين. وسياق السورة يدل على أن فيها المكي والمدني، فإن قصة إلقاء الشيطان في أمنية الرسول ﷺ مكية، والله أعلم.

(١) أخرج البخاري [٤٧٤٣] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه أنه كان يقسم فيها إن هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه، يوم برزوا في يوم بدر.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك [٢ / ٦٦] وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه بنحوه الترمذي [٣١٧١] وقال: حديث حسن. وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٢٥٣٥].

= ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرماً، ثم مأذونا به، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين، إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور.

والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع.

أما الجهاد بالنفس، ففرض كفاية، وأما الجهاد بالمال، ففي وجوبه قولان، والصحيح وجوبه؛ لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء، كما قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١] وعلق النجاة من النار به، ومغفرة الذنب، ودخول الجنة؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)﴾ [الصف]. وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك، أعطاهم ما يحبون من النصر والفتح القريب فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي: ولكم خصلة أخرى تحبونها في الجهاد، وهي ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] وأخبر سبحانه أنه ﴿اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] وأعاضهم عليها الجنة، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي: التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم.

فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطره وأجله، فإن الله عز وجل هو المشتري، والثمن جنات النعيم، والفوز برضاه، والتمتع برؤيته هناك، والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعة هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم وخطب جسيم:

قد هيئوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل (١) =

(١) هو آخر بيت من لامية العجم للطغرائي.

= مهر المحبة والجنة بذل النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المعرض المفلس وسوم هذه السلعة، بالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت، فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد، فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن يكون نفسه الثمن، فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لما كثر المدعون للمحبة، طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم، لادعى الخلي حرقة الشجي، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل: لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة، وقيل: لا تقبل العدالة إلا بتزكية ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] فتأخر أكثر المدعين للمحبة، وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد، فـ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين، فلما رأى التجار عظمة المشتري وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه، ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد، عرفوا أن للسلعة قدراً وشأناً ليس لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة، تذهب لذتها وشهوتها، وتبقى تبعتها وحسرتها، فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء، فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان رضى واختياراً من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تم العقد، وسلموا المبيع، قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلباً للربح عليكم؛ بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المعيب، والإعطاء عليه أجل الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن. تأمل قصة جابر بن عبد الله وقد اشترى منه ﷺ بعيره، ثم وفاه الثمن وزاده، ورد عليه البعير (١). وكان أبوه قد قتل مع النبي ﷺ في وقعة أحد =

(١) أخرج مسلم [٧١٥/١١٣] عن جابر قال: لما أتى علي النبي ﷺ، وقد أعيا بعيري، قال: فنخسه فوثب. فكنت بعد ذلك أحبس خطامه لأسمع حديثه، فما أقدر عليه. =

= فذكره بهذا الفعل حال أبيه مع الله ، وأخبره ﷺ «أن الله أحياه، وكلَّمه كفاحاً وقال: يا عبدى، تمن على»[1] فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق، فقد أعطى السلعة، وأعطى الثمن، ووفَّق لتكميل العقد، وقَبِل المبيع على عيبه، وأعاض عليه أجلَّ الأثمان، واشترى عبده من نفسه بماله، وأسمع منادى الإيمان من كانت له أذن واعية، وأسمع الله من كان حيًا ، فهزَّه السماع إلى منازل الأبرار، وحدا به فى طريق سيره، فما حطَّت به رحاله إلا بدار القرار، فقال ﷺ : «انتدب الله لمن خرج فى سبيله - لا يخرجه إلا إيمان بى، وتصديق برسلى - أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة. ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية، ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل»[2].

وقال ﷺ : «مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله ، وتوكّل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفَّاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة»[3].

وقال ﷺ : «غدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»[4].

وقال ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى: «أيما عبد من عبادى خرج مجاهداً فى سبيلى ابتغاء مرضاتى، ضمنت له أن أرجعه إن أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة، وإن قبضته أن أغفر له وأرحمه وأدخله الجنة»[5]. =

= فلحقنى النبى ﷺ فقال: «بعنيه»، فبعته منه بخمس أواق. قال: قلت: على أن لى ظهره إلى المدينة، قال: «ولك ظهره إلى المدينة». قال: فلما قدمت المدينة أتيته به، فزادنى وُقِيَّة، ثم وهبه لى.

(1) جزء من حديث رواه ابن ماجة [190] بلفظ: «ما كلَّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وكلَّم أباك كفاحاً، فقال: ياعبدى ، تمنَّ علىَّ أعطك..». وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجة [157].

(2) أخرجه البخارى [36، 3123، 7457، 7463] واللفظ له، والنسائى فى المجتبى [5029، 5030] وابن ماجه [2753] ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

(3) أخرجه البخارى [2787] بلفظ: «مثل المجاهد فى سبيل الله -والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله - كمثل الصائم القائم. وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يُدخله الجنة أو يُرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة ». وأخرجه مسلم [1878/ 110]، والنسائى فى المجتبى [3124]، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

(4) أخرجه البخارى [2792] عن أنس بن مالك رضى تعالى الله عنه بلفظ : « لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها». وأخرجه مسلم [1880/112]..

(5) رواه النسائى فى المجتبى [3126] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما بلفظ. «أيما عبد من عبادى خرج =

= وقال ﷺ : «جاهدوا فى سبيل الله ، فإن الجهاد فى سبيل الله باب من أبواب الجنة يُنجى الله به من الهمِّ والغمِّ»[1].

وقال ﷺ : «أنا زعيم- والزعيم الحميل- لمن آمن بى، وأسلم وهاجر ببيت فى ربَض الجنة، وببيت فى وسط الجنة، وأنا زعيم لمن آمن بى وأسلم، وجاهد فى سبيل الله ببيت فى ربض الجنة، وببيت فى وسط الجنة، وببيت فى أعلى غرف الجنة، من فعل ذلك، لم يدع للخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً يموت حيث شاء أن يموت»[2].

وقال ﷺ : «من قاتل فى سبيل الله من رجل مسلم، فُوَاق ناقة، وجبت له الجنة»[3].

وقال ﷺ : «إن فى الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[4].

وقال ﷺ لأبى سعيد: « من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدها علىَّ يا رسول الله، ففعل.

ثم قال رسول الله ﷺ: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». =

= مجاهداً فى سبيل الله .. وإن قبضته غفرت له ورحمته ». وصححه الألبانى فى صحيح النسائى [2929].

(1) رواه أحمد فى المسند [5/ 314] عن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه، واللفظ له، والحاكم فى المستدرك [2/ 75] وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى، وذكره الهيثمى فى المجمع [5/ 275] وقال: رواه أحمد، والطبرانى فى الكبير والأوسط بأطول من هذا ، وأحد أسانيد أحمد وغيره ثقات.

(2) رواه النسائى فى المجتبى [3133] عن فضالة بن عبيد رضى الله تعالى عنه ، واللفظ له ، والحاكم فى المستدرك [2/ 71] وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى. وصححه الألبانى فى صحيح النسائى [2936].

(3) رواه ابن ماجة [2792] عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [2251]. وهو جزء من حديث رواه أبو داود [2541]، والترمذى [1657]، والنسائى فى المجتبى [3141] عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [2216].

(4) أخرجه البخارى [2790، 7423] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

= وكان ﷺ يستحب القتال أول النهار، كما يستحب الخروج للسفر أوله، فإن لم يقاتل أول النهار، أخر القتال حتى تزول الشمس، وتهب الرياح وينزل النصر (١).

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يُكْلَمُ أحد في سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم في سبيله- إلا جاء يوم القيامة اللون لون الدم، والريح ريح المسك» (٢).

وفي الترمذي عنه ﷺ «ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين أو أثرين، قَطْرَة دَمْعَة من خشية الله، وقَطْرَة دم تهراق في سبيل الله، وأما الأثران فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله» (٣).

وصح عنه ﷺ أنه قال: «ما من عبد يموت، له عند الله خير لايسره أن يرجع إلى الدنيا؛ وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا؛ فيُقتل مرة أخرى» (٤) وفي لفظ: «فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة» (٥). وقال ﷺ لأم حارثة بنت النعمان، وقد قتل ابنها معه يوم بدر، فسألته أين هو؟ قال: «إنه في الفردوس الأعلى» (٦).

وقال ﷺ: «إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربهم =

= له». وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [٢١٩٦].

(١) روى أبو داود [٢٦٠٦] عن صخر بن وداعة الغامدي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لأمتي في بكورها» وكان إذا بعث سرية أو جيشاً بعثهم من أول النهار، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٢٢٧٠].

(٢) أخرجه مسلم [١٠٥/١٨٧٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه بلفظ: «لا يُكْلَمُ أحد في سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم في سبيله - إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثْعَبُ، اللون لون دم والريح ريح مسك».

(٣) رواه الترمذي [١٦٦٩] عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي [١٣٦٣].

(٤) أخرجه مسلم [١٠٨/١٨٧٧] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه بلفظ: «ما من نفس تموت لها عند الله خير، يسرها أن ترجع إلى الدنيا، ولا أن لها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل في الدنيا لما يرى من فضل الشهادة».

(٥) جزء من حديث أخرجه البخاري [٢٨١٧] عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري [٢٨٠٩] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه بلفظ: «يا أم حارثة إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى».

= اطّلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي؟! ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا؛ حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا» (١).

وقال ﷺ: «إن للشهيد عند الله خصالاً: أن يُغفر له من أول دَفْعَة من دمه، ويُرى مقعده من الجنة، ويُحلّى حلية الإيمان، ويُزوَّج من الحور العين، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها. ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه» (٢) ذكره أحمد وصححه الترمذي.

وقال ﷺ لجابر: «ألا أخبرك ماقال الله لأبيك؟» قال: بلى، قال: «ما كلّم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحاً، فقال: يا عبدي تمنّ على أعطك، قال: يارب تحييني فأُقتل فيك ثانية، قال: إنه سبق مني «أنهم إليها لايرجعون» قال: يا رب فأبلغ من ورائي، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (٣) [آل عمران: ١٦٩]

وقال ﷺ: لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ماصنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله على رسوله هذه الآيات: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا﴾ (٤).

■

(١) أخرجه مسلم [١٢١/١٨٨٧] عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه بلفظ: «أرواحهم في جوف طير خُضر...» الحديث.

(٢) رواه أحمد في المسند [٤ / ١٣١] بلفظ: «إن للشهيد عند الله عز وجل ست خصال: أن يغفر له في أول دفعة...» الحديث. ورواه الترمذي [١٦٦٣]، وابن ماجه [٢٧٩٩] عن المقدام بن معد يكرب رضي الله تعالى عنه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [٢٢٥٧].

(٣) رواه الترمذي [٣٠١٠] وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه [٢٨٠٠]، عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه [٢٢٥٨].

(٤) رواه أحمد في المسند [١ / ٢٦٦] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما واللفظ له، وصححه الشيخ =

= وفى «المسند» مرفوعاً: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، فى قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية» (١).

وفى «المستدرك» والنسائى مرفوعًا: «لأن أُقتل فى سبيل الله أحب إلىَّ من أن يكون لى أهل المَدَر والوَبَر» (٢).

وفيهما: «ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة» (٣).

وفى السنن: « يُشَفَّع الشهيد فى سبعين من أهل بيته» (٤) .

وفى المسند : «أفضل الشهداء الذين إن يلقوا فى الصف لا يلفتون وجوههم حتى يُقتلوا، أولئك يتلبَّطون فى الغرف العلى من الجنة، ويضحك إليهم ربك، وإذا ضحك ربك إلى عبد فى الدنيا، فلا حساب عليه» (٥).

وصح عنه ﷺ أنه: «لا يجتمع كافر وقاتله فى النار أبداً» (٦) .

وسُئل ﷺ أى الجهاد أفضل؟ فقال: «من جاهد المشركين بماله ونفسه» قيل: فأى القتل أفضل؟ قال: «من أُهريق دمه، وعُقِر جواده فى سبيل الله» (٧). =

= شاكر برقم [٢٣٨٨] ورواه أبو داود [٢٥٢٠] والحاكم فى المستدرك [٢ / ٢٩٧، ٢٩٨] وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢١٩٩].

(١) رواه أحمد فى المسند [١/ ٢٦٦] ، عن بن عباس رضى الله تعالى عنهما. وصححه الشيخ شاكر برقم [٢٣٩٠].

(٢) رواه النسائى فى المجتبى [٣١٥٣] عن ابن أبى عميرة رضى الله تعالى ، وحسنه الألبانى فى صحيح النسائى [٢٩٥٥].

(٣) رواه الترمذى [١٦٦٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى بلفظ: «ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة». وقال : حديث حسن صحيح غريب . والنسائى فى المجتبى [٣١٦١] ، وابن ماجه [٢٨٠٢]، وقال الألبانى فى صحيح النسائى [٢٩٦٣]: حسن صحيح.

(٤) رواه أبو داود [٢٥٢٢] عن أبى الدرداء رضى الله تعالى، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢٢٠١].

(٥) رواه أحمد فى المسند [٥ / ٢٨٧] عن. نعيم بن همار وإسناده صحيح.

(٦) أخرجه مسلم [١٨٩١/ ١٣٠]، واللفظ له، وأبوداود [٢٤٩٥] عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٧) رواه أبو داود [١٤٤٩]، والنسائى فى المجتبى [٢٥٢٦] ، بدون قوله: «فى سبيل الله» عن عبد الله ابن حبشى رضى الله تعالى عنه، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [١٢٨٦] .

وحتى حين سأل بنو إسرائيل ربهم أن يقاتلوا، لم يكن قتالهم من أجل الدين وذلك ما نفهمه من قول الله تعالى فى الآية الكريمة: ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾[البقرة: ٢٤٦] .

لقد كانت علة طلبهم للقتال أنهم أخرجوا من بيوتهم وأُجبروا على ترك أولادهم، فهم عندما طلبوا القتال لم يطلبوه للدفاع عن العقيدة؛ وإنما لأنهم أخرجوا من ديارهم وأولادهم.

أما أمة النبى محمد ﷺ فهى التى أمنها الله على أن يكون فى يدها الميزان، وليس هذا الميزان ميزان تسلط، وإنما هو ميزان يحمى كرامة الإنسان بأن يصون له حرية اختياره بالعقل الذى خلقه الله، فلا إكراه لأحد فى الإيمان بالله.

وقد شرع الله القتال لأمة محمد ﷺ لا ليفرض به ديناً؛ ولكن ليحمى اختيار الإنسان فى أن يختار الدين الذى يرتضيه. وهو يمنع سدود الطغيان التى تحول دون هذا الإنسان ودون أن يكون حرًا مختاراً فى أن يقبل الإيمان أو لا يقبله.

ولذلك فالذين يحاولون أن يلصقوا بالإسلام تهمة أنه انتشر بالسيف نقول لهم: إن حججهم ساقطة واهية، وكذلك قولهم: إن الإسلام عندما فرض الجزية كأنه جاء لجباية الأموال، نقول لهؤلاء: جزية على مَن؟ جزية على غير المؤمن، وما دام قد فرضت عليه جزية فمعنى ذلك أنه تُرك ودينه القديم ولم يكره أحدٌ على اعتناق الدين الجديد، ولو كان الإسلام يكره

= وصح عنه ﷺ : « أنه لاتزال طائفة من أمته يقاتلون على الحق لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة» (١).

[زاد المعاد : ٣ / ٦٩- ٩٥] بتصرف.

(١) أخرجه البخارى [٧٣١١] عن المغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه، ومسلم [١٩٢٠/ ١٧٠] عن ثوبان رضى الله عنه بلفظ : «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهو كذلك».

الناس على اعتناقه لما كان هناك من نأخذ منه جزية، وحتى الجزية لم تكن بلا مقابل ، بل كانت مقابل توفير كافة الخدمات والحماية التى يوفرها الدين الجديد لمعتنقيه.

إذن.. فالإسلام لم يُكره الانسان، وإنما حماه من القوة التى تسيطر عليه حتى لا يُكرهه أحد على اختيار ما لا يرغب ، وجعله حراً ، فى أن يُسلم أو لا يُسلم. وكأن الذين ينتقدون الإسلام يدافعون عنه؛ فسهامهم قد ارتدت إلى صدورهم.

وقد يسأل سائل: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا كانت حروب المسلمين؟ نقول: إن حروب المسلمين كانت لمواجهة الذين يفرضون العقائد الباطلة على غيرهم، وجاء الإسلام ، ليقول لهؤلاء : ارفعوا أيديكم عن الناس واجعلوهم أحراراً فى أن يختاروا ما يشاءون.

ولماذا تركهم الإسلام أحراراً؟ لأن الإنسان ما دام على حريته فى أن يختار - خاصة بعد أن يجلى له الأمر - فلا يمكن أن يختار إلا الإسلام؛ لأنه دين الفطرة ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]. وكثير من الناس الذين يقرءون قول الله تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ، لا يفطنون إلى أن العلة واضحة من قوله سبحانه فى الآية نفسها: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ .

إذن.. فالمسألة واضحة ، فلماذا نُكره الناس وقد وضح أمامهم الحق والباطل؟ نحن فقط نمنع الذين يفرضون عقائدهم الباطلة على الناس؛ ونبين لهم مطلوب الله منهم ولماذا خلقهم. فمن شاء أن يؤمن فليؤمن، ومن بقى على معتقده القديم فالله تعالى حسيبه. فأنت تستطيع أن تكره القالب، لكن لا تستطيع أن تكره القلب.

والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبع الإيمان من القلب؛ ولهذا يقول

لرسوله ﷺ : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

إن الله لا يريد أعناقاً خاضعة له، لو كان يريد سبحانه أعناقاً خاضعة له ما استطاع أحد أن يخرج عن أمره سبحانه.

إن الحق سبحانه يريد إيمان قلوب لا رضوخ قوالب. فالذى يجبر الآخرين على الإيمان لن يتبعه أحد، وهو نفسه غير مؤمن بما يفرضه على الناس. ولو كان مؤمناً به لما فرضه على الناس بالقسر؛ إنهم سيقبلونه عن طواعية واختيار ، عندما يتبين لهم أنه الحق من عند ربهم.

وعندما ننظر حولنا نجد أن النظم والحكومات التى تفرض مبادئها بالسوط والقهر تسقط ولو بعد حين. ورحم الله القائل: دولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة.

والقرآن يعالج هذه المسألة عندما يتحدث عن القتال وتشريعه ، الأمر الذى اختص به الحق سبحانه أمة الإسلام. وهو سبحانه لم يأذن بالقتال خلال فترة الدعوة المكية التى استمرت ثلاثة عشر عاماً ، لكنه سبحانه أذن به بعد الهجرة إلى المدينة. وقد كان من الضرورى أن يتأخر أمر القتال؛ لأن الحق سبحانه أراد أولاً أن يلتفت المسلمون إلى تثبيت عقيدتهم ؛ حتى يكونوا قدوة لغيرهم، ويرى الناس فيهم أسوة حسنة؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [البقرة:١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ [الأحزاب:٤٨]

لماذا كل هذا التدرج؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن الدعوة للإسلام ستدخل البيوت، وسيضم البيت الواحد كافراً بالله ومؤمناً بالله، ولو أنه سبحانه وتعالى شرع القتال من البداية ؛ لصار فى كل بيت معركة.

ثم إن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن تلك القبائل بها كثير من خفة

وطيش وسفه؛ وكانوا يقتتلون لأتفه الأسباب؛ فمن أجل ناقة ضربها كليب بسهم فى ضرعها فماتت ؛ اشتعلت الحرب أربعين سنة . وفى ذلك يقول الشاعر:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طـاروا إليه زرافات ووحـدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   فى النائبات على ما قال برهانا

أى أنهم لا يسألون أخاهم: لماذا نحارب؟ وإنما يحاربون بلا سبب ولأى سبب، فالحمية الرعناء تدفعهم للقتال بلا سبب.

ويعلم الحق سبحانه وتعالى أن نقل أمة العرب مما اعتادته ليس أمراً سهلاً؛ لذلك أخذهم بالرفق والهوادة.

والذين يقولون: لماذا لم يحارب المسلمون أعداءهم من أول وهلة؟ ولماذا لم يقاتلوا صناديد الكفر فى مكة؟

نقول لهم: إن كثيراً من الذين كنتم ترون قتالهم فى بداية الدعوة الإسلامية هم الذين رفعوا راية الإسلام من بعد ذلك ، ومثال ذلك خالد ابن الوليد ، الذى كان قائداً مغواراً فى صفوف المشركين، وقاتل المسلمين فى أول حياته ، ثم هداه الله للإسلام وأصبح سيف الله المسلول ، ماذا لو قتل هذا القائد الفذ على أيد المسلمين؟ بالطبع كان مثل هذا الفعل سيتسبب فى حرمان المسلمين من موهبته ، تلك الموهبة التى أسهمت فى معظم الفتوحات الإسلامية فى الشام والعراق.

إذن.. شاء الله تعالى أن يستبقى أمثال خالد بن الوليد وهم خصوم للإسلام فى بَدْء الدعوة؛ لأنه سبحانه قد أعد لهم دوراً يخدمون به الإسلام. والذين نالوا من الإسلام أولاً هم الذين ستبقى عندهم الحماسة؛ حتى يعملوا عملاً يغفر الله لهم به ما قد سبق.

مثال ذلك عكرمة بن أبى جهل، كان شوكة فى ظهر المسلمين فى بداية الدعوة، ثم أسلم وأبلى بلاء حسناً، ولما أصيب فى موقعة اليرموك وأوشكت روحه أن تصعد إلى خالقها نظر إلى قائده خالد بن الوليد وقال: أهذه ميتة تُرضى عنى رسول الله ﷺ؟ كأنه كان يعلم أن رسول الله ﷺ كان قد غضب عليه قبل أن يُسلم (١).

(١) عكرمة بن أبى جهل بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشى المخزومى. وأمه أم مجالد إحدى نساء بنى هلال بن عامر، واسم أبى جهل عمرو، وكنيته أبو الحكم. وإنما رسول الله ﷺ والمسلمون كنَّوه أبا جهل، فبقى عليه ونسى اسمه وكنيته، وكنية عكرمة هو عثمان.
أسلم بعد الفتح بقليل، وكان شديد العداوة لرسول الله ﷺ فى الجاهلية، ومن أشبه أباه فما ظلم! وكان فارسًا مشهوراً، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة هرب منها ولحق باليمن، وكان رسول الله ﷺ لما سار إلى مكة أمر بقتل عكرمة ونفر معه.
ولما أسلم كان المسلمون يقولون: هذا ابن عدو الله أبى جهل! فساءه ذلك، فشكى إلى رسول الله ﷺ، فقال النبى ﷺ لأصحابه: «لا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذى الحى» ونهاهم أن يقولوا: «عكرمة بن أبى جهل».
اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، فما أحسن هذا الخلق وأعظمه وأشرفه.
ولما أسلم عكرمة قال: يا رسول الله، لا أدع مالاً أنفقت عليك إلا أنفقت فى سبيل الله مثله. واستعمله رسول الله ﷺ على صدقات هوازن عام حج.
وله فى قتال أهل الردة أثر عظيم. استعمله أبو بكر رضى الله عنه على جيش، وسيره إلى أهل عمان، وكانوا ارتدوا، فظهر عليهم. ثم وجهه أبو بكر أيضاً إلى اليمن، فلما فرغ من قتال أهل الردة سار إلى الشام مجاهداً أيام أبى بكر مع جيوش المسلمين، فلما عسكروا بالجُرْف على ميلين من المدينة، خرج أبو بكر يطوف فى معسكرهم، فبصر بخباء عظيم حوله ثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة، فانتهى إليه فإذا بخباء عكرمة فسلم عليه أبو بكر، وجزاه خيراً، وعرض عليه المعونة، فقال: لا حاجة لى فيها، معى ألفا دينار. فدعا له بخير، فسار إلى الشام واستشهد بأجنادين. وقيل: يوم اليرموك، وقيل: يوم الصفر. عن أبى عثمان الغسانى- وهو يزيد بن أسيد- عن أبيه قال: قال عكرمة بن أبى جهل يومئذ- يعنى يوم اليرموك- : قاتلت رسول الله ﷺ فى كل موطن، وأفر منكم اليوم، ثم نادى: مَن يبايعنى على الموت؟ فبايعه عمه=

وكذلك عمرو بن العاص داهية المسلمين الذى فُتحت مصر على يديه.

فقد كسب بدهائه أهل مصر فامتنعوا عن قتاله، وناظرهم بعد ذلك حتى استل حقدهم على المسلمين، وأبان لهم أن رسول الله ﷺ قال موصياً بهم: «إذا فتحتم مصر، فاستوصوا بالقبط خيراً؛ فإن لهم ذمة ورحماً» (١).

إذن.. فمن رحمة الله أنه لم يشرع الأمر بالقتال من البداية، وإلا لكنا فقدنا الكثير من قادة الإسلام العظام، الذين حملوا لواء الدعوة الإسلامية فيما بعد، وكل إنسان استبقاه الله تعالى وهو خصم للإسلام، قدَّر الله له بعد أن يسلم دوراً خدم به الدين الخاتم.

من هنا نفهم أن الحكمة من تأخير القتال فى الإسلام؛ هى أن الله أراد أن يمحص ويختبر، وألا يدخل هذا الدين إلا من يتحمل تبعات هذا الدين، ومشاقه؛ لأنه سيكون مأموناً على مجد أمة، وعلى منهج الله،

= الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قُدَّام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحة وقتلوا إلا ضرار بن الأزور.

وعن الزهرى: أن عكرمة بن أبى جهل يومئذ - يعنى يوم «فحل» - كان أعظم الناس بلاءً، وأنه كان يركب الأسنة حتى جرحت صدره ووجهه، فقيل له: اتق الله وارفق بنفسك. فقال: كنت أجاهد بنفسى عن اللات والعزى، فأبذلها لها، أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله؟!، لا والله أبداً قالوا: فلم يزدد إلا إقداماً حتى قتل رحمه الله تعالى.

أسد الغابة [٤/ ٦٧- ٦٩] بتصرف.

(١) رواه الطبرانى فى الكبير [١٩/١١٢، ١١٣] عن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله تعالى عنهما، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠/٦٦] وقال: رواه الطبرانى بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح.

وأخرجه مسلم [٢٥٤٣/٢٢٧]: عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إنكم ستفتحون مصر. وهى أرض يُسمَّى فيها القيراط. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها؛ فإن لهم ذمة ورحماً» أو قال: «ذمَّة وصهراً». فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها فى موضع لبنة، فاخرج منها» قال: فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان فى موضع لبنة، فخرجت منها.

وتلك أمور لا يصلح لها أى واحد من الناس.

وقد كان من الممكن أن ينصر الله دينه من أول وهلة دون تدخل من المسلمين، وكان معنى ذلك أن الناس سيتساوون فى الإيمان أولهم وآخرهم، ولكن شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعل لهذا الدين رجالاً ينصرونه بأرواحهم وأموالهم؛ لينالوا الشهادة ويرتفعوا إلى أعلى عليين مع النبيين والصديقين، والشهداء وحسن أولئك رفيقاً، لذلك جاء الأمر بالقتال متأخراً وبالتدريج.

لقد جاء الأمر بالقتال فى أول مرحلة بقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ اشتاق هو وصحابته إلى البيت الحرام، فجاءوا فى ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة طالبين العمرة. فلما وصلوا إلى «الحديبية»، وقفت أمامهم قريش وقالت: «لا يمكن أن يدخل محمَّد وأصحابه مكة» (١).

ودارت مفاوضات بين الطرفين، تم الاتفاق فيها على أن يرجع الرسول ﷺ هذا العام على أن يأتى فى العام القادم، وتُخلى لهم مكة ثلاثة أيام فى شهر ذى القعدة.

(١) عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات فى صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما صُدَّ عن البيت هو وأصحابه نحر الهدى بالحديبية. ثم صالحه المشركون على أن يرجع عامه، ثم يأتى القابل على أن يخلوا له مكة ثلاثة أيام، فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء، وصالحهم رسول الله ﷺ فلما كان العام المقبل تجهَّز رسول الله ﷺ وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفى لهم قريش بذلك، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم فى الشهر الحرام فى الحرم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ يعنى قريشاً.

أسباب النزول للواحدى [٢٩].

وكان الرسول ﷺ قد بشَّر أصحابه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام محلّقين ومقصّرين[1]، وشاع ذلك الخبر، وفرح به المسلمون وسعدوا، ثم فوجئوا بمفاوضات رسول الله ﷺ ورجوعه وهو على بُعد نحو عشرين كيلو-متراً من مكة. وحزن الصحابة حتى أن الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لأبى بكر رضى الله تعالى عنه: أليس برسول ؟! ألسنا بالمسلمين؟! فرد عليه أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قائلاً: يا عمر، إنه لرسول الله فاستمسك بغرزه[2].

وقد أظهرت هذه الواقعة موقفاً لأم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها، وهو موقف يعبر عن الحنان والرحمة والمشورة اللينة الهينة ورجحان العقل. فحينما دخل عليها رسول الله ﷺ ذكر لها أن المسلمين لم يستمعوا لأمره لهم بأن ينحروا ويحلقوا.

فانظر إلى مهمة الزوجة عندما يعود إليها زوجها مهموماً، هنا تتجلى

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

(٢) قال ابن هشام: فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتى أبا بكر رضى الله عنه فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله ﷺ؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه؛ فإنى أشهد أنه رسول الله ﷺ. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ قال: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى» قال: فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ، مخافة كلامى الذى تكلمت به حين رجوت أن يكون خيراً.

السيرة النبوية: [٣/ ٣١٩]

وظيفتها فى السكن، قالت أم سلمة: اخرج ثم لا تكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلق شعرك، فإن رأوك فعلت، علموا أن ذلك عزيمة وسيتبعونك[1].

(١) عن المِسْوَر بن مَخْرَمَة ومروان- يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه- قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبى ﷺ «إن خالد ابن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين»[1]. فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش[2]، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبى ﷺ حتى إذا كان بالثَّنِيَّة التى يُهْبَطُ عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ. فألحَّت[3]. فقالوا خلأت القصواء[4]. فقال النبى ﷺ «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألوننى خُطَّة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت. قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء[5]. يتبرضه الناس تبرُّضاً[6] فلم يلبّثه الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فو الله ما زال يجيش[7] بالرِّىِّ حتى صدروا عنه. فبينما هم كذلك، إذ جاء بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة وكانوا عَيْبَة نصح[8] رسول الله ﷺ من أهل تُهامة -فقال: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العُوذ المطافيل[9]، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت. فقال رسول الله ﷺ «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن =

(١) الغميم: موضع بالحجاز. لسان العرب: [١٢/ ٤٤٤]

(٢) القترة: الغبار. مختار الصحاح: [٢٦٩]

(٣) ألحت الناقة وألحَّ الجمل: إذا لزما مكانهما فلم يبرحا. لسان العرب: [٢/ ٥٧٧]

(٤) القصواء: اسم ناقة رسول الله ﷺ

(٥) الثَّمد- بسكون الميم وفتحها-: الماء القليل الذى لا مادة له. مختار الصحاح [٥٣]

(٦) يتبرضه الناس تَبرُّضاً أى: يأخذونه قليلاً قليلاً. لسان العرب: [٧/ ١١٧]

(٧) جاش الماء: تدفق وجرى. المعجم الوسيط: [١/ ١٥٠]

(٨) عَيْبَة الرجل: موضع سره. لسان العرب: [١/ ٦٣٤]

(٩) «ومعهم العُوذ المطافيل»: يريد النساء والصبيان. لسان العرب: [٣/ ٥٠٠]

= قريشاً قد نهكتهم الحرب (١) وأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويُخَلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمُّوا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي (٢)، ولَيُنفذن الله أمره». فقال بُديل: سأبلغهم ما تقول. قال فانطلق حتى أتى قريشاً قال: إنا جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا. فحدثهم بما قال النبي ﷺ. فقام عروة ابن مسعود فقال: أيْ قوم، ألستم بالوالد (٣)؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عُكاظ (٤)، فلما بَلَّحوا (٥) عليَّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خُطة رشد ، اقبلوها ودعوني آته. قالوا: آته. فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل. فقال: عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بَظْر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المِغْفَر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ، ضرب يده بنعل السيف وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة قد صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم. فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل =

(١) أي: جهدتهم وغلبتهم. المعجم الوسيط: [٢/٩٥٩].

(٢) السالفة: ناحية مُقَدَّم العنق من لدن مُعلَّق القرط إلى قَلْت التَّرْقوة. مختار الصحاح: [١٦٥]

(٣) أراد بقوله: «ألستم بالوالد» أنكم حيٌّ قد ولدوني في الجملة؛ لكون أمي منكم.

(٤) أي دعوتهم إلى نصركم.

(٥) البالح: الممتنع الغالب. لسان العرب: [١/٤١٤].

= وأما المال فلست منه في شيء». ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه. قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مليكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً، والله إن يتنخم نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له. وإنه قد عرض عليكم خُطة رشد فاقبلوها. فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له»، فبعثت له، واستقبله الناس يُلَبُّون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلِّدت وأُشْعِرَتْ فما أرى أن يصدوا عن البيت فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته. فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا مكرز، وهو رجل فاجر». فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل ابن عمرو . قال معمر : فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «لقد سهل لكم من أمركم». قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً. فدعا النبيُّ ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل : أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هي ، ولكن اكتب : «باسمك اللهم» ، كما كنت تكتب. فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا « بسم الله الرحمن الرحيم ». فقال النبي ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله».

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله فقال النبي ﷺ « والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله - قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» - فقال له النبي ﷺ «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا =

٥

ضُغطة(1)، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل -وإن كان على دينك- إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُف في قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد، أول من أقاضيك عليه أن ترده إلىّ.

فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد». قال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً. قال النبي ﷺ: «فأجزه لي» (2)، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل . قال مكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذاباً شديداً في الله، قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري». قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟»! قال: قلت: لا. قال: «فإنك آتيه ومُطَوِّف به». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنيَّة في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَوِّف به. قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنَه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً.

الحديث بطوله أخرجه البخاري [٢٧٣١، ٢٧٣٢].

(1) أي: قهراً.

(2) أي: امض لي فعلي فيه، فلا أرده إليك، أو استثنه من القضية.

وأخذ رسول الله ﷺ بنصيحة أم سلمة، وصنع ما أمره به الله، وتبعه كل المسلمين، وانتهت المسألة. وقبل أن يرجعوا للمدينة لم يشأ الله أن يطيل على الذين انتقدوا الموقف حتى لا يظل الشرخ في نفوس المؤمنين، وتلك عملية نفسية شاقة؛ لذلك لم يطل الله عليهم السبب، وجاء بالعلة قائلاً لهم: لا تحزنوا وقد رجعتم إلى المدينة دون أن تدخلوا مكة على الرغم من أنه كان بينكم وبينها مسافة قصيرة، وكنتم قد هيأتم أنفسكم للطواف والصلاة في بيت الله الحرام؛ فإن لكم إخواناً مؤمنين في مكة وقد أخفوا إيمانهم وهم مندسون بين الكفار، فلو أنكم دخلتم، وقاتلوكم، ستقاتلون الجميع مؤمنين وكافرين، فتقتلون إخواناً لكم، فلو كان هؤلاء الإخوان المؤمنون متميزين في جانب من مكة؛ لأذنت لكم بقتال المشركين؛ كما تريدون. وذلك قول الله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح:٢٥].

بعد نزول الآية عرف المسلمون أن الامتناع كان لعلة وحكمة، فلما جاءوا في العام التالي قال الله تعالى لهم : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة:١٩٤].

وكأن الحق يطمئنهم، فالذين صدوكم في ذي القعدة من ذلك العام ستقابلونهم وستدخلون في ذي القعدة من العام القادم. وخاف المسلمون إن جاءوا في العام المقبل أن تنقض قريش العهد وتقاتلهم، فنزل قول الحق تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠] .

وعندما نتأمل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإننا نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يضع حداً لجبروت البشر، فلابد أن تكون نيَّة

القتال ﴿في سبيل الله﴾ لا أن يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان. فلا قتال من أجل الجاه، أو المال أو لضمان سوق اقتصادى، أو لاستغلال ثروات واحتلال أراضٍ كما يحدث في الحروب الاستعمارية وإنما في الإسلام القتال لإعلاء كلمة الله تعالى؛ ونصرة دينه سبحانه؛ وضمان حرية اختيار الناس لعقيدتهم هذا هو الغرض من القتال في الإسلام (١).

وقوله : ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ : الحق سبحانه ينهى عن الاعتداء، أى لا يقاتل المسلم من لم يقاتله، ولا يعتدى على من لم يعتد عليه. وهبْ أن قريشاً هى التى قاتلت، ولكن أناساً كالنساء والصبيان والعجزة لم يقاتلوا المسلمين مع أنهم فى جانب من قاتل؛ هؤلاء نهى الله تعالى عن قتالهم (٢).

(١) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ، رجل استشهد . فأُتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يُقال جرىء. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار...» الحديث.

جزء من حديث أخرجه مسلم [١٩٠٥/ ١٥٢].

(٢) عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : « وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان».

أخرجه البخارى [٣٠١٥]، ومسلم [١٧٤٤/ ٢٥].

وعن أسامة بن زيد. قال: بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية فصبحنا الحرقات من جهينة. فأدركت رجلاً. فقال: لا إله إلا الله. فطعنته فوقع فى نفسى من ذلك. فذكرته للنبى ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «أقال: لا إله إلا الله وقتلته؟» قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح. قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟». فما زال يكررها علىَّ حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ. قال: فقال سعد: وأنا والله لا أقتل مسلماً حتى يقتله ذو البطين يعنى أسامة. قال: قال رجل: ألم يقل الله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ فقال سعد: قد قاتلنا حتى لا تكون فتنة. وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة.

أخرجه مسلم [٩٦/ ١٥٨]. =

= عن صفوان بن محرز أنه حدث؛ أن جندب بن عبد الله البجلى بعث إلى عسعس بن سلامة، زمن فتنة ابن الزبير، فقال: اجمع لى نفراً من إخوانك حتى أحدثهم. فبعث رسولاً إليهم. فلما اجتمعوا جاء جندب وعليه بُرنُس أصفر. فقال: تحدثوا بما كنتم تحدثون به. حتى دار الحديث فلما دار الحديث إليه حسر البرنس عن رأسه. فقال: إنى أتيتكم ولا أريد أن أخبركم عن نبيكم. إن رسول الله ﷺ بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين، وإنهم التقوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، وإن رجلاً من المسلمين قصد غفلته.

قال: وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله، فقتله، فجاء البشير إلى النبى ﷺ. فسأله فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع فدعاه، فسأله فقال: «لمَ قتلته؟» قال: يا رسول الله، أوجع فى المسلمين وقتل فلاناً وفلاناً، وسمى له نفراً، وإنى حملت عليه فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ : «أقتلته؟» قال: نعم، قال: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله - استغفر لى قال: «وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: فجعل لا يزيده على أن يقول: كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟». أخرجه مسلم [٩٧/ ١٦٠].

وقال القرطبى فى قتل النساء والصبيان ومن شابههم: وللعلماء فيهم صور ست:

الأولى: النساء: إن قاتلن قُتلن؛ قال سحنون: فى حالة المقاتلة وبعدها، لعموم قوله: ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ ، ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ وللمرأة آثار عظيمة فى القتال، منها الإمداد بالأموال، ومنها التحريض على القتال، وقد يخرجن ناشرات شعورهن نادبات مثيرات معيرات بالفرار، وذلك يبيح قتلهن؛ غير أنهن إذا حصلن فى الأسر فالاسترقاق أنفع ؛ لسرعة إسلامهن ورجوعهن عن أديانهن، وتعذر فرارهن إلى أوطانهن بخلاف الرجال.

الثانية: الصبيان : فلا يقتلون للنهى الثابت عن قتل الذرية، ولأنه لا تكليف عليهم، فإن قاتل الصبى قُتل.

الثالثة: الرهبان : لا يقتلون ولا يُسترقُون، بل يترك لهم ما يعيشون به من أموالهم، وهذا إذا انفردوا عن أهل الكفر، لقول أبى بكر ليزيد: «وستجد أقواماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له» (١) فإن كانوا مع =

(١) روى مالك فى الموطأ، كتاب الجهاد [٢١]، باب: النهى عن قتل النساء والولدان فى الغزو [٣] عن =

= الكفار في الكنائس قتلوا. ولو ترهبت المرأة فروى أشهب أنها لا تهاج (١).
وقال سحنون: لا يغيِّر الترهب حكمها. قال القاضي أبو بكر بن العربي: والصحيح عندي رواية أشهب؛ لأنها داخلة تحت قوله: «فذرهم وما حبسوا أنفسهم له».
الرابعة: الزَّمْنَى : قال سحنون: يقتلون. وقال ابن حبيب : لا يُقتلون . والصحيح أن تُعتبر أحوالهم؛ فإن كانت فيهم إذاية قُتلوا، وإلا تُركوا وما هم بسبيله من الزمانة وصاروا مالاً على حالهم وحشوة.
الخامسة: الشيوخ : قال مالك في كتاب محمد: لا يُقتلون، والذي عليه جمهور الفقهاء: إن كان شيخاً كبيراً هَرِماً لا يطيق القتال ، ولا ينتفع به في رأي ولا مدافعة فإنه لا يقتل؛ وبه قال مالك وأبو حنيفة. وللشافعي قولان:
أحدهما: مثل قول الجماعة.
والثاني: يُقتل هو والراهب. والصحيح الأول ، لقول أبي بكر ليزيد، ولا مخالف له فثبت أنه إجماع . وأيضاً فإنه ممن لا يُقاتل ولا يعين العدو فلا يجوز قتله كالمرأة ، وأما إن كان ممن تخشى مضرته بالحرب أو الرأي أو المال ، فهذا إذا أُسرَ يكون الإمام فيه مخيراً بين خمسة أشياء : القتل ، أو المن ، أو الفداء، أو الاسترقاق، أو عقد الذمة على أداء الجزية.
السادسة: العسفاء: وهم الأجراء والفلاحون؛ فقال مالك في كتاب محمد: لا يُقتلون.
وقال الشافعي: يقتل الفلاحون والأجراء والشيوخ الكبار إلا أن يسلموا أو يؤدوا الجزية. والأول أصح، لقوله عليه السلام في حديث رباح بن الربيع: «الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفاً»(٢). =

= يحيى بن سعيد أن أبا بكر الصديق بعث جيوشاً إلى الشام، فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان - وكان أمير رُبع من تلك الأرباع- فزعموا أن يزيد قال لأبي بكر: إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال أبو بكر: ما أنت بنازل وما أنا براكب، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله ، ثم قال له: «إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له»، إلى أن قال: «وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيًا، ولا كبيراً هرماً..» إلخ.
(١) لا تهاج: أي لا تزعج ولا تنفر.
(٢) روى أبو داود [٢٦٦٩] عن رباح بن ربيع، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلاً فقال: «انظر علامَ اجتمع هؤلاء» فجاء فقال: على امرأة قتيل، =

= وقال عمر بن الخطاب: اتقوا الله في الذرية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب، وكان عمر بن عبد العزيز لا يقتل حراثاً؛ ذكره ابن المنذر.
تفسير القرطبي: [٣٤٨/٢، ٣٤٩].
وقال الشيباني: ما يحل للمسلمين أن يفعلوه بالعدو وما لا يحل :
لا بأس بتحريق حصونهم وتغريقها ما داموا ممتنعين فيها، سواء كان فيها قوم من المسلمين أسراء أو مستأمنين أو لم يكونوا، والأولى لهم إذا كانوا يتمكنون من الظفر بهم بوجه آخر ألا يُقدموا على التغريق والتحريق؛ لأن في ذلك إتلاف من فيها من المسلمين إن كانوا وإن لم يكونوا، ففي ذلك إتلاف أطفالهم ونسائهم، وذلك حرام شرعاً، فلا يجوز المصير إليه إلا عند تحقيق الضرورة، والضرورة فيه ألا يكون لهم طريق آخر يتمكنون من الظفر بهم بذلك الطريق، أو يلحقهم في الطريق الآخر حرج عظيم ومئونة شديدة، فحينئذ لدفع هذه المئونة يباح لهم التحريق، ومن ضرورة ثبوت الإباحة مطلقًا مع العلم بالحال ألا يلزمهم ديَة ولا كفارة؛ لأن وجوب ذلك باعتبار قتلٍ محظور، وهذا قتال مأمور به فلا يكون موجباً ديَة ولا كفارة.
والسفينة في ذلك كله بمنزلة الحصن في جميع ما ذكرنا، وكذلك إن تَتَرَّسُوا بأطفال المسلمين أو منهم، وفي الوجوه كلها ينبغي لهم أن يقصدوا بفعلهم المشركين من المقاتلين دون غيرهم. لأنهم لو قدروا على التحرز عن إصابة الأطفال فعلاً، كان عليهم التحرز عن ذلك، فإذا عجزوا عن ذلك وقدروا على التحرز قصداً، كان عليهم ذلك، عملاً بقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].
فإن اختلف الرامي وولي المقتول بالرمية من المسلمين، فقال الولي : أقصدته بعد ما علمت أنه مكره من جهتهم في الوقوف في الصف ، وقال الرامي: إنما تعمدت المشركين بالرمي، فالقول فيه قول الرامي مع يمينه؛ لأن الرمي إلى صف المشركين مباح له، وذلك غير موجب الضمان عليه باعتبار الأصل، فيجب التمسك بذلك الأصل حتى يقوم الدليل بخلافه.
ثم الولي يدعي على الرامي سبب وجوب الضمان، وهو تعمده إياه بالرمي مع العلم بالحال ، وهو منكر ، فكان القول قول المنكر مع يمينه . ولأن الظاهر شاهد للرامي،=

= فقال: «ما كانت هذه لتقاتل» قال: وعلى المقدمة خالد بن الوليد، فبعث رجلاً فقال: «قل لخالد: لا يقتلن امرأة ولا عسيفاً» . وقال الألباني في صحيح أبي داود [٢٣٢٤]: حسن صحيح.

= والمسلم لا يتعمد الرمى إلى المسلم.

ومطلق فعل المسلم محمول على ما يحل شرعاً؛ لأن دينه وعقله يحمله على ذلك، ويمنعه عن ارتكاب ما لا يحل؛ فلهذا جعلنا القول قول الرامى فى ذلك. إلا أنه يحلفه ؛ لأن الولى يدعى عليه ما لو أقر به ألزمه ، فإذا أنكر استُحلف لرجاء نكوله.

فإذا سبى المسلمون المرأة مع ولدها الصغير فلم يقدروا على حملها ، فقد بينا أنه لا يحل لهم أن يقتلوهما؛ لأن قتل النساء والولدان حرام بالنص. ولكن يتركونهما فى مضيعة؛ لأن فى تركهما فى مضيعة امتناع من الإحسان إليهما بالنقل إلى موضع الأمن، والامتناع من الإحسان لا يكون إساءة.

وإذا كان معهما أب الصبى فلا بأس بأن يقتلوه ؛ لأنه أسير مباح الدم.

ولو امتنع قتله ؛ لما فيه من ضياعهما لامتنع قتال المشركين أصلاً؛ لأنه لا يقتل أحد منهم فى الحرب إلا وفيه توهم ضياع عياله.

فإن قدروا على أن يحملوا المرأة دون الصبى، وعلموا أن الصبى يموت إذا فرقوا بينهما، أو كان ذلك أكبر ظنهم، فلا بأس بأن يفعلوا ذلك؛ لأنهم لو تركوهما كان فيه ضياع الصبى أيضاً. ولأن تضييع أحدهما دون الآخر فهو خير من تضييعهما، ولأنهم يحملون المرأة دون الصبى يقصدون منفعة أنفسهم فى استرقاقها ، وذلك حق مستحق للمسلمين.

ولا بأس بالتفريق بين الوالدة وولدها بسبب حق مستحق، إلا أنه ينبغى لهم ألا يرموا بالصبى عن خيولهم رمياً، ولكن يضعونه على الأرض وضعاً . لأنهم إذا رموا به كان هالكًا بفعلهم، وذلك بمنزلة القتل منهم له، وإذا وضعوه لم يكونوا قاتلين له.

ألا ترى أن من وجد لقيطًا فرفعه ثم وضعه فى مكانه لم يكن عليه فى ذلك شىء، ولو رُمى فتلف كان ضامنًا بدل نفسه، فبهذا تبين الفرق بين الوضع والترك فى موضع يعلم أنه يهلك فيه.

وكذلك إن كانوا يقدرون على حمل الصبى ولا يقدرون على حمل أمه، فلا بأس بأن يحملوه ويتركوها، إذا كانوا يطمعون فى إخراجه صحيحًا، بأن كانوا يقدرون على غذاء يغذونه به إذا فرقوا بينه وبين أمه، فإن كانوا لا يقدرون على ذلك ، ولكنهم يتيقنون بأنه يموت فى أيديهم إذا حملوه دون أمه ، فالأولى أن يتركوه مع أمه ؛ لأن هذا تفريق غير مفيد، ولأنهم إذا تركوه مع أمه لا يكون هلاك الولد مضافًا إلى فعلهم=

= تسبيبًا ولا مباشرة ، وإذا حملوه دون أمه كان هلاك الولد مضافًا إلى فعلهم تسبيبًا من حيث التفريق بينه وبين ما يتغذى به من لبن أمه.

وإن كانوا يقدرون على حمل أحدهما أيهما شاءوا، فينبغى أن يحملوا ما يكون منفعتهم فيه أكثر؛ لأن باعتبار المنفعة يباح أصل الحمل فى أحدهما دون الآخر، فبزيادة المعنى فى المنفعة يقع الترجيح أيضاً.

وإن كانت المنفعة واحدة ، فإن لم يطمعوا فى أن يعيش الصبى إذا فصل من أمه، فينبغى أن يحملوا الأم دون الصبى؛ لأنه لا منفعة فى حمل الصبى الآن.

وإن كانوا طمعوا أن يعيش الصبى معهم بما يغذونه به ، فالأولى أن يُحمل الصبى ويتركوا الأم؛ لأن خوف الضياع والعجز عن الإحسان لنفسه فى حق الصبى أظهر ولأن الأم كافرة مخاطبة، فالامتناع من الإحسان إليها عند إصرارها على الكفر يكون أولى من الامتناع من الإحسان إلى الرضيع.

وإن قدروا على حملهما فلست أحب لهم أن يتركوا واحدًا منهما؛ لما فيه من ترك إيصال المنفعة إلى المسلمين مع التمكن من ذلك، ولما فيه من التفريق بين الوالدة وولدها. وقال ﷺ : « من فرق بين والدة وولدها ، فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة» (1).

ولأنهم نقلوهما إلى هذا المكان وفى ترك أحدهما فى هذا المكان تضييع له، فلا يجوز الإقدام عليه إلا عند العجز عن حملهما.

وبه فارق ما لو وجدوهما فى هذا الموضع، فإن هناك لا بأس بأن أخذوا أحدهما أيهما شاءوا؛ لأنهم ما نقلوهما إلى هذا الموضع، ولهم أن يتركوهما فى هذا الموضع مع القدرة على حملهما، فيكون لهم أيضاً أن يتركوا أحدهما ويأخذوا الآخر؛ لأنه تفريق بحق.

وهذا إذا طمعوا أن يعيش الصبى فى أيديهم بما يغذونه به إذا أخذوه، فإذا لم يطمعوا فى ذلك فلا ينبغى لهم إلا أن يأخذوهما إن قدروا على ذلك أو يتركوهما؛ لأن فى أخذ الصبى وحده تفريق غير مفيد.

وإن لم يقدروا على أحدهما فليأخذوا الابن ؛ لأن فيه منفعة لهم . ولا بأس بأن يأخذوها وإن كان أكبر الرأى منهم أن الصبى يموت؛ لأنهم بأخذ الأم يقصدون تحصيل=

(1) رواه الترمذى [١٢٨٣، ١٥٦٦] عن أبى أيوب وحسَّنه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٠٣٢، ١٢٧١].

= النفقة لهم، وأخذها ليس بقتل منهم للصبى بعينه.
وكذلك لو وجدوا مع الصبى أباه فلا بأس بأن يقتلوه أو يأسروه، وإن كانوا يعلمون أن الصبى يموت بعده . لأن هذا ليس بتعرض منهم للصبى بشيء.
وكذلك إن كان مع الصبى والداه فلا بأس بأن يوضع الصبى ناحية ويؤخذ أبواه فيؤسران.
الا ترى أنه لا بأس بتحريق حصونهم وتغريقها ، وإن كان فيه هلاك الأطفال؛ فلأن يجوز قتل المشرك وأسره وإن كان فيه هلاك الصغير كان أولى، إلا أنه ينبغى لهم الا يرموا بالصبى ، ولكنهم يضعونه فى موضع من الأرض إن تمكنوا من ذلك.
فإن لم يتمكنوا بأن كان المشركون فى أثرهم فخافوا أن ينزلوا فيضعوه على الأرض، أن يلحقهم المشركون، فلا بأس بأن يرموا به عن خيولهم ولا يتعمدوا قتله ؛ لأن أمر أنفسهم أهم،والتحرز عن وقوعهم فى أيدى المشركين واجب عليهم بحسب الإمكان، فكأن حالهم الآن فيما ابتلوا به، كحال تَتَرُّسِ المشركين بالأطفال، وقد بينا أن هناك لا بأس بالرمى إليهم، بشرط ألا يتعمدوا قتل الصبيان، فها هنا أيضًا لا بأس برمى الصبيان عن دوابهم إذا عجزوا عن حملهم وعن وضعهم على الأرض.
فإن قَتَلَهُمْ رَمْيُهُم لهم فلا شيء عليهم من الكفارة، ولا إثم إن شاء الله تعالى؛ لأنهم فعلوا ما أمروا به، ولكنه قيد بالاستثناء ها هنا، وهذا ليس فى معنى التَّتَرُّس من كل وجه، فهناك لم يتصل منهم فعل بالأطفال قبل أن تَتَرَّس بهم المشركون، وفى هذا الموضع قد اتصل منهم فعل بالأطفال قبل أن يبتلوا برميهم، وهو حملهم ونقلهم من موضع إلى موضع ؛ فلهذا قيد الجواب بالاستثناء.
وكذلك إن كانوا فى سفينة ومعهم فيها أطفال من أطفال المشركين، فانتهوا إلى مكان من البحر أكبر الظن منه إن لم يطرحوهم فى الماء غرقت السفينة ومن فيها ، فلا بأس بأن يطرحوهم ولا يتعمدوا بذلك قتلهم؛ لأنه تعين عليهم هذا الوجه لنجاتهم مما ابتلوا به، فكانوا فى سعة من الإقدام عليه.
ولو كان معهم أطفال المسلمين فى الفصلين، والمسألة بحالها، فليس ينبغى لهم أن يطرحوهم ولا أن يرموا بهم ؛ لأن حرمة أطفال المسلمين كحرمة الكبار منهم.
وقد بينا أن المسلم لا يحل له أن يقى روحه بروح من هو مثله فى الحرمة ، كما لو أكره بوعيد القتل على أن يقتل مسلمًا. ولأنهم يتعجلون فى هذا قتل المسلمين =

= والمسلمات، ولا رخصة فى ذلك لمن يخاف الهلاك على نفسه.
الا ترى أنه لو ابتلى بمخمصة لم يحل له أن يتناول أحدًا من أطفال المسلمين ؛ لدفع الهلاك عن نفسه.
ولو كان معهم فى سفينة قوم من أهل الذمة أو من أهل الحرب مستأمنين، فهم فى ذلك كالمسلمين لا يسعهم أن يطرحوهم فى الماء وإن خافوا على أنفسهم؛ لأنهم آمنون فيهم بسبب الذمة أو الأمان، فكانوا كالآمنين بسبب الإيمان.
وحقيقة المعنى: فى الفرق بين هؤلاء وبين أطفال أهل الحرب أنهم منعوا من قتل هؤلاء؛ لوجود عاصم منهم.
الا ترى أنهم لا يسترقونهم كما لا يقتلونهم، وفى حق الأطفال المنع من القتل ليس بعاصم فيه، بل لانعدام العلة الموجبة للقتل وهى المحاربة، ولهذا جاز استرقاقهم، مع أن فى الاسترقاق إتلافًا من طريق الحكم، فلضعف حالهم قلنا: عند تحقق الضرورة يرخص له فى أن يجعلهم وقاية لنفسه.
وعلى هذا لو هدد ملكُهم أسيرًا من المسلمين بأن يقتل صبيًا منهم أو امرأة وقال: إن لم تقتله قتلناك، كان فى سعة من أن يقتله.
وفى سعة من أن يمتنع منه حتى يقتل فى دار الحرب، ولا يثبت من ذلك من الترخص له إذا أكره على قتل مسلم أو ذمى.
ولو أن جريدة خيل من المسلمين أصابوا فى دار الحرب أطفالاً من أطفال المسلمين فحملوهم على خيولهم، ثم لحقهم العدو فإنه لا يسعهم أن يرموا بالأطفال، ولكن إما أن يموتوا عن آخرهم أو ينقلبوا هم والأطفال للمساواة بينهم فى الحرمة والعصمة، وهذه المساواة إنما تتحقق بعد ما أخذوهم والتزموا حملهم إلى دار الإسلام، وإن كانوا لم يأخذوهم بعد وخافوا إن يأخذوهم أن يعجزوا عن حملهم وأن يدركهم المشركون، فلا بأس بأن يتركوهم؛ لأن فى هذا منهم ترك الإحسان إلى الأطفال لا الإساءة إليهم.
ولأنهم يمتنعون من التزام ما لايقدرون على الوفاء به إذا التزموه، فإن قاتلوا عنهم حتى يقتلوا أو يظفروا بالعدو فيخرجوهم فذلك أفضل؛ لأن الدفع عن أطفال المسلمين عزيمة، وترك ذلك عند الضرورة رخصة، والتمسك بالعزيمة خير من الترخص بالرخصة.
وإن كان أكبر الرأى منهم أنهم يقوون على المشركين حتى يأخذوا منهم الأطفال ؛ لم =

= يسعهم تركهم؛ لأن الدفع عن أطفال المسلمين بحسب الإمكان هو العزيمة، وعند النفير العام يفرض الخروج للقتال على كل من يقدر عليه عينًا للدفع عن أطفال المسلمين، فكذلك فى هذا الموضع.

والحاصل أنهم إذا كانوا يطمعون فى أن ينجوا مع أطفال المسلمين إذا قاتلوا، لم يسعهم إلا ذلك، وإن كانوا لا يطمعون فى ذلك فحينئذ يرخص لهم فى البداية بأنفسهم فى اكتساب سبب النجاة، عملاً بظاهر قوله ﷺ : «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» (١). وعلى هذا لو ابتلوا بهذه الحادثة فى أطفال من المشركين حملوهم بدون الآباء والأمهات حتى أخرجوهم إلى دار الاسلام ثم ادركهم المشركون؛ لان هؤلاء الأطفال صاروا مسلمين باعتبار دار الإسلام، حين لم يكن معهم فيها أحد من آبائهم وأمهاتهم.

الا ترى أن من مات منهم يُصلى عليه فكانوا بمنزلة أطفال المسلمين فى ذلك.

ولو كان أكبر الرأى من المسلمين أنهم إن رموا بهم لم يهلكوا، ولكن المشركين يأخذونهم فيردونهم إلى بلادهم، فلا بأس بأن يطرحوهم، إذا لم يكن بهم قوة على أولئك المشركين؛ لأنه ليس فى هذا هلاك ولا قتل للأطفال، وإنما الممنوع منه أن يجعل روح مَن هو مثله فى الحرمة وقاية لروحه.

وكذلك لو كان معهم أطفال المسلمين ، أو نساءٌ مسلمات، فخافوا إن لم يطرحوهم أن يلحقهم المشركون فيقتلوهم ، ولم يكن لهم قوة على المشركين ، فلا بأس بأن يطرحوهم إذا علموا أن المشركين يأخذونهم ولا يقتلونهم؛ لأنه ليس فى هذا قتل ولا هلاك. ألا ترى أنهم لو حاصروا حصناً من حصون المسلمين، فيه النساء والأطفال، ولم يكن للمسلمين قوة على قتال أهل الحرب، كانوا فى سعة من أن يخلوا بينهم وبين الحصن؛ لأنه ليس فى فعلهم إتلاف النساء والأطفال من المسلمين.

وإن كانوا يقدرون على قتالهم، أو كان أكبر الرأى على أنهم يتصفون منهم، فليس يسعهم أن يدعوهم؛ لأن أكبر الرأى فيما لا يمكن الوقوف على حقيقته كاليقين، والدفع عن ذرارى المسلمين فرض عين على كل مسلم عند التمكن منه.

ولو كانوا فى سفينة فخافوا إن لم يرموا بالنساء والصبيان فى الماء أن يأخذ المشركون =

(١) أخرج مسلم [١٠٣٤/ ٩٥] عن حكيم بن حزام رضى الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصدقة عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول».

وقوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

التثقيف عند العرب هو تقويم الغصن، فقد كان العرب يأخذون أغصان الشجر ليجعلوها رماحاً وعصيًا، والغصن قد يكون معوجًا أو به نتوء، فكان العربى يثقفه، أى يزيل زوائده ويقوم اعوجاجه بالثقاف، وهو: قطعة من الحديد المعقوف؛ يقوم بها المعوج من الأغصان كما يفعل عامل التسليح بحديد البناء.

كأن المثقف هو الذى يعدل من شيء معوج فى الكون؛ فهو يعرف هذه وتلك وأصبح ذا تقويم سليم. وهكذا نجد أن معانى اللغة وألفاظها مشتقة من المحسوسات التى أمامنا.

= من فى السفينة ، لم يحل لهم أن يرموا بهم فى الماء؛ لأن أكبر الرأى فى الماء أنه مهلك، فكان فى هذا إتلاف الذرارى، ولا رخصة للمسلمين فى ذلك لتحصيل النجاة لانفسهم، بخلاف الأول. فالرمى بهم عن الخيول هناك غير متلف لهم غالبًا، حتى أن فى السفينة إذا كان أكبر الرأى منهم عند الرمى بالنساء والصبيان أنهم لا يهلكون، ولكن يأخذهم المشركون فلا بأس بأن يفعلوا ذلك، إذا كان أكبر الرأى منهم أن يهلكوا جميعًا إن لم يفعلوا ذلك.

ولو أخذت السرية أطفالاً من المشركين فى دار الحرب ، فعجزوا عن حملهم ومروا بحصن من حصونهم فسألوهم أن يدفعوهم إليهم حتى يقوموا بتربيتهم فليس على المسلمين ذلك، ولكنهم يضعونهم وضعًا ، فإن شاء أولئك نزلوا فأخذوهم ، وإن شاءوا تركوهم؛ لان الدفع إليهم للتربية من باب الإحسان، وقد بينا أن ذلك ليس بواجب على المسلمين فى أطفال المشركين، إنما عليه الامتناع من الإساءة، ووضعهم إياهم على الأرض ليس من الإساءة فى شيء ، فلهذا كان الرأى إليهم إن شاءوا وضعوهم على الأرض ، وإن شاءوا أسلموهم إليهم.

السير الكبير: [٤/ ١٥٥٤-١٥٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أى: وجدتموهم؛ ثقف الشىء: أى وجده.

والحق سبحانه تعالى يقول: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] أى: إن وجدتهم فى أى حرب، فشرد بهم من خلفهم. أى: اجعلهم أداة لتشريد من خلفهم. وعليك أن تؤدبهم أدباً يجعل الذين وراءهم يخافون منكم ويبتعدون عنكم، وكلما رأوكم أصابهم الخوف والهلع.

وقوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أى: لا تقولوا: إنهم أخرجوكم من هنا، وإنما أخرجوهم من حيث أخرجوكم، أى من أى مكان أنتم فيه، وعند ذلك لن تكونوا معتدين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ يذكرنا بقاعدة مشابهة فى آية أخرى وهى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ وعندما نتأمل قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] قد يرد هذا الخاطر: هل إذا أخذت حقى ممن أساء إلىّ، بعمل يماثل العمل الذى فعله معى، هل يقال: إننى فعلت سيئة؟

وحتى نفهم المسألة نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يذكر بعض الآيات بلفظ «المشاكلة» وهى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، ومثل ذلك قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ إن الله لا يمكر، وإنما اللفظ جاء للمشاكلة، أو أن اللفظ الكريم قد جاء فى استيفاء حقك بكلمة: ﴿سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ لينبهك إلى أن استيفاء حقك بمثل ماصنع بك يعتبر سيئة، إذا ما وازناه بالصفح والعفو عن المسيئ يلفتنا إلى ذلك سبحانه فى نهاية الآية بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وبمثل ذلك كان ختام الآية السابقة: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ .

وقول الحق تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ ، وأصل الفتنة مأخوذ

من عرض الذهب على النار، فصائغ الذهب يأخذ قطعة الذهب فيضعها فى النار فتنصهر، فإذا ما كان يخالطها معدن غريب عن الذهب فإنه يخرج ويبقى الذهب خالصاً ـ ثم صارت الفتنة تستعمل للابتلاء والاختبار، وقد فعل المشركون ما هو أسوأ من القتل، فقد حاولوا من قبل أن يفتنوا المؤمنين فى دينهم بالتعذيب تارة، والتجويع تارة أخرى، فخرج المؤمنون فارّين بدينهم.

والحق سبحانه أمر المسلمين فى قتالهم مع عدوهم أن يراعوا حرمة البيت الحرام، فلا ينتهكوها بالقتال إلا إذا قاتلهم أهل الشرك.

وهكذا نجد أن أول أمر بالقتال إنما جاء لصد العدوان، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يحرم خصوم الإسلام من الاحتيال على المسلمين؛ فهم يعلمون أن المؤمنين سيحترمون الأشهر الحرم ، ويحترمون المكان الحرام ، ويحترمون الإحرام فلا يقاتلون؛ وربما أغرى ذلك خصوم الإسلام أن يقاتلوا المسلمين فى الأشهر الحرم، ويظنوا أن المسلمين قد يتهيبون أن يقاتلوهم، فشرع الحق سبحانه وتعالى ما يناسب مثل هذا الأمر؛ فأذن لهم فى القتال؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

إذن .. الحق سبحانه وتعالى يبين لنا الحكمة من ذلك بأنه وإن كان القتال فى الشهر الحرام وفى المكان الحرام وفى حال الإحرام شيئًا منهيًا عنه ؛ احتراماً للمكان والزمان، فالفتنة فى دين الله أشد من القتل؛ لأن الفتنة إنما جاءت لتفسد على الناس دينهم، وقد حاول المشركون إجبار المسلمين الأوائل بالتعذيب والتجويع، الذى يصل إلى درجة القتل أحيانًا؛ حتى يرتدوا عن الدين، وكان ذلك أشد من القتال لأنها فتنة فى الدين.

إن الله سبحانه هو الذى شرع حرمة الشهر الحرام فكيف يُفتن المؤمنون

عن دين الله ، ويُحملون على الشرك به سبحانه وتعالى، ثم تقولون بعد ذلك: إننا فى الشهر الحرام؟ إن الشهر الحرام لم يكن حراماً إلا لأن الله هو الذى حرمه، فالفتنة فى دين الله أشد من أن نقاتل فى الشهر الحرام؛ ولذلك فلا داعى أن يتحرج أحد من القتال فى الشهر الحرام عندما يُقاتَلُ فيه.

وبعد ذلك هل يظل القتال دفاعاً كما يريد خصوم الإسلام أن يجعلوه دفاعاً عمّن آمن فقط؟ أو كما يريد الذين يحاولون أن يشيعوا عن الإسلام أنه دين قتال ويقولون: لا، الإسلام إنما جاء بقتال الدفاع فقط.

نقول لهؤلاء: قتال الدفاع عمّن؟ هل دفاع عمّن آمن فقط؟ أم عن مطلق إنسان نريد أن ندفع عنه ما يؤثر فى اختياره لدينه؟

هو دفاع أيضاً، وسنسميه دفاعاً، ولكنه دفاع عمّن آمن، ندفع عنه من يعتدى عليه، وأيضاً عمّن لم يؤمن ندفع عنه من يؤثر عليه فى اختيار دينه لنحمى له اختياره، لا لنحمله على الدين، ولكن لنجعله حرًا فى الاختيار؛ فالقُوَى التى تقف عثرة بين الناس وبين حرية الاختيار يجب إزاحتها من طريق الناس، ثم نعرِّف الناس بالدين ، بعدها من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، شريطة ألا يقف فى وجه الدعوة، وأن يخلى بين الناس وبين اختيارهم، فإن أبى وحارب الدعوة ولم يخلِ بين الناس وبين حريتهم، يكون قد اعتدى على حرية اختيار الآخرين، وصدَّ عن الدين الجديد ولم يخلِ بينه وبين الناس؛ لذا يجب إزاحته من طريق الدعوة ومن طريق الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾: لأنه أحرى وأجدر بكم أن تحترموا تحريم الله للمسجد الحرام، لكن إذا هُم اجترءوا على القتال فى المسجد الحرام ، فقد أباح الله سبحانه لكم أيها المسلمون أن تقاتلوهم عند المسجد الحرام ماداموا قد قاتلوكم فيه.

قال تعالى: ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انتَهَوْا

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) . ما أسمى هذا الدين. إننا لا نؤاخذهم إن انتهوا إلى الإيمان - بما قدمت أيديهم من الاجتراء على أهل الإيمان- ما داموا قد آمنوا، ولذلك نرى عمر بن الخطاب وقد مرَّ على قاتل أخيه زيد ابن الخطاب: فأشار رجل عليه وقال: هذا قاتل زيد. فقال عمر: وماذا أصنع به وقد أسلم؟ لقد عصم الإسلام دمه.

(١) قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ . هذا أمر بقتل من يعثر عليهم منهم ، وإن لم يكن فى ساحة القتال، فإنه بعد أن أمرهم بقتال من يقاتلهم عمم المواقع والبقاع؛ زيادة فى أحوال القتل وتصريحاً بتعميم الأماكن، فإن أهمية هذا الغرض تبعث على عدم الاكتفاء باقتضاء عموم الأشخاص تعميم الأمكنة؛ ليكون المسلمون مأذونين بذلك؛ فكل مكان يحل فيه العدو فهو موضع قتال. فالمعنى: واقتلوهم حيث ثقفتموهم إن قاتلوكم.

وعُطفت الجملة على التى قبلها، وإن كانت هى مكملة لها باعتبار أن ما تضمنته قتل خاص غير قتال الوغى، فحصلت المغايرة المقتضية العطف؛ ولذلك قال هنا: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ﴾ ولم يقل: «وقاتلوهم» مثل الآية قبلها تنبيهاً على قتل المحارب، ولو كان وقت العثور عليه غير مباشر للقتال، وأنه من خرج محارباً فهو قاتل وإن لم يقتل.

و ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ بمعنى لقيتموهم لقاء حرب وفعله كفرح ، وفسره فى الكشاف بأنه وجود على حالة قهر وغلبة.

وقوله: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أى: يحل لكم حينئذ أن تخرجوهم من مكة التى أخرجوكم منها ، وفى هذا تهديد للمشركين ووعد بفتح مكة ، فيكون هذا اللقاء لهذه البُشرى فى نفوس المؤمنين ؛ ليسعوا إليه حتى يدركوه وقد أدركوه بعد سنتين، وفيه وعد من الله تعالى لهم بالنصر؛ كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧] الآية.

وقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ تذييل «وال» فيه للجنس تدل على الاستغراق فى المقام الخطابى، وهو حجة للمسلمين ونفى للتبعة عنهم فى القتال بمكة إن اضطروا إليه. والفتنة إلقاء الخوف واختلال نظام العيش ؛ إشارة إلى مالقيه المؤمنون فى مكة من =

الأذى بالشتم والضرب والسخرية إلى أن كان آخره الإخراج من الديار والأموال، فالمشركون محقوقون من قبل، فإذا خفروا العهد استحقوا المؤاخذة بما مضى، فيما كان الصلح مانعاً من مؤاخذتهم عليه؛ وإنما كانت الفتنة أشد من القتل لتكرر إضرارها بخلاف ألم القتل، ويراد منها أيضاً الفتنة المتوقعة بناء على توقع أن يصدوهم عن البيت أو أن يغدروا بهم إذا حلُّوا بمكة؛ ولهذا اشترط المسلمون في صلح الحديبية أنهم يدخلون العام القابل بالسيوف في قرابها. والمقصد من هذا إعلان عذر المسلمين في قتالهم المشركين، وإلقاء بغض المشركين في قلوبهم؛ حتى يكونوا على أهبة قتالهم والانتقام منهم بصدور حرجة حنقة.

وليس المراد من الفتنة خصوص الإخراج من الديار؛ لأن التذييل يجب أن يكون أعم من الكلام المذيَّل.

وقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ التى أفادت الأمر بتتبع المقاتلين بالتقتيل حيثما حلوا ، سواء كانوا مشتبكين بقتال المسلمين ، أم كانوا فى حالة تنقل أو تطلع أو نحو ذلك ؛ لأن أحوال المحارب لا تنضبط وليست فى الوقت سعة للنظر فى نواياه والتوسم فى أغراضه؛ إذ قد يبادر إلى اغتيال عدوه فى حال تردده وتفكره، فخص المكان الذى عند المسجد الحرام من عموم الأمكنة التى شملها قوله: ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أى: إن ثقفتموهم عند المسجد غير مشتبكين فى قتال معكم فلا تقتلوهم، والمقصد من هذا حفظ حرمة المسجد الحرام التى جعلها الله له بقوله: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] ، فاقتضت الآية منع المسلمين من قتال المشركين عند المسجد الحرام، وتدل على منعهم من أن يقتلوا أحداً من المشركين دون قتال عند المسجد الحرام ، بدلالة لحن الخطاب أو فحوى الخطاب.

وجعلت غاية فى النهى بقوله: ﴿حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ أى: فإن قاتلوكم عند المسجد الحرام فاقتلوهم عند المسجد الحرام؛ لأنهم خرقوا حرمة المسجد الحرام فلو تُركت معاملتهم بالمثل لكان ذلك ذريعة إلى هزيمة المسلمين. فإن قاتلوا المسلمين عند المسجد الحرام عاد أمر المسلمين بمقاتلتهم إلى ما كان قبل هذا النهى، فوجب على المسلمين قتالهم عند المسجد الحرام وقتل من ثقفوا منهم كذلك . ▪

▪ وفى قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾ تنبيه على الإذن بقتلهم حيثما ولو فى غير اشتباك معهم بقتال؛ لأنهم لا يُؤْمَنُون من أن يتخذوا حرمة المسجد الحرام وسيلة لهزيمة المسلمين. ولأجل ذلك جاء التعبير بقوله: ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾ لأنه يشمل القتل بدون قتال والقتل بقتال. فقوله تعالى: ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ﴾ أى: عند المسجد الحرام فاقتلوهم هنالك، أى: فاقتلوا من ثقفتم منهم حين المحاربة، ولا يصدكم المسجد الحرام عن تقصى آثارهم؛ لئلا يتخذوا المسجد الحرام ملجأ يلجئون إليه إذا انهزموا.

وقد احتار كثير من المفسرين فى انتظام هذه الآيات من قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله هنا: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ حتى لجأ بعضهم إلى دعوى نسخ بعضها ببعض فزعم أنها آيات متقارنة بعضها نسخ بعضاً ؛ مع أن الأصل أن الآيات المتقارنة فى السورة الواحدة نزلت كذلك، ومع ما فى هاته الآيات من حروف العطف المانعة من دعوى كون بعضها قد نزل مستقلاً عن سابقه ، وليس هنا ما يُلجئ إلى دعوى النسخ؛ ومن المفسرين من اقتصر على تفسير المفردات اللغوية والتراكيب البلاغية وأعرض عن بيان المعانى الحاصلة من مجموع هاته الآيات. وقد أذن الله للمسلمين بالقتال والقتل للمقاتل عند المسجد الحرام، ولم يعبأ بما جعله لهذا المسجد من الحرمة؛ لأن حرمته حرمة نسبته إلى الله تعالى فلما كان قتال الكفار عنده قتالاً لمنع الناس منه ومناواة لدينه فقد صاروا غير محترمين له، ولذلك أذن بقتالهم هنالك تأييداً لحرمة المسجد الحرام.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ ثلاثتها بألف بعد القاف، وقرأ حمزة والكسائى: «ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فإن قتلوكم» بدون ألف بعد القاف، فقال الأعمش لحمزة: أرأيت قراءتك هذه كيف يكون الرجل قاتلاً بعد أن صار مقتولاً؟ فقال حمزة: إن العرب إذا قُتل منهم رجل قالوا: قُتلنا. اهـ.

يريد أن الكلام على حذف مضاف من المفعول.

والمعنى: ولا تقتلوا أحداً منهم حتى يقتلوا بعضكم، فإن قتلوا بعضكم فاقتلوا من تقدرون عليه منهم، وكذلك إسناد «قتلوا» إلى ضمير جماعة المشركين، فهو بمعنى قتل بعضهم بعض المسلمين؛ لأن العرب تسند فعل بعض القبيلة، أو الملة، أو الفرقة لما يدل على جميعها من ضمير كما هنا أو اسم ظاهر نحو قتلتنا بنو أسد. ▪

= وهذه القراءة تقتضي أن المنهي عنه القتل ... القتل باشتباك حرب، والقتل بدون ملحمة، وقد دلت الآية بالنص على إباحة قتل المحارب إذا حارب في الحرم أو استولى عليه؛ لأن الاستيلاء مقاتلة؛ فالإجماع على أنه لو استولى على مكة عدو وقال: لا أقاتلكم وأمنعكم من الحج ولا أبرح من مكة؛ لوجب قتاله وإن لم يبدأ بالقتال، نقله القرطبي عن ابن خويز منداد من مالكية العراق.

قال ابن خويز منداد: وأما قوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ فيجوز أن يكون منسوخاً بقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة :١٩٣]

واختلفوا في دلالتها على جواز قتل الكافر المحارب إذا لجأ إلى الحرم بدون أن يكون قتال، وكذا الجاني إذا لجأ إلى الحرم فاراً من القصاص والعقوبة، فقال مالك: بجواز ذلك واحتج على ذلك بأن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ الآية، قد نسخ هاته الآية ، وهو قول قتادة ومقاتل بناء على تأخر نزولها عن وقت العمل بهذه الآية ، والعام المتأخر عن العمل ينسخ الخاص اتفاقاً، وبالحديث الذي رواه في الموطأ عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر فلما نزعه جاء أبو برزة فقال: ابن خَطَل متعلق بأستار الكعبة،فقال رسول الله ﷺ: «اقتلوه» (١) ، وابن خطل هذا هو عبد العزى بن خطل التيمي كان ممن أسلم ثم كفر بعد إسلامه ، وجعل دأبه سب رسول الله ﷺ والإسلام، فأهدر النبي ﷺ يوم الفتح دمه ، فلما علم ذلك عاذ بأستار الكعبة، فأمر النبي ﷺ بقتله حينئذ ، فكان قتل ابن خطل قتل حدٍّ لا قتل حرب؛ لأن النبي ﷺ قد وضع المغفر عن رأسه وقد انقضت الساعة التي أحلَّ الله له فيها مكة.

وبالقياس وهو أن حرمة المسجد الحرام متقررة في الشريعة، فلما أذن الله بقتل من قاتل في المسجد الحرام علمنا أن العلة هي أن القتال فيه تعريض بحرمته للاستخفاف، فكذلك عياذ الجاني به، ومثل قوله قال الشافعي، لكن قال الشافعي: إذا التجأ المجرم المسلم إلى المسجد الحرام ؛ يضيق عليه حتى يخرج ؛ فإن لم يخرج جاز قتله ، وقال أبو حنيفة: لا يقتل الكافر إذا التجأ إلى الحرم إلا إذا قاتل فيه لنص هاته الآية وهي محكمة عنده غير منسوخة، وهو قول طاووس ومجاهد. =

(١) أخرجه البخاري [١٨٤٦، ٣٠٤٤]، ومسلم [١٣٥٧ / ٤٥٠]، وأبو داود [٢٦٨٥]، والترمذي [١٦٩٣]، ومالك في الموطأ في كتاب الحج [٢٠]، باب: جامع الحج [٨١].

= قال ابن العربي في الأحكام: حضرت في بيت المقدس بمدرسة أبي عتبة الحنفي والقاضي الزنجاني يلقي علينا الدرس في يوم الجمعة فبينما نحن كذلك إذ دخل رجل عليه أطمار فسلم سلام العلماء وتصدر في المجلس، فقال القاضي الزنجاني: من السيد؟ فقال: رجل من طلبة العلم بصاغان ... ومقصدي هذا الحرم المقدس. فقال القاضي الزنجاني: سلوه؛ على العادة في مبادرة العلماء بمبادرة سؤالهم، ووقعت القرعة على مسألة الكافر إذا التجأ إلى الحرم، هل يُقتل أم لا ؟ فأجاب : بأنه لا يُقتل، فسُئل عن الدليل فقال: قوله تعالى : ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة :١٩١] فإن قُرئ: «ولا تقتلوهم» فالآية نص ، وإن قرئ : ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ﴾ فهي تنبيه؛ لأنه إذا نهى عن القتال الذي هو سبب القتل كان دليلاً بيِّناً على النهي عن القتل. فاعترض عليه الزنجاني منتصراً لمالك والشافعي، وإن لم ير مذهبهما على العادة، فقال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] فقال الصاغاني: هذا لا يليق بمنصب القاضي، فإن الآية التي اعترضت بها عامة في الأماكن والتي احتججت بها خاصة ، ولا يجوز لأحد أن يقول: إن العام ينسخ الخاص ، فأبهت القاضي الزنجاني، وهذا من بديع الكلام(١). اهـ.

وجواب هذا أن العام المتأخر عن العمل بالخاص ناسخ. وحديث ابن خطل دل على أن الآية التي في براءة ناسخة لآية البقرة . وأما قول الحنفية وبعض المالكية : إن قتل ابن خطل كان في اليوم الذي أحل الله له فيه مكة ، ... أن تلك الساعة انتهت بالفتح ، وقد ثبت في ذلك الحديث أن رسول الله ﷺ قد نزع حينئذ المغفر ، وذلك أمارة انتهاء ساعة الحرب.

وقال ابن العربي في الأحكام: الكافر إذا لم يقاتل ولم يجن جناية ولجأ إلى الحرم فإنه لايُقتل، يريد أنه لايقتل القتل الذي اقتضته آية: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وهو مما شمله قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، الإشارة إلى القتل المأخوذ من قوله: ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾=

(١) أحكام القرآن [١/١٠٧] بتصرف.

إذن .. لقد انتهت المسألة بإسلامه، فالإيمان بالله أعزّ على المؤمن من دمه ومن نفسه، وحين يؤمن فقد انتهت الخصومة.

وهذا وحشي قاتل حمزة، يقابل رسول الله ﷺ وكل ما يصنعه الرسول هو أن طلب منه أن يغيب وجهه عنه حتى لا يراه، لكنه لم يقتله ولم يثأر منه لأن الاسلام يجب ما قبله (١).

= أى: كذلك القتل جزاؤهم. ونكتة الإشارة تهويله، أى: لا يَقِلُّ جزاء المشركين عن القتل ولا مصلحة فى الإبقاء عليهم؛ وهذا تهديد لهم، فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر مقدم للاهتمام وليست الإشارة إلى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ لأن المقاتلة ليست جزاء؛ إذ لا انتقام فيها بل القتال سجال يوماً بيوم.

التحرير والتنوير: [٢/١-٢٠٦-٢٠٦] بتصرف.

(١) عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمرى قال: خرجت مع عبيد الله بن عدىّ بن الخيار، فلما قدمنا حمص قال لى عبيد الله بن عدى: هل لك فى وحشى نسأله عن قتل حمزة؟ قلت: نعم. وكان وحشى يسكن حمص فسألنا عنه فقيل لنا: هو ذاك فى ظل قصره، كأنه حَمِيت، قال: فجئنا حتى وقفنا عليه بيسير، فسلمنا فرد السلام، قال: وعبيد الله معتجر بعمامته. ما يرى وحشىٌّ إلا عينيه ورجليه؟ فقال عبيد الله: يا وحشى أتعرفنى؟ قال: فنظر إليه ثم قال: لا والله إلا أنى أعلم أن عدى بن الخيار تزوج امرأة يقال لها: أم قتال بنت أبى العيص، فولدت له غلاماً بمكة فكنت أسترضع له فحملت ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياه، فَلَكَأَنِّى نظرت إلى قدميك، قال: فكشف عبيد الله عن وجهه، ثم قال: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟ قال: نعم، إن حمزة قتل طعيمة بن عدى بن الخيار ببدر، فقال لى مولاى جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمى فأنت حر. قال: فلما أن خرج الناس عام عينين - وعينين جبل بحيال أُحُد بينه وبينه واد - خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سِبَاع، فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: يا سباع يا ابن أم أنمار مقطعة البُظُور أتحادّ الله ورسوله ﷺ؟ قال: ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب، قال: وكمنت لحمزة تحت صخرة، فلما دنا منى رميته بحربتى فأضعها فى ثُنَّته حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسلاً، فقيل لى: إنه لا يَهِيجُ الرسل، قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ فلما رآنى قال: «أنت وحشى» قلت: نعم. قال: «أنت قتلت حمزة» قلت: قد كان من =

وهند زوجة أبى سفيان التى أكلت كبد حمزة، أسلمت وانتهت فعلتها بإسلامها؛ وغير ذلك كثير.

إذن .. فالإسلام ليس دين حقد ولا ثأر ولا تصفية حسابات، فإذا كان الدم يغلى فى مواجهة الكفر، فإن إيمان الكفار يعطيهم الأمن والسلامة، هذا هو الدين. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) [البقرة: ١٩٢]

أى ما داموا قد كفوا عما يصنعون من الفتنة بالدعوة والشرك بالله وزُجروا بالدين الأمر فانزجروا عن الكفر بعدها لا شىء لنا عندهم؛ لأن الله غفور رحيم، فلا يصح أن يشيع فى نفوسنا الحقد على مافعلوه بنا قديماً، بل نحتسب ذلك عند الله، ومادامو قد آمنوا فذلك يكفينا.

= الأمر ما بلغك. قال: «فهل تستطيع أن تغيب وجهك عنى؟» قال: ، فخرجت؛ فلما قبض رسول الله ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب قلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلى أقتله فأكافئ به حمزة. قال: فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجل قائم فى ثَلْمَة جدار كأنه جمل أورق ثائر الرأس، قال: فرميته بحربتى فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه. قال: ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته.

أخرجه البخارى [٤٠٧٢].

(١) قال ابن الجوزى: اختلف المفسرون فى المراد بهذا الانتهاء على قولين:
أحدهما: أنه الانتهاء عن الكفر.
والثانى: عن قتال المسلمين لا عن الكفر.
فعلى القول الاول: الآية محكمة. والثانى يختلف فى المعنى. فمن المفسرين من يقول: فإن الله غفور رحيم إذ لم يأمركم بقتالهم فى الحرم، بل يخرجون منه على ماذكرنا فى الآية التى قبلها، ولا يكون نسخ أيضاً.
ومنهم من يقول: المعنى: اعفوا عنهم وارحموهم. فيكون لفظ الآية لفظ خبر ومعناه الأمر بالرحمة لهم والعفو عنهم، وهذا منسوخ بآية السيف.
ناسخ القرآن ومنسوخه: [٢٢٠، ٢٢١].

والحق سبحانه وتعالى يعد أن شرع لنا مراحل للقتال ودوافعه قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١) [البقرة: ١٩٣]

وعرفنا أن الفتنة ابتلاء واختبار والحق سبحانه يقول: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]

فالحق سبحانه يختبر الإيمان بالفتنة، وليرى الذين يعلنون الإيمان هل سيصبرون على مافيه من ابتلاءات أم لا؟ فلو كان دخول الإسلام لا يترتب عليه دخول فى حرب أو قتال، ولا يترتب عليه استشهاد بعض المؤمنين، لكان الأمر مغرياً لكثير من الناس بالدخول فى الإسلام، لكن الله جعل لهم الفتنة فى أن يُهزموا ويُقتل منهم عدد من الشهداء؛ وذلك حتى لا يدخل الدين إلا الصفوة التى تحمل كرامة الدعوة، وتتولى حماية الأرض من الفساد، فلابد أن يكون المؤمنون هم خلاصة الناس.

لذلك قال سبحانه: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ معنى أن يكون الدين لله، أى: تخرجوهم من ديانة أنفسهم أو من الديانات التى فرضها الطغيان عليهم، وعندما نأخذهم من الديانات التى زينها لهم الشيطان إلى دين الخالق سبحانه؛ فهذه مسألة حسنة بالنسبة لهم، وتلك مهمة سامية.

(١) عن نافع، أن رجلاً أتى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما فقال: يا أبا عبد الرحمن، ما حملك على أن تحج عاماً وتعتمر عاماً وتترك الجهاد فى سبيل الله عز وجل وقد علمت ما رغَّب الله فيه؟ قال: يا ابن أخى، بنى الإسلام على خمس: إيمان بالله ورسوله، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت، قال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله فى كتابه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، وكان الإسلام قليلاً فكان الرجل يفتن فى دينه: إما قتلوه، وإما يعذبوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة. أخرجه البخارى [٤٥١٤].

كأنك بهذه المهمة السامية تريد أن ترشد العقل الإنسانى وتمنعه من أن يدين لمساوٍ له.

وعلى صاحب مثل هذا العقل أن يشكر من يوجهه إلى هذا الصواب. ولذلك يقول الرسول ﷺ لمن يدعوهم للإيمان: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧]

فكأننا لو نظرنا إلى عمل الرسول ﷺ بالنسبة إلينا، لوجب أن يكون له أجر؛ لأنه يقدم المنفعة لنا، وبرغم ماقدمه من منفعة فهو لا يأخذ أجراً، ليس لأنه زاهد فى الأجر؛ ولكن لأنه يعلم أن الأجر من المساوى له قليل مهما عُظم وهو يريد الأجر ممن خلقه، وهذا طمع فى الأعلى؛ لأنه لا يعطى الأجر على الإيمان إلا الله سبحانه وتعالى، وهو سبحانه الذى يعطى بلا حدود.

ويختم الحق سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أى: إنهم إذا انتهوا إلى عدم قتالكم فلا تعتدوا عليهم، ولكن عليكم أن تردوا عدوان الظالم منهم. والظالم حين يعتدى يظن أن لن يقدر عليه أحد(١).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) قال ابن القيم فى قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فمد قتالهم إلى أن ينتهوا عن أسباب الفتنة، وهى الشرك، وأخبر أنه لاعدوان إلا على الظالمين، والمجاهر بالسب والعدوان على الإسلام غير منته، فقتاله واجب إذا كان غير مقدور عليه، وقتله مع القدرة حتم، وهو ظالم، فعليه العدوان الذى نفاه عمن انتهى، وهو القتل والقتال، وهذا بحمد الله فى غاية الوضوح. بدائع التفسير [١/ ٣٨٨].

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(1) [البقرة:١٩٤]

والمعنى: إن قاتلوكم فى الشهر الحرام فقاتلوهم فى الشهر الحرام، وإذا ما اعتدوا على حرمة زمان فالقصاص يكون فى زمان مثله، وإن اعتدوا فى حرمة مكان يكن القصاص بحرمة مكان مثله، وإذا كان الاعتداء بحرمة إحرام يكون مثله؛ لأن القصاص هو أن تأخذ للمظلوم مثلما فعل الظالم.

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يخفف وقع الأمر على المؤمنين الذين رُدُّوا عام الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة، وأعادهم المشركون إلى المدينة، فاقتص الله لهم بأن أعادهم فى ذى القعدة فى العام القابل فى السنة السابعة من الهجرة، فإن كانوا قد مُنعوا فى الشهر الحرام فقد أراد الله أن يعودوا لزيارة البيت فى الشهر الحرام فى الزمان نفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ يقتضى منا أن نسأل: كيف يكون ذلك؟ وما هو الشئ الحرام؟ إن الشئ الحرام هو مايحظر هتكه، والشيء الحلال هو المطلق والمأذون فيه. فهل يعنى ذلك أن الذى يقوم بعمل حرام نقتص منه بعمل مماثل؟ هل إذا زنى رجل بامرأة نقول له: نقتص منك بالزنا فيك؟ لا. إن القصاص فى الحرمات لا يكون إلا

(1) قال ابن العربى فى هذه الآية: فيها أربع مسائل:

المسألة الأولى: فى سبب نزولها:

قيل: إنها نزلت سنة سبع حين قضى النبى ﷺ عمرته فى ذى القعدة عن التى صده عنها كفار قريش سنة ست فى الحديبية فى ذى القعدة، فدخل النبى ﷺ مكة، وقد أخلتها قريش، وقضى نسكه، ونزلت هذه الآية.

المعنى: شهر بشهر وحرمة بحرمة، وصار ذلك أصلاً فى كل مكلف قطع به عذر أو عدو عن عبادة ثم قضاها، أن الحرمة واحدة والمثوبة سواء.

وقيل: إن المشركين قالوا: أنُهيت يا محمد عن القتال فى الشهر الحرام؟

قال: نعم. فأرادوا قتاله فيه، فنزلت الآية.

المعنى: إن استحلوا ذلك فيه فقاتلهم عليه، فإن الحرمة بالحرمة قصاص =

قال علماؤنا: وهذا دليل على أن لك أن تبيح دم من أباح دمك، وتحل مال من استحل مالك، ومن أخذ عرضك فخذ عرضه بمقدار ما قال فيك، ولذلك كله تفصيل:

أما من أباح دمك فمباح دمه لك، لكن بحكم الحاكم، لا باستطالتك وأخذ لثأرك بيدك، ولا خلاف فيه.

وأما من أخذ مالك فخذ ماله إذا تمكنت منه، إذا كان من جنس مالك: طعاماً بطعام، وذهباً بذهب، وقد أمنت من أن تعد سارقاً.

وأما إن تمكنت من ماله بما ليس من جنس مالك فاختلف العلماء؛ فمنهم من قال: لا يؤخذ إلا بحكم حاكم، ومنهم من قال: يتحرى قيمته ويأخذ مقدار ذلك، وهو الصحيح عندى.

وأما إن أخذ عرضك فخذ عرضه، لا تتعداه إلى أبويه ولا إلى ابنه أو قريبه. لكن ليس لك أن تكذب عليه، وإن كذب عليك، فإن المعصية لا تقابل بالمعصية؛ فلو قال لك مثلاً: يا كافر، جاز لك أن تقول له: أنت الكافر؛ وإن قال لك: يا زان، فقصاصك أن تقول: يا كذاب، يا شاهد زور. ولو قلت له: يا زان، كنت كاذباً فأثمت فى الكذب، وأخذت فيما نسب إليك من ذلك، فلم تربح شيئاً، وربما خسرت. وإن مَطَلَكَ وهو غنى دون عذر، قل: يا ظالم، يا آكل أموال الناس. قال النبى ﷺ فى الصحيح: «لىُّ الواجد(1) يحل عرضه وعقوبته»(2).

أما عرضه فبما فسرناه، وأما عقوبته فبالسجن حتى يؤدى.

وعندى أن العقوبة هى: أخذ المال كما أخذ ماله، وأما إن جحدك وديعة وقد استودعك أخرى فاختلف العلماء فيه؛ فمنهم من قال: اصبر على ظلمه، وأدِّ إليه أمانته، لقول النبى ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من=

(1) اللى: المطل. الواجد: القادر على قضاء دينه.

(2) رواه البخارى معلقاً فى كتاب الاستقراض باب[١٣]. ورواه أحمد [٤/٣٨٨، ٣٨٩]، وأبو داود [٣٦٢٨]، والنسائى [٤٦٨٩، ٤٦٩]، وابن ماجه [٢٤٢٧] عن عمرو بن الشريد عن أبيه. وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [١٩٧٠]؛ وحسنه الحافظ ابن حجر فى الفتح [٥/٣٤٢].

خانك[1].

ومنهم من قال: اجحده، كما جحدك؛ لكن هذا لم يصح سنده، ولو صح فله معنى صحيح، وهو إذا أودعك مائة وأودعته خمسين، فجحد الخمسين، فاجحده خمسين مثلها، فإن جحدت المائة كنت قد خنت من خانك فيما لم يخنك فيه، وهو المنهى عنه. وبهذا الأخير أقول. والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

هذه الآية عموم متفق عليه، وعمدة فيما تقدم بيانه وفيما جانسه.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

هذه مسألة بِكْر. قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إنما سُمِّى الفعل الثانى اعتداء، وهو مفعول بحق؛ حملاً للثانى على الأول على عادة العرب.

قالوا: وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾

والذى أقول فيه: إن الثانى كالأول فى المعنى واللفظ؛ لأن معنى الاعتداء فى اللغة مجاوزة الحد، وكلا المعنيين موجود فى الأول والثانى؛ وإنما اختلف المتعلق من الأمر والنهى؛ فالأول منهى عنه، والثانى مأمور به، وتعلق الأمر والنهى لا يغير الحقائق ولا يقلب المعانى؛ بل إنه يكسب ماتعلق به الأمر وصف الطاعة والحسن، ويكسب ماتعلق به النهى وصف المعصية والقبح؛ وكلا الفعلين مجاوزة الحد، وكلا الفعلين يسوء الواقع به، وأحدهما حق والآخر باطل.

المسألة الرابعة: تعلق علماؤنا بهذه الآية فى مسألة من مسائل الخلاف؛ وهى المماثلة فى القصاص، وهو متعلق صحيح وعموم صريح؛ وقد اختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه لا قود إلا بحديدة؛ قاله أبو حنيفة وغيره، واحتجوا بالحديث: إن النبى ﷺ قال: «لا قود إلا بحديدة»[2] «ولا قود إلا بالسيف»[3].

(1) رواه الترمذى [1264] وحسّنه، وأبو داود [3535] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه. وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [3019]: حسن صحيح.

(2) رواه البيهقى فى السنن الكبرى [16088] عن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنه.

(3) رواه ابن ماجه [2667، 2668] عن النعمان بن بشير، وعن أبى بكر رضى الله تعالى عنهما. وضعفه =

= الثانى: أنه يقتص منه بكل ماقتل إلا الخمر وآلة اللواط، قاله الشافعى.

الثالث: قال علماؤنا: يقتل بكل ماقتل إلا فى وجهين وصفتين:

أما الوجه الأول: فالمعصية كالخمر واللواط.

وأما الوجه الثانى: فالسم والنار، لا يقتل بهما.

قال علماؤنا: لأنه من المثل؛ ولست أقوله؛ وإنما العلة فيه أنه من العذاب. وقد بلغ ابن عباس أن عليًا حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام؛ فقال ابن عباس: لم أكن لأحرقهم بالنار؛ لأن النبى ﷺ قال: «لا تعذبوا بعذاب الله»، ولقتلتهم لقول النبى ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه». [1]وهو الصحيح.

والسم نار باطنة، نعوذ بالله من النارين، ونسأل الله تعالى الشهادة فى سبيله.

وأما الوصفان: فروى ابن نافع عن مالك: إن كانت الضربة بالحجر مُجْهِزَة قُتل بها، وإن كانت ضربات فلا.

وقال مالك أيضاً: ذلك إلى الولىّ. وروى ابن وهب يُضرب بالعصا حتى يموت؛ ولا يطول عليه. وقاله ابن القاسم.

وقال أشهب: إن رجى أن يموت بالضرب ضُرب، وإلا أُقيد منه بالسيف.

وقال عبد الملك: لا يقتل بالنبل ولا بالرمى بالحجارة؛ لأنه من التعذيب. واتفق علماؤنا على أنه إذا قطع يده ورجله وفقأ عينه قصد التعذيب فُعل ذلك به، كما فعل النبى ﷺ بقتلة الرعاء حسبما روى فى الصحيح [2]، وإن كان فى=

= الألبانى فى ضعيف ابن ماجه [581، 582].

(1) أخرجه البخارى [3017] عن عكرمة رضى الله تعالى عنه.

(2) هم قوم من عرينة، بعث بهم رسول الله إلى إبل الصدقة؛ ليشربوا من ألبانها. فقتلوا رعاتها. والحديث أخرجه البخارى [6805] عن أنس بن مالك رضى الله عنه: «أن رهطاً من عُكْل- أو قال عُرَيْنَة- ولا أعلمه إلا قال: من عُكْل قدموا المدينة فأمر لهم النبى ﷺ بلقاح، وأمرهم أن يخرجوا فيشربوا من أبوالها وألبانها، فشربوا حتى إذا برئوا قتلوا الراعى، واستاقوا النَّعم، فبلغ ذلك النبى ﷺ غُدْوة، فبعث الطلب فى إثرهم، فما ارتفع النهار حتى جيء بهم، فأمر بهم فقطع أيديهم وأرجلهم، وسُمِّرَ أعينهم، فألقوا بالحرة يستسقون فلا يُسقون».

قال أبو قلابة: هؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله.

أخرجه مسلم [1671/ 10].

مدافعة ومضاربة قُتل بالسيف.

والصحيح من أقوال علمائنا أن المماثلة واجبة، إلا أن تدخل فى حد التعذيب فلتترك إلى السيف. وإلى هذ يرجع جميع الأقوال.

وأما حديث أبى حنيفة فهو عن الحسن عن أبى بكر عن النبى ﷺ، ولا يصح لوجهين بيَّناهما فى شرح الحديث الصحيح. وكذلك حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه فى شبهْ العمد بالسوط والعصا لا يصح أيضاً.

والذى يصح ما رواه مسلم وغيره عن علقمة بن وائل، عن أبيه، قال: إنى لقاعد عند النبى إذا رجل يقود آخر بنِسْعَة [1]. فقال: يا رسول الله، هذا قتل أخى. فقال رسول الله ﷺ: «أقتلته؟» فقال: إنه لو لم يعترف لأقمت عليه البينة. قال: نعم، قتله. قال: «كيف قتلته؟» قال: كنت أنا وهو نختبط [2] من شجرة فسبنى فأغضبنى فضربته بالفأس على قرنه فقتلته.

وروى أبو داود: «ولم أرد قتله» [3]. فقال له النبى ﷺ: «هل لك من شئ تؤدى عن نفسك؟» فقال: ما لى إلا كسائى وفأسى. قال: «فترى قومك يشترونك؟» قال: أنا أهون على قومى من هذا. قال: فرمى إليه بنسعته، وقال: «دونك صاحبك» فانطلق به الرجل؛ فلما ولَّى قال رسول الله ﷺ: «إن قتله فهو مثله». فرجع. فقال: يا رسول الله، بلغنى أنك قلت كذا، وأخذته بأمرك. قال: «أما تريد أن يبوء بإثمك وإثم صاحبك؟» قال: لعله. قال: بلى. قال: «فإن ذاك كذلك»، قال: فرمى بنسعته وخلى سبيله [4].

والحديث مشكل وقد بيناه فى شرح الحديث الصحيح، والذى يتعلق به من مسألتنا أن النبى ﷺ أوجب عليه القتل، وقد قُتل بالفأس.

وروى الأئمة أن يهودياً رضخ رأس جارية على أوضاح [5] لها، فأمر به =

(١) النسعة: حبل من جلود مضفورة، جعلها كالزمام له يقوده بها.

(٢) فى مسلم: نختبط: أى نضرب الشجر بالعصا فيسقط ورقه فنجمعه علفاً.

(٣) رواه أبو داود [١ - ٤٥٠] عن وائل. وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٧٧٧].

(٤) أخرجه مسلم [١٦٨٠/٣٢] غير أنه قال فى نهاية الحديث: «فإن ذاك كذاك» بدلاً من «فإن ذاك كذلك».

(٥) الرضخ: الشدخ والدق والكسر. والأوضاح: نوع من الحلى يعمل من الفضة؛ سميت بها لبياضها، واحدها: وضح.

فى المأذون به، وكذلك إذا سرق منى إنسان مالاً وليس لدى بيِّنة، هل أقتص منه بأن أسرق منه؟ لا؛ إن القصاص إنما يكون فى الأمر المعروف الواضح، أما الأمر الخفى فلا يمكن أن نقتص منه بمثل مافعل.

لكن هب أن أحد الأقارب ممن تجب نفقتهم عليك وقد امتنعت أنت عن النفقة على هذا القريب؛ فهذا أمر محرم عليك، ويكون لهذا القريب الواجب نفقته عليك أن يأخذ من مالك فيأكل ولا تكون المسألة قصاصاً.

وهب أن زوجتك تشتكى من بخلك وتقصيرك، كما اشتكت هند زوجة أبى سفيان لرسول الله ﷺ من بخل زوجها فقال لها: «خذى أنت وبنوك ما يكفيك بالمعروف» [1].

وشرَّع الحق سبحانه وتعالى لولى الأمر تنظيم هذه الأمور؛ حتى لا تصير المسائل إلى الفوضى.

وقول الحق سبحانه: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

يدعونا إلى اليقظة؛ حتى لا يخدعنا أحد ويدعى الإيمان وهو يريد الانتقام، ولكن هذا ليس أمراً حتمياً؛ لأنه يجوز العفو والصفح عمن

= النبى ﷺ، فاعترف فرُضّ رأسه بين حجرين؛ اعتماداً للمماثلة وحكماً بها [1].
أحكام القرآن: [١/ ١١١- ١١٥]

(١) أخرجه البخارى [٢٢١١] عن عائشة رضى الله عنها.

(١) أخرج البخارى [٦٨٧٧] عن أنس بن مالك قال: خرجت جارية عليها أوضاح بالمدينة قال: فرماها يهودى بحجر. قال: فجىء بها إلى النبى ﷺ وبها رمق، فقال لها رسول الله ﷺ: «فلان قتلك» فرفعت رأسها، فأعاد عليها، قال: «فلان قتلك» فرفعت رأسها فقال لها فى الثالثة: «فلان قتلك» فخفضت رأسها، فدعا به رسول الله ﷺ فقتله بين الحجرين. وأخرجه مسلم [١٧٦٢/ ١٥]، وأبو داود [٢٥٢٩]، وابن ماجه [٢٦٦٦]، والنسائى فى المجتبى [٤٧٤٢].

اعتدى عليك يقول رب العزة سبحانه: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]

ويقول تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

ويقول تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

ولكن إذا عاود المعتدى اعتدائه، فعليك أن ترده بقوة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]

قال الشاعر:

إن عادت العقرب عدنا لها وكانت النعل لها حاضرة

ويختم الحق الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، أى: واتقوا الله فى كل ما أمركم به، واعلموا أنه سبحانه دائماً ينصر ويؤيد من يتقيه.

فرض القتال

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(1)

---

(١) قال ابن القيم: فى هذه الآية عدة حكم وأسرار، ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتى بالمحبوب، والمحبوب قد يأتى بالمكروه؛ لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب؛ فإن الله يعلم منها ما لايعلمه العبد، أوجب له ذلك أموراً:

منها : أنه لا أنفع له من امتثال أمر ربه، وإن شق عليه فى الابتداء؛ لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذّات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها، وأنفع، وكذلك لا شئ أضر عليه من ارتكاب المنهى، وإن هويته نفسه، ومالت إليه، وأن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب؛ وخاصية العاقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذّة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذّة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل.

فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غايتها، والعاقل الكيّس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها؛ فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة؛ فيرى المناهى كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه عنه ما فيه من السم، ويرى الأوامر كدواء مر المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه مرارة مذاقه عن تناوله؛ أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لم يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قوى يقينه وصبره؛ هان عليه كل مشقة يتحملها فى طلب الخير الدائم، واللذّة الدائمة. ومن أسرار هذه الآية أنها: تقتضى من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له، ويقتضيه له لما يرجو من حسن العاقبة.

ومنها : أنه لا يقترح على ربه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم فلعل مضرته وهلاكه فيه، وهو لايعلم فلا يختار على ربه شيئاً، بل يسأله حسن الاختيار له، =

إن كراهية القتال هي قضية فطرية، والذي يقولها هو الذي خلق الإنسان فهو سبحانه لا يعالج الأمر علاجاً سطحياً، بمعنى أن يقول: وماذا في القتال؟ لا، إن الخالق يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ حتى إذا ما أصابك فيه ماتكره، فأنت قد علمت أن الذي شرعه يقدر ذلك.

إن الله عزَّ وجلَّ يقول للذين آمنوا: اعلموا أنكم مقبلون على مشقات، وعلى مصاعب، وأنكم سوف تتركون أموالكم، وأولادكم، ونساءكم (١)؛

= وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوَّض إلى ربه، ورضي بما يختاره له أمره فيما يختاره له بالقوة عليه، والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أن يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات، التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرى، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله؛ أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر، وهو مذموم عنده غير ملطوف به فيه، مع اختياره لنفسه. ومتى صح تفويضه ورضاه؛ اكتنفه في المقدور العطف عليه، واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه. فعطفه يقيه مايحذره، ولطفه يهون عليه ماقدره، إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه: تحيله في رده، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريحاً كالميت. فإن السبع لا يرضى أن يأكل الجيف.

وقال رحمه الله تعالى: بيَّن سبحانه أن ما أمرهم به يعلم ما فيه من المصلحة والمنفعة لهم التي اقتضت أن يختاره ويأمرهم به وهم قد يكرهونه إما لعدم العلم، وإما لنفور الطبع. فهذا علمه بما في عواقب أمره مما لا يعلمونه، وذلك علمه بما في اختياره من خلقه بما لا يعلمونه. فهذه الآية تضمنت الحض على التزام أمر الله وإن شق على النفوس، وعلى الرضا بقضائه وإن كرهته النفوس.

بدائع التفسير :[١/٣٩١- ٣٩٢]

(١) قال القرطبي: وإنما كان الجهاد كُرهاً لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل، والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس؛ فكانت كراهيتهم لذلك؛ لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى. وقال عكرمة في هذه الآية: إنهم كرهوه ثم=

ولذلك نجد كبار الساسة الذين برعوا في السياسة ونجحوا في قيادة مجتمعاتهم كانوا لا يرغبون أن تخوض شعوبهم المعارك إلا مضطرين، فإذا ما اضطروا فهم يوضِّحون لجندهم أنهم يدرءون بالقتال ماهو أكثر شراً من القتال، ومعنى ذلك أنهم يُعبِّئون النفس الإنسانية حتى تواجه الموقف بجميع قواها، وبجميع ملكاتها، وكل إرادتها.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ إنه سبحانه يقول لنا: أعلم أن القتال كره لكم، ولكن أردت أن أشيع فيكم قضية، هذه القضية هي ألا تنظروا في القضايا الكبيرة بعلمكم لأن علمكم محدود، بل خذوا القضايا من الخبير العليم؛ لأنه سبحانه علم بما ينفع عباده ويقيم حياتهم وفق مايحبه سبحانه ويرضاه لهم فقد ترى فيما شرع لك مكروهاً !!!، ولكن هذا الذي تراه مكروهاً من وجهة نظرك يأتي منه الخير – وقد تحب شيئاً ويأتي منه الشر – ولذلك ينبهنا الحق سبحانه إلى أن كثيراً من الأمور المحبوبة عندنا قد يأتي منها الشر، فيقول الواحد منا: كنت أتوقع الخير من هذا الأمر، لكن ما جاءني منه إلا الشر.

وأمور أخرى نظن أن الشر يأتي منها، لكنها تأتي بالخير. ولذلك يُحدث

= أحبوه وقالوا: سمعنا وأطعنا، وهذا لأن امتثال الأمر يتضمن مشقة، لكن إذا عرف الثواب هان في جنبه مقاساة المشقات، قلت: ومثاله في الدنيا إزالة ما يؤلم الإنسان ويخاف منه كقطع عضو وقلع ضرس وفصد وحجامة ابتغاء العافية ودوام الصحة، ولا نعيم أفضل من الحياة الدائمة في دار الخلد والكرامة في مقعد صدق.

وقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ قيل: «عسى» بمعنى قد، قاله الأصم. وقيل: هي واجبة. ﴿وَعَسَىٰ﴾ من الله واجبة في جميع القرآن إلا قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ﴾ [التحريم:٥] وقال أبو عبيدة: ﴿عَسَىٰ﴾ من الله إيجاب، والمعنى: عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيداً، وعسى أن تحبوا الدّعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تُغلبون وتُذلُّون ويذهب أمركم. تفسير القرطبي: [٣ / ٣٩]

الحق أموراً فى المجتمع حتى يعلم الناس أن الله سبحانه وتعالى لا يُجرى أمور الخير على مقتضيات ومقاييس علم العباد، إنما يجرى الحكم لعلمه هو سبحانه ووفق مشيئته. ولننظر إلى ماجاء فى قصة موسى والخضر - عليهما السلام - على سبيل المثال فقد رُوى أن موسى - عليه السلام - قام خطيباً فى بنى إسرائيل فلما انتهى من خطبته سأله رجل هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا؛ فأوحى الله إليه أن لى عبداً بمجمع البحرين على الساحل عند صخرة هناك هو أعلم منك، فقال موسى لربه: كيف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله فى مكتل، فحيثما فقدت الحوت تجده هناك، فأخذ موسى حوتاً فى مكتل، واصطحب فتاه يوشع بن نون، وذهب لملاقاة ذلك العبد الذى هو أعلم منه، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف]

إن موسى - عليه السلام - خرج مع فتاه إلى مجمع البحرين، ويقال: إنه ملتقى بحرين فى جهة المشرق، وكان معهما حوت مملوح يأكلان منه، لكن السفر والمشقة أنساهما الحوت وانطلق الحوت بآية من آيات الله إلى البحر، وعندما وصل موسى إلى مجمع البحرين طلب من فتاه أن يأتى بالطعام بعد طول التعب، لكن الفتى قال لموسى: إنه نسى الحوت، ولم ينسه إياه إلا الشيطان. وإن الحوت اتخذ طريقه إلى البحر، فقال موسى: إن هذا ما كنا نطلبه كعلامة على وصولنا إلى غايتنا وهى: ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾، أى أمر الحوت وفقده هو الذى نطلب، فإن الرجل الذى جئنا نطلبه هناك عند مكان فقد الحوت، وارتَّد موسى والغلام على آثارهما مرة أخرى.

فلما التقى موسى عليه السلام بالعبد الصالح دار بينهما هذا الحوار: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] طلب منه موسى - عليه السلام - أن يصحبه ليتعلم شيئاً من علمه.

لكن العبد الصالح الذى وهبه الله من العلم مايفوق استيعاب القدرة البشرية قال لموسى - عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف].

لقد كان موسى على علم مسبق بأن ضياع الحوت هو مسألة وإن كان فى ظاهرها شر بفقد الطعام، لكن فى باطنها خير؛ فهى العلامة التى يعرف بها موسى - عليه السلام - مكان التقائه بالعبد الصالح. ويستمر السياق فى قصة موسى والعبد الصالح، قصة ظاهرها الشر وباطنها الخير، سواء فى قصة السفينة التى خرقها أو الغلام الذى قتله، أو الجدار الذى أقامه.

لقد كان علم العبد الصالح علماً خاصاً لأجل إثبات قضية الرضا بالقضاء والقدر، سواء علمنا علة الحكم أم لم نعلمها فكل أمر الله سبحانه وتعالى فيه حكمة علينا أن نؤمن بها سواء علمناها أم جهلناها؛ لذلك أراد موسى أن يتعلم بعضًا من هذا العلم، لكن العبد الصالح نبه موسى - عليه السلام - أن ماقد يراه هو فوق طاقة الصبر؛ لأن الذى سوف يراه موسى من أفعال حال صحبته للعبد الصالح قد يرى فيها شراً ظاهراً، لكن فى باطنها كل الخير.

وقبل موسى - عليه السلام - أن يقف موقف المتعلم بأدب مع العالم الذى وهبه الله ذلك العلم، واشترط العبد الصالح على موسى ألا يسأله إلا بعد أن يحدثه العبد الصالح عن الأسباب.

وركب موسى والعبد الصالح سفينة فإذا بالعبد الصالح يخرق السفينة فتعجب موسى - عليه السلام - من هذا الفعل، وقال له: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]. فيرد العبد الصالح قائلاً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ

﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

ويتذكر موسى أنه وعد العبد الصالح بالصبر، لكن ما الذى يفعله موسى وقد وجد العبد الصالح يخرق سفينة تحملهم فى البحر؟ إنه أمر شاق على النفس، لذلك يقول موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣] وينطلق العبد الصالح ومعه موسى – عليه السلام –، فيجد العبد الصالح غلاماً فيقتله، فيقول له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

ويُذكِّر العبد الصالح موسى أنه لن يستطيع الصبر معه، ويعتذر له موسى وتتواصل الرحلة فى طلب العلم، ويمر العبد الصالح ومعه موسى بقرية فطلبا من أهل هذه القرية أن يضيفوهما، لكن أهل القرية رفضوا ضيافتهم، ووجد العبد الصالح فى هذه القرية جداراً مائلاً يكاد أن يسقط فأقامه، فقال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧].

ساعتئذ حدث الفراق بين العبد الصالح وموسى، وأخبر العبد الصالح موسى بما لم يعلمه ولم يصبر عليه. إن خرق السفينة كان لإنقاذها من الضياع والمحافظة عليها لأصحابها؛ لأن هناك ملكاً كان يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، فأراد أن يعيبها ليتركها الملك لهؤلاء.

أما قتل الغلام فكان رحمة بأبويه المؤمنين، لأنه سبق فى علم الله تعالى أن هذا الابن سيكون كافراً، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبدلهما خيراً منه.

وأما الجدار الذى أقامه فقد كان تحته كنز، وكان الكنز ليتيمين من هذه القرية، وكان والد اليتيمين صالحاً؛ لذلك كان لابد من إعادة بناء الجدار حتى يبلغ الغلامان أشدهما ويستخرجا كنزهما.

ثم بعد كل ذلك قال العبد الصالح لموسى – عليه السلام: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢] إن العبد الصالح لا ينسب العلم بهذه الأمور لنفسه، ولكن

ينسبه إلى علام الغيوب وهو سبحانه الذى علمه ذلك (١).

إذن.. فالحق يطلق بعضاً من قضايا الكون؛ حتى لا يظن الإنسان أن الخير دائماً فيما يحب، وأن الشر فيما يكره؛ ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ فإن كان القتال فى ظاهره كرهاً لكم، ففيه خير لكم ونفع عظيم.

وبمناسبة ذكر الكره نوضح أن هناك: «كَره» و«كُره». إن «الكَره» بفتح الكاف: هو الشئ المكروه الذى تُحمل وتُكرَه على فعله، أما «الكُره» بضم الكاف فهو الشئ الشاق (٢).

(١) راجع القصة بتمامها فى كتاب قصص الأنبياء للشيخ الشعراوى وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامى.

(٢) قال الأزهرى: ذكر الله عز وجل الكَرْه والكُرْه فى غير موضع من كتابه العزيز، واختلف القُرَّاء فى فتح الكاف وضمها، فروى عن أحمد بن يحيى أنه قال: قرأ نافع وأهل المدينة فى سورة البقرة ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ بالضم فى هذا الحرف خاصة، وسائر القرآن بالفتح، وكان عاصم يضم هذا الحرف أيضاً، واللذين فى الأحقاف: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥] ويقرأ: سائرهن بالفتح، وكان الأعمش وحمزة والكسائى يضمون هذه الحروف الثلاثة، والذى فى النساء: لا يحل لكم أن ترثوا النساء كُرْهًا ثم قرءوا كل شئ سواها بالفتح، قال: وقال بعض أصحابنا نختار ماعليه أهل الحجاز أن جميع ما فى القرآن بالفتح إلا الذى فى البقرة خاصة، فإن القراء أجمعوا عليه. قال أحمد بن يحيى: ولا أعلم بين الأحرف التى ضمها هؤلاء وبين التى فتحوها فرقاً فى العربية ولا فى سُنة تُتبع، ولا أرى الناس اتفقوا على الحرف الذى فى سورة البقرة خاصة إلا أنه اسم، وبقية القرآن مصادر، وقد أجمع كثير من أهل اللغة أن الكَره والكُره لغتان، فبأى لغة وقع فجائز، إلا الفراء فإنه زعم أن الكُرْه ما أكرهت نفسك عليه، والكَرْه ما أكرهك غيرك عليه؛ تقول: جئتك كُرهاً وأدخلتنى كَرهاً، وقال الزجاج فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ ، يقال: كرهت الشئ كَرهاً وكُرهاً وكَرَاهةً وكَرَاهيةً، قال: وكل ما فى كتاب الله عز وجل من الكره فالفتح فيه جائز، إلا فى هذا الحرف الذى فى هذه الآية؛ فإن أبا عبيد ذكر أن القُرَّاء مُجمعون على ضمه، قال: ومعنى كراهيتهم القتال أنهم إنما كَرِهُوه على جِنْس غِلَظِهِ عليهم =

وقد يكون الشئ مكروهاً وهو غير شاق، وقد يكون شاقاً ولكن غير مكروه.

والحق سبحانه يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾. ولنلاحظ أن الحق دائماً حينما يشرع فهو يقول: ﴿كُتِبَ﴾ ولا يقول: «كتبت»؛ ذلك حتى نفهم أن الله تعالى لم يشرع إلا لمن آمن به، فهو سبحانه لم يكتب على الكافر أى تكاليف.

إذن.. فالله سبحانه حين يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أى: على الذين آمنوا بالله طواعية واختاروا عبادة الله تعالى وحده وخلعوا عنهم الأنداد والأصنام، هؤلاء بمقتضى إيمانهم بالله تعالى كتب الله عليهم التكليف. ومن جملة ما كلفهم به القتال؛ قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾.

وقوله: ﴿عَلَيْكُمُ﴾ يعنى أن القتال ساعة يُكتب لا يبدو من ظاهر أمره إلا المشقة، فجاءت ﴿عَلَيْكُمُ﴾ لتناسب الأمر. وبعد انتهاء القتال إذا انتصرنا فنفرح بنصر الله لنا، وما أفاء علينا من الغنائم، وإذا قُتلنا فالشهادة ومقعد صدق عند مليك مقتدر فى جنة الخلد فرحين بلقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم.

= ومشقته، لا أن المؤمنين يكرهون فرض الله، لأن الله تعالى لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والصلاح. وقال الليث فى الكَرْه والكُره: إذا ضموا أو خفضوا قالوا كُره، وإذا فتحوا قالوا كَرْهاً، تقول: فعلته على كُرْه وهو كُرْهٌ، وتقول: فعله كَرْهاً، قال: والكَرْه المكروه؛ قال الأزهرى: والذى قاله أبو العباس والزجاج فحسن جميل وقال: وما قاله الليث فقد قاله بعضهم، وليس عند النحويين بالبيِّن الواضح. وقال الفراء: الكُره، بالضم، المشقَّة. يقال: قمت على كُرْه أى على مشقة. قال: ويقال أقامنى فلان على كَرْه، بالفتح، إذا أكرهك عليه. قال ابن برى: يدل على صحة قول الفراء قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]؛ ولم يقرأ أحد بضم الكاف. وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ ولم يقرأ أحد بفتح الكاف فيصير الكَرْه، بالفتح، فعل المضطر، والكُره، بالضم، فعل المختار. وقال ابن سيده: الكَرْهُ الإباءُ والمشقة تكلَّفُها فتحتملها، والكُره، بالضم، المشقة تحتملها من غير أن تكلفها. لسان العرب: [١٣ / ٥٣٤]

وتأمل قوله تعالى عن القتال إذ يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾. إنها قضية عامة كما قلنا. لذلك فعلينا أن نرد الأمر إلى من يعلمه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكل أمر علينا أن نرده إلى الحكيم العليم سبحانه الذى أجراه؛ لأنه تعالى هو الذى يعلم على الحقيقة ما ينفع عبده وما يضره.

إذن.. علينا ألا نأخذ كل قضية بظاهرها، إن كانت خيراً أو شراً؛ لكن علينا أن نأخذ كل قضية من قضايا الحياة فى ضوء قول الحق سبحانه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] وعلينا بالتسليم والرضى بالقضاء والقدر، فهما من أركان الإيمان وبدونهما لا يصح.

والحق سبحانه هو القائل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾،(١) وسبق لنا أن ضربنا المثل من قبل- ولله المثل الأعلى- بالرجل الحنون الذى يحب ولده الوحيد ويرجو بقاءه فى الدنيا، لذلك عندما يمرض الابن فالأب يعطيه الدواء المر، وساعة يعطيه الجرعة فالابن يكره الدواء ولكنه قد يكون فيه الشفاء بإذن الله تعالى.

(١) قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى والله يعلم الخير والشر وأنتم لا تعلمونهما؛ لأن الله يعلم الأشياء على ما هى عليه، والناس يشتبه عليهم العلم؛ فيظنون الملائم نافعاً والمنافر ضاراً.

والمقصود من هذا تعليم المسلمين تلقى أمر الله تعالى باعتقاد أنه الصلاح والخير، وأن مالم تتبين لنا صفته من الأفعال المكلف بها، نوقن بأن فيه صفة مناسبة لحكم الشرع فيه، فنطلبها بقدر الإمكان عسى أن ندركها؛ لنفرع عليها ونقيس ويدخل تحت هذا مسائل مسالك العلة؛ لأن الله تعالى لا يجرى أمره ونهيه إلا على وفق علمه.

التحرير والتنوير: [٢/ ٣٢٣].

حكم القتال فى الأشهر الحرم

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾ [البقرة]

السؤال هنا ليس عن الشهر الحرام؛ لأنه كان معروفًا عندهم من أيام الجاهلية، ولكن السؤال عن القتال فى الشهر الحرام، هذا السؤال له قصة. ونحن نعلم أن للسنة اثنى عشر شهراً، وقد جعل الله فيها أربعة أشهر حرماً: شهر واحد فرد وهو رجب، وثلاثة سرد، وهى ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم، ومعنى أشهر حرم: أى أن القتال محرم فيها (١).

---

(١) عن أبى بَكْرَةَ عن النبى ﷺ قال: «الزَّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السَّنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان، أى شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، قال: «أى بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «فأى يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم» قال محمد: وأحسبه قال: «وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا فى شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم؛ ألا فلا ترجعوا بعدى ضُلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلِّغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه». فكان محمد إذا ذكره قال: صدق النبى ﷺ ثم قال: «ألا هل بلَّغت، ألا هل بلَّغت؟»

أخرجه البخارى [٧٤٤٧] واللفظ له، ومسلم [١٦٧٩ / ٢٩].

فالله سبحانه وتعالى الخبير بخلقه يعلم تكبرهم وكبرياء بعضهم على بعض ومن سننه سبحانه أن جعل لهم ستاراً يحمى هذا الكبرياء، ومن هذه السُّنن التى سنَّها الله هى حرمة القتال فى الأشهر الحرم، والأماكن الحرم، فيجوز أن الحرب تضر المحارب، لكن كبرياءه أمام عدوه يمنعه من وقف القتال، فيستمر فى الحرب مهما كان الثمن، فيقول الحق سبحانه وتعالى للمتحاربين: ارفعوا أيديكم فى هذه الشهور لأنى حرَّمت فيها القتال. وربما كان المحاربون أنفسهم يتمنون من أعماقهم أن يتدخل أحد ليوقف الحرب، ولكن كبرياءهم يمنعهم من التراجع، وعندما يكون الحكم من خالق الأرض والسماء سيجد كل من الطرفين حجة ليتراجع مع حفاظه على ماء الوجه. وكذلك جعل الله أماكن محرَّمة يحرم فيها القتال حتى يقول الناس: إن الله هو الذى حرمها، وتكون لهم ستاراً يحمى كبرياءهم.

إذن.. فالحق سبحانه وتعالى الذى خلق الإنسان أراد أن يصون ذلك الإنسان حتى من نفسه ليحقن الدماء، فإذا ظل الناس ثلاثة أشهر بلا حرب ثم شهراً آخر، فيتعموا فى هذه الفترة بالسلام والراحة والهدوء، ربما يألفون السلام، ولا يفكرون فى الحرب مرة أخرى، لكن لو استمرت الحرب بلا توقف لظل سُعار الحرب فى نفوسهم، وهذه والله أعلم إحدى الحكم من وجود الأشهر الحرم.

والأشهر الحرم حُرُمٌ فى الزمان والمكان؛ لأن الزمان والمكان هما ظرف الأحداث، فكل حدث يحتاج زماناً ومكاناً. وعندما يحرم الزمان ويحرم المكان فكل من طرفى القتال يأخذ هدنة من الحرب، وهى فرصة للهدوء والتروى والتعقل.

إن الحق سبحانه وتعالى يعرض هنا قضية أراد خصوم الإسلام من كفار قريش واليهود أن يثيروها؛ فقد كان رسول الله ﷺ يرسل بعض السرايا للاستطلاع، والسرية هى عدد محدود من المقاتلين، فأرسل رسول الله ﷺ

سرية على رأسها عبد الله بن جحش الأسدي ابن عمة رسول الله ﷺ، وأرسل معه ثمانية أفراد، وجعله أميراً عليهم، وأعطاه كتاباً وأمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين؛ وذلك حتى لايعلم أحد أين تذهب السرية، وفي ذلك احتياط في إخفاء الخبر. ثم يفتحه بعد ذلك، ولا يكره أحداً ممن معه على أن يسير مرغماً، بمعنى: أن يكون لكل فرد في السرية حرية الاختيار، فمن يرغب في عدم مواصلة السير في السرية فله أن يعود.

فلما سارت السرية ليلتين فتح عبد الله الكتاب وقرأه فإذا به: «إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم». فلما نظر في الكتاب، قال: سمعاً وطاعة وأخبر أصحابه بما فيه.

وبينما هم في الطريق ضلَّ بعير لسعد بن أبي وقاص وعقبة بن غَزْوان، وذهبا يبحثان عن البعير، وبقي ستة مقاتلين مع عبد الله، وذهب الستة إلى «نخلة» فوجدوا عمرو بن الحضرمي ومعه ثلاثة على عير لقريش، فدخلوا معهم في معركة، وكان هذا اليوم في ظنهم هو آخر جمادى الآخرة، لكن تبين لهم فيما بعد أنه أول رجب أي أنه أحد أيام شهر حرام. وتشاوروا فيما بينهم فقالوا: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلنَّ الحرم فليمتنعنَّ به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجَّعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه وأخذ ما معهم، فقتل المسلمون ابن الحضرمي، قتله واقد بن عبد الله من أصحاب عبد الله بن جحش، وأسروا اثنين ممن معه، وفرَّ واحد. فأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». فأوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً.

وثارت المسألة أخذاً ورداً بين المسلمين قبل أن تتحدث فيها قريش حيث

قالوا: قد استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال، فقام من يرد عليهم من المسلمين في مكة، وقالوا: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان. فامتنع رسول الله ﷺ عن الغنائم والأسرى حتى يفصل الله في القضية؛ فنزل قول الله تعالى[1]: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) ﴾[البقرة][2]

وكان الله تعالى يقول: إن القتال في الشهر الحرام أمر عظيم، ولكن انظروا يا كفار قريش إلى ماصنعتم مع عبادي وقارنوا بين كبر هذا وكبر ذلك. أنتم يا كفار قريش تقولون: إن القتال في الشهر الحرام مسألة كبيرة، وهذا كلام صحيح ولكن صدكم عن سبيل الله وكفركم به، ومنعكم المسلمين من المسجد الحرام، وإخراج أهل مكة منها أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، فلا تفعلوا ما هو أكبر من القتال في الشهر الحرام، ثم تأخذكم غيرة مزعومة على الحرمات.

فكان الحق سبحانه أراد أن يُلزمنا: بألا نأخذ جزئية من الدين ونتحصن بها مع أن حياتنا كلها قائمة على الباطل.

---

(١) ذكر هذه القصة البيهقي في دلائل النبوة [٣/ ١٧- ١٩]، وابن هشام في السيرة النبوية [٢ / ٢٥٥- ٢٥٨]، والطبري في تفسيره [٢/ ٣٤٧ - ٣٤٨]، وابن كثير في البداية والنهاية [٣ / ٢٤٧- ٢٤٩].

(٢) قال ابن القيم: يقول سبحانه: هذا الذي أنكرتموه عليهم، وإن كان كبيراً، فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله، والصدِّ عن سبيله، وعن بيته، وإخراج المسلمين الذين هم أهله منه، والشرك الذي أنتم عليه، والفتنة التي حصلت منكم به أكبر عند الله من=

= قتالهم فى الشهر الحرام، وأكثر السلف فسروا الفتنة هاهنا بالشرك، كقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

أى: لم يكن مآل شركهم، وعاقبته، وآخر أمرهم، إلا أن تبرءوا منه، وأنكروه. وحقيقتها: أنها الشرك الذى يدعو صاحبه إليه، ويقاتل عليه، ويعاقب من لم يفتتن به، ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤] قال ابن عباس: تكذيبكم. وحقيقته: ذوقوا نهاية فتنتكم، وغايتها ومصير أمرها، كقوله: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]. وكما فتنوا عباده على الشرك، فتنوا على النار، وقيل لهم: ذوقوا فتنتكم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠] فُسِّرت الفتنة ها هنا بتعذيبهم المؤمنين وإحراقهم إياهم بالنار، واللفظ أعم من ذلك، وحقيقته: عذَّبوا المؤمنين ليفتنوا عن دينهم، فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين.

وأما الفتنة التى يضيفها الله سبحانه إلى نفسه، أو يضيفها رسوله إليه، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]. وقول موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] . فتلك بمعنى آخر، وهى بمعنى الامتحان، والاختبار، والابتلاء من الله لعباده بالخير والشر، بالنعم والمصائب، فهذه لون، وفتنة المشركين لون، وفتنة المؤمن فى ماله وولده وجاره لون آخر، والفتنة التى يوقعها بين أهل الإسلام، كالفتنة التى أوقعها بين أصحاب على ومعاوية، وبين أهل الجمل وصفين، وبين المسلمين، حتى يتقاتلوا ويتهاجروا لون آخر.

وهى الفتنة التى قال فيها النبى ﷺ: «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشى، والماشى فيها خير من الساعى»(١).

وأحاديث الفتنة التى أمر رسول الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين (٢)، هى هذه الفتنة. =

(١) أخرجه البخارى [٧٠٨١] بلفظ: «ستكون فتن» بدلاً من: «ستكون فتنة». ومسلم [٢٨٨٧/ ١٣] عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) عن حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركنى. فقلت: يا رسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم». قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم وفيه دَخَن» قلت: وما =

ويحذرنا الله تعالى من التراخى والكسل، فإن هؤلاء الكفار والمشركين لن يتركوا المؤمنين ودينهم، ولكنهم دائمون أبداً على محاربة المؤمنين وإلحاق الأذى بهم حتى يرجعوا عن دينهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ أى: إياكم أن تعتقدوا أنهم سيحترمون الشهر الحرام ولا المكان الحرام، بل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أى وسيُصِرّون، ويداومون على قتالكم ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن

= وقد تأتى الفتنة ويراد بها المعصية كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ يقوله الجد بن قيس، لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك، يقول: ائذن لى فى القعود، ولا تفتنى بتعرضى لبنات بنى الأصفر، فإنى لا أصبر عنهن، قال تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] أى: وقعوا فى فتنة النفاق، وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر.

وقال رحمه الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] من باب بدل الاشتمال، والسؤال إنما وقع عن القتال فيه، فَلِمَ قدَّم الشهر، وقد قلتم إنهم يقدمون ماهم ببيانه أهم، وهم به أعنى؟.

قيل: السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال فى الشهر، وتشنيع أعدائهم عليهم، وانتهاك حرمته، فكان اعتناؤهم واهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال. فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر؛ فلذلك قُدِّم فى الذكر؛ وكان تقديمه بلفظ الظاهر. وهلا اكتفى بضميره فقال: «قل هو كبير» وأنت إذا سألته عن زيد: أهو فى الدار؟ كان أوجز من أن تقول: أزيد فى الدار؟.

قيل: فى إعادته بلفظ الظاهر نكتة بديعة، وهى تعلق الحكم الخبرى باسم القتال فيه عموماً، ولو أتى بالمضمر وقال: «وهو كبير» لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسئول عنه، وليس الأمر كذلك، وإنما هو عام فى كل قتال وقع فى شهر حرام.

بدائع التفسير: [١/ ٣٩٣-٣٩٥]

= دخنه؟ قال: «قوم يهدون بغير هديى، تعرف منهم وتنكر» قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها» قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: «هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا» قلت: فما تأمرنى إن أدركنى ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام. قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك».

أخرجه البخارى [٧٠٨٤] واللفظ له، ومسلم [١٨٤٧/ ٥١]

دينكم إن استطاعوا﴾. وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إن استطاعوا﴾ «إن» معناها: تحدٍّ لهم بأنهم لن يستطيعوا أبداً فـ«إن» تأتي دائماً في الأمر المشكوك فيه (١).

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

---

(١) قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ جملة معترضة، دعا إلى الاعتراض بها مناسبة قوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ لما تضمنته من صدور الفتنة من المشركين على المسلمين، وما تضمنته الفتنة من المقاتلة التي تداولها المسلمون والمشركون.
إذ القتال يشتمل على أنواع الأذى، وليس القتل إلا بعض أحوال القتال، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج: ٣٩] ،فسمى فعل الكفار مع المسلمين مقاتلة، وسمى المسلمين مُقاتلين- بفتح التاء- وفيه إعلام بأن المشركين مضمرون غزو المسلمين ومستعدون له، وإنما تأخروا عنه بعد الهجرة؛ لأنهم كانوا يقاسون آثار سني جدب، فقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ وإن أشعر أن قتالهم موجود فالمراد به أسباب القتال، وهو الأذى وإضمار القتال كذلك، وأنهم إن شرعوا فيه لا يقطعوا عنه، على أن صريح «لا يزال» الدلالة على أن هذا يدوم في المستقبل، و ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية وهي هنا غاية تعليلية والمعنى: أن فتنتهم وقتالهم يدوم إلى أن يحصل غرضهم وهو أن يردوكم عن دينكم. وقوله: ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ تعريض بأنهم لا يستطيعون رد المسلمين عن دينهم، فموقع هذا الشرط موقع الاحتراس مما قد توهمه الغاية في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ ولهذا جاء الشرط بحرف: ﴿إِنْ﴾ المشعر بأن شرطه مرجو عدم وقوعه.
والرد: الصرف عن شيء والإرجاع إلى ما كان قبل ذلك، فهو يتعدى إلى المفعول بنفسه وإلى ماراد على المفعول بإلى وعن، وقد حذف هنا أحد المتعلقين وهو المتعلق بواسطة إلى؛ لظهور أنهم يقاتلونهم ليردوهم عن الإسلام إلى الشرك الذي كانوا عليه؛ لأن أهل كل دين إذا اعتقدوا صحة دينهم حرصوا على إدخال الناس فيه. قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] ، وقال: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ [النساء: ٨٩]. =

خالدون﴾ هذه الآية يقابلها آية أخرى يقول الحق فيها: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وإذا قارنّا بين الآيتين نجد أن الآية الأولى قد ورد فيها قوله تعالى: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ وفي سورة المائدة لم يرد هذا، وإنما ورد قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾. وقد اختلف العلماء في المسألة. ولكنهم اتفقوا أولاً على أن أي إنسان يرتد عن الإسلام ثم يموت مرتدًا فقد حبطت أعماله. ولكن اختلافهم تركز فيما لو رجع وآمن مرة ثانية، أي لم يمت وهو كافر، بل رجع فآمن بعد ردته، فهل حبط عمله السابق على ردته أم لم يحبط؟

الإمام الشافعي يقول: إن الذي يرتد عن الدين تحبط أعماله إن مات على الكفر، أما إن عاد وأسلم مرة أخرى فإن أعماله التي كانت قبل الارتداد تكون محسوبة له.

والإمام أبو حنيفة له رأي مختلف فهو يقول: لا، إن آية سورة المائدة ليس فيها: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ وعليه فإننا نحملها على آية سورة البقرة التي ذكر فيها ذلك من باب حمل المطلق على المقيد، وعلى ذلك فالذي يكفر بعد إيمانه عمله السابق محبط سواء رجع إلى الإيمان بعد ذلك أو لم يرجع.

مثال ذلك: هب أن إنساناً آمن وأدى فريضة الحج ثم ارتد إلى الكفر، ثم رجع فآمن أيظل له ثواب الحجة التي قام بها قبل الكفر، أم يحبط ثوابه ويطلب منه حج جديد؟. فالشافعي يرى أنه لا يحبط عمله مادام قد رجع

= وتعليق الشرط بـ[إن] للدلالة على أن استطاعتهم ذلك ولو في آحاد المسلمين أمر مستبعد الحصول؛ لقوة إيمان المسلمين، فتكون محاولة المشركين رد واحد من المسلمين عناء باطلاً.

التحرير والتنوير: [٢ / ٣٣١]

لأن الله قال: ﴿فيمتْ وهو كافر﴾. فمعنى ذلك أنه إن لم يمت على الكفر فإن عمله لا يحبط. ولكن لا يأخذ ثوابًا على ذلك الحج الذى سبق له أن أداه، لقد التفت الإمام الشافعى - رضى الله تعالى عنه - إلى شئ قد يغفل عنه كثير من الناس، وهو أن الحج ركن من أركان الإسلام، فالذى لا يحج وهو قادر على الحج فالله يعاقبه على تقصيره، والذى حج لا يعاقب ويأخذ ثواب فعله (١).

(١) معنى الرِّدَّة لغة: الرجوع عن الشئ إلى غيره، وهى أفحش الكفر وأغلظه حكماً، ومحبطة للعمل إن اتصلت بالموت عند الشافعية، وبنفس الردة عند الحنفية، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وهى شرعاً: الرجوع عن دين الإسلام إلى الكفر سواء بالنية أو بالفعل المكفِّر أو بالقول، وسواء قاله استهزاءً أو عناداً أو اعتقاداً.

وعلى هذا فالمرتد: هو الراجع عن دين الإسلام إلى الكفر،مثل من أنكر وجود الصانع الخالق، أونفى الرسل، أو كذب رسولاً، أو حلل حراماً بالإجماع: كالزنا واللواط وشرب الخمر والظلم، أو حرَّم حلالاً بالإجماع: كالبيع والنكاح، أو نفى وجوب مجمع عليه: كأنه نفى ركعة من الصلوات الخمس المفروضة، أو اعتقد وجوب ماليس بواجب بالإجماع: كزيادة ركعة من الصلوات المفروضة، أو وجوب صوم شئ من شوال، أو عزم على الكفر غداً، أو تردد فيه. الفقه الإسلامى وادلته [٦ / ١٨٣]

وقال ابن العربى: اختلف العلماء رحمة الله عليهم فى المرتد، هل يُحبِط عَمَلَه نفسُ الردة أم لايُحبط إلا على الموافاة على الكفر؟.

فقال الشافعى: لا يحبط له عمل إلا بالموافاة كافراً. وقال مالك: يحبط بنفس الردة. ويظهرالخلاف فى المسلم إذا حج ثم ارتد ثم أسلم، فقال مالك: يلزمه الحج؛ لأن الأول قد حبط بالردة. وقال الشافعى: لا إعادة عليه لأن عمله باق.

واستظهر عليه علماؤنا بقول الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقالوا: هو خطاب للنبى ﷺ، والمراد به أمته؛ لأنه ﷺ يستحيل منه الردة شرعاً.

وقال أصحاب الشافعى: بل هو خطاب للنبى ﷺ على طريق التغليظ على الأمة،وبيان أن النبى ﷺ على شرف منزلته لو أشرك لحبط عمله، فكيف أنتم؟ لكنه لا يشرك=

على الإيمان؛ فكأن الأعمال التى طلبها منك الحق سبحانه وتعالى وكلفك بها إن لم تفعلها عوقبت، وإن فعلتها يمر عملك على مرحلتين:

المرحلة الأولى: هى ألا تعاقب.

المرحلة الثانية: هى أن تُثاب على الفعل.

قال الشافعى: إن الشخص إذا فعل فعلاً يُثاب عليه الإنسان، ثم كفر، ثم عاد إلى الإسلام فهو لا يعاقب، ولكنه لا يُثاب.

أما الإمام أبو حنيفة فقد قال: إنه لاعبرة بعمله الذى سبق الردة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٢] أى: أُبطلت، وزالت. وكأنها لم تكن؛ إن كلمة: «حبط»، تستخدم تعبيراً عن الأمر المحسوس، فيقال: «حبطت الماشية» أى: أن تأكل كثيراً حتى تنتفخ بطنها، وعندما تنتفخ فقد تموت.

= لفضل مرتبته، كما قال الله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وذلك لشرف منزلتهن، وإلا فلا يُتصور إتيان فاحشة منهن، صيانة لصاحبهن المكرم المعظم.

قال ابن عباس حين قرأ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] والله ما بغت امرأة نبى قط، ولكنهما كفرتا.

وقال علماؤنا: إنما ذكر الموافاة شرطاً هاهنا؛ لأنه علَّق عليها الخلود فى النار جزاءً، فمن وافى كافراً، خلّده الله فى النار بهذه الآية، ومن أشرك حبط عمله بالآية الأخرى، فهما آيتان مفيدتان لمعنيين مختلفين وحكمين متغايرين، وما خوطب به النبى ﷺ فهو لأمته حتى يثبت اختصاصه به، وما ورد فى أزواجه ﷺ فإنما قيل ذلك فيهن؛ ليبين أنه لوتُصور لكان هَتْكاً لحرمة الدين وحرمة النبى ﷺ ، ولكل هتك حرمة عقاب، وينزل ذلك منزلة من عصى فى شهر حرام، أو فى البلد الحرام، أو فى المسجد الحرام، فإن العذاب يضاعف عليه بعدد ماهتك من الحرمات، والله الواقى لا رب غيره.

أحكام القرآن :[١ / ١٤٧، ١٤٨]

والنبى ﷺ يقول: «إن مما ينبت الربيع مايقتل حَبَطاً أو يُلِمُّ» (١).

إنه ﷺ يحذرنا من أن الخير قد يندس فيه شر، مثلما يحدث فى الربيع الذى ينبت فيه من النبات الذى يعجب الماشية، فتأكله بكثرة فتنتفخ ثم تمت، أو «يُلِمُّ» أى: توشك أن تموت، وكذلك الأعمال التى فعلها الكفار تصبح ظاهرة مثل انتفاخ البطن، وكل هذه الأعمال الباطلة ستحبط كما تحبط الماشية التى أكلت هذا النوع من النبات، ثم انتفخت فيظن المشاهد لها أنها سمنة؛ وبعد ذلك يفاجأ بأنه مرض.

لقد أعطانا رسول الله ﷺ من هذا القول المعنى المحسوس لتشابه الصورتين؛ فالماشية عندما تحبط تبدو وكأنها نمت وسمنت، لكنه نمو غير طبيعى، إنه ليس شحماً أو لحماً، لكنه انتفاخ، كذلك عمل الذين كفروا؛ عمل حابط، وإن بدا أنهم قد قاموا بأعمال ظاهرها أنها طيبة وحسنة.

ويقول بعض الناس: هؤلاء الكفار الذين صنعوا إنجازات قد استفادت منها البشرية، هل من المعقول أن تصير أعمالهم إلى هذا المصير؟ لقد اكتشفوا علاجاً لأمراض مستعصية وخففوا آلام الناس، وصنعوا أشياء كثيرة نافعة للبشرية كلها. ونقول لأصحاب مثل هذا الرأى: لمن يساوره شك فى أن عمل هؤلاء مُحبط، أن هناك قضية يجب أن نتفق عليها وهى

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٦٤٢٧] عن أبى سعيد بلفظ: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من بركات الأرض» قيل: وما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا» فقال له رجل: هل يأتى الخير بالشر؟ فصمت النبى ﷺ حتى ظننت أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه فقال: «أين السائل؟» قال: أنا. قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع لذلك. قال: «لا يأتى الخير إلا بالخير، إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حَبَطاً أو يلمُّ إلا آكلة الخضرة؛ أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت، ثم عادت فأكلت وإن هذا المال حُلوةٌ، من أخذه بحقه ووضعه فى حقه، فنعم المعونة هو، وإن أخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع». وأخرجه مسلم [١٠٥٢/١٢٢].

أن الذى يعمل عملاً، فهو يطلب الأجر ممن عمل له، فهل كان هؤلاء يعملون وفى بالهم الله، أم فى بالهم الإنسانية والمجد والشهرة؟ (١) لقد أعطتهم الإنسانية المجد والشهرة، وما داموا قد نالوا هذا الأجر فى الدنيا التى عملوا لها فليس لهم أن ينتظروا أجراً فى الآخرة التى لم تكن فى بالهم حين عملوا ما عملوا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٢) [النور:٣٩].

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد. فأُتى به فعرَّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يقال: جرىء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت. ولكنك تعلَّمت العلم ليقال: عالم. وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله. فأُتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه. ثم ألقى فى النار». أخرجه مسلم [١٩٠٥/١٥٢].

(٢) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ لما ضُرب مثل المؤمن ضُرب مثل الكافر. والسَّراب: مايُرى نصف النهار فى اشتداد الحر، كالماء فى المفاوز يلتصق بالأرض. والآلُ الذى يكون ضُحاً كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء. وسُمى السراب سراباً؛ لأنه يَسْرُبُ أى: يجرى كالماء. ويقال: سَرَبَ الفحل أى: مضى وسار فى الأرض. ويسمى الآل أيضاً، ولايكون إلا فى البريَّة والحرِّ فيغتر به العطشان. والقيعة جمع القاع؛ مثل جيرة وجار؛ قاله الهروى، وقال أبو عبيدة: قيعة وقاع واحد؛ حكاه النحاس. والقاع ما انبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت، وفيه يكون السَّراب. وأصل القاع الموضع المنخفض الذى يستقر فيه الماء، وجمعه قيعان. قال الجوهرى: والقاع: المستوى من الأرض؛ والجمع أقوع وأقواع=

إن الذى يمت وهو كافر، أعماله فى الآخرة كالسراب الذى يراه الإنسان فى الصحراء فيظنه ماءً، حتى إذا جاءه لم يجد ماءً، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للكافرين به - سبحانه - عندما يحشرون إلى الله تعالى، فيعرضون عليه سبحانه، فلن يجدوا أثراً لعملهم الذى أُحبط بكفرهم، ولن يجدوا إلا الله تعالى لهم بالمرصاد. ويجد الواحد منهم نفسه فى الآخرة أمام لحظة الحساب فيوفيه الله حسابه بالعقاب، وليس لهم من جزاء إلا النار، وينطبق عليهم ماينطبق على كل الكافرين بالله وهو ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

هذا، وإن الحق سبحانه وتعالى يوضح حقيقة الأمر للمؤمنين به وبرسوله ﷺ حتى يعطيهم مناعة إيمانية ضد آمال الكافرين فى الإضرار بالمؤمنين، فيعلمنا أنهم لن يدخروا وسعاً حتى يردوكم عن دينكم؛ لأن منهج الله دائماً لا يخيف إلا المبطلين؛ فالإنسان السوى الذى يريد أن يعيش العالم فى سلام ويأخذ من الخير على قدر حركته فى الوجود لا ترهقه سيادة مبادئ الإسلام، إنما ترهق مبادئ الإسلام هؤلاء الذين يريدون أن يسرقوا جهد غيرهم، وهم يبذلون كل الجهد ويستخدمون كافة الأساليب التى تصرف المسلمين عن دينهم، ولكن هل يُمكّنهم الله من ذلك؟

= وقيعان، صارت الواو ياء لكسر ماقبلها؛ والقيعة مثل القاع، وهو أيضًا من الواو. وبعضهم يقول: هوجمع. ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ﴾ أى العطشان ﴿مَاءً﴾. أى يحسب السراب ماء. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ مما قدّره ووجد أرضًا لا ماء فيها. وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للكفار، يُعوِّلون على ثواب أعمالهم، فإذا قدموا على الله تعالى وجدوا ثواب أعمالهم مُحبَطة بالكفر؛ أى لم يجدوا شيئاً كما لم يجد صاحب السراب إلا أرضًا لا ماء فيها، فهو يهلك أو يموت ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾. أى: وجد الله بالمرصاد. ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أى جزاء عمله.

وقيل: وجد وعد الله بالجزاء على عمله. وقيل: وجد أمر الله عند حشره، والمعنى متقارب. تفسير القرطبى :[١٢ / ٢٨٢، ٢٨٣] بتصرف.

لا؛ لن يمكنهم الله من أمة حبيبه ﷺ فمهما علا الباطل فهو إلى زوال، ولابد لهذا الليل الطويل الذى يعيشه المسلمون أن ينجلى - إن شاء الله تعالى- فمن فضل الله تعالى علينا أن جعل مناعتنا ذاتية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفى الحديث يقول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك»[1].

إن الفرق الجوهرى بين المؤمن والكافر، هو أن المؤمن إنما يعمل العمل الصالح وفى نيته أن المكافئ هو الله تعالى، وهو يتجه إليه سبحانه بنية خالصة فى كل عمل. ويأخذ بأسباب الله فى العلم لينتفع به غيره من الناس؛ فتكون الفائدة عميمة وعظيمة، وعلى المؤمن أن يكون منارة تشع بالعلم والإيمان، لا أن يترك غيره من الكافرين يعملون ويجدون فى سبيل الوصول إلى المكتشفات العلمية وهو متواكل كسلان؛ إن المؤمن أولى بذلك من الكافر.

أما عمل الكافر فهو عمل من مُسخَّر كالمطايا والجماد والنبات والحيوان، فإن كل ذلك مُسخَّر لخدمة الإنسان. وإذا كان الله قد ميز المؤمن على الكافر بالأجر فى الدنيا وحسن الثواب فى الآخرة، ألا يحفز هذا المؤمن أن يسبق الكافر فى تنمية المجتمع، وأن يكون بعمله منارة هداية لمن حوله؟!

نسأل الله تعالى أن يوفق المؤمنين فى جهدهم وجهادهم. وأن يكونوا دائماً عوناً للحق على الباطل؛ حتى يتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وأن ينصروا الله فى أنفسهم باتباع أمره، واجتناب نهيه؛ لينصرهم سبحانه؛ ويعلى من شأنهم؛ ويظهرهم على عدوهم

وصلى الله تعالى على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه مسلم [١٩٢٠ / ١٧٠] عن ثوبان رضى الله تعالى عنه.

مصادر الدراسة والتحقيق

القرآن الكريم وعلومه

أسباب النزول	للسيوطي	المكتبة الثقافية	بيروت
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن	محمد فؤاد عبد الباقي	دار الجيل	بيروت
المعجم المفهرس لآيات القرآن	محمد منير الدمشقي	مكتبة التراث الإسلامي	مصر
معجم الاعلام والموضوعات في القرآن	عبد الصبور مرزوق	دار الشروق	مصر
القاموس القويم للقرآن الكريم	إبراهيم أحمد عبد الفتاح	مجمع البحوث	مصر
جامع البيان	لابن جرير الطبري	إحياء الكتب العربية	مصر
تفسير الطبري	لابن جرير الطبري	دار المعارف	مصر
تفسير القرآن العظيم	لابن أبي حاتم	مكتبه الباز	السعودية
التفسير الكبير	فخر الدين الرازي	إحياء التراث	بيروت
الجامع لأحكام القرآن	القرطبي	دار الكتب	مصر
البحر المحيط	لأبي حيان	دار الفكر	بيروت
تفسير القرآن العظيم	لابن كثير	دار الجيل	بيروت
بصائر ذوي التمييز	للفيروزآبادي	المجلس الأعلى	مصر
الكشاف	للزمخشري	دار المعرفة	بيروت
الدر المنثور	للسيوطي	دار الفكر	بيروت
فتح القدير	للشوكاني	دار الوفاء	مصر

محاسن التأويل	للقاسمى	إحياء الكتب العربية	مصر
تفسير المنار	محمد رشيد رضا	هيئة الكتاب	مصر
التحرير والتنوير	محمد الطاهر بن عاشور	الدار التونسية	تونس
عمدة التفسير	أحمد محمد شاكر	مكتبة التراث الإسلامى	مصر
أحكام القرآن	لابن العربى	دار الجيل	بيروت
بدائع التفسير	لابن القيم	دار ابن الجوزى	السعودية

الحديث النبوى وعلومه

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث	مجموعة مستشرقين	مكتبة بريل	ليدن
تحفه الأشراف بمعرفة الأطراف	للإمام المزى	المكتب الإسلامى	بيروت
موسوعة أطراف الحديث	سعيد زغلول	دار الكتب العلمية	بيروت
أطراف مسند الإمام أحمد	ابن حجر العسقلانى	دار ابن كثير	سوريا
الجامع الصحيح	للإمام البخارى	المكتبة السلفية	مصر
الجامع الصحيح	للإمام مسلم	إحياء الكتب العربية	مصر
سنن أبى داود	للإمام لأبى داود	دار الجيل	بيروت
سنن النسائى	للإمام النسائى	المطبوعات الإسلامية	بيروت
سنن الترمذى	للإمام الترمذى	إحياء الكتب العربية	مصر
سنن ابن ماجة	للإمام ابن ماجة	عيسى الحلبى	مصر
الموطأ	للإمام مالك	دار الحديث	مصر
المسند	للإمام أحمد بن حنبل	المطبعة الميمنية	مصر
المسند بتحقيق الشيخ شاكر	للإمام أحمد بن حنبل	مكتبة التراث الإسلامى	مصر

سنن الدارمى	للإمام الدارمى	دار الفكر	بيروت
السنن الكبرى	للإمام النسائى	دار الكتب العلمية	بيروت
المستدرك	للحاكم	دار الكتب العلمية	بيروت
المعجم الكبير	للطبرانى	إحياء التراث العربى	بيروت
السنن الكبرى	للبيهقى	دار الكتب العلمية	بيروت
عمل اليوم والليلة	للنسائى	دار الكتب الثقافية	بيروت
دلائل النبوة	للبيهقى	دار الكتب العلمية	بيروت
كنز العمال	علاء الدين الهندى	دار الرسالة	بيروت
صحيح سنن أبى داود	الألبانى	مكتبة التربية العربى	بيروت
صحيح سنن النسائى	الألبانى	مكتبة التربية العربى	بيروت
صحيح سنن الترمذى	الألبانى	مكتبة التربية العربى	بيروت
صحيح ابن ماجة	الألبانى	مكتبة التربية العربى	بيروت
صحيح الجامع الصغير	الألبانى	المكتب الإسلامى	بيروت
مجمع الزوائد	للهيثمى	مؤسسة المعارف	بيروت
شرح صحيح مسلم	النورى	دار أبى حيان	مصر
فتح البارى شرح صحيح البخارى	ابن حجر العسقلانى	دار الفكر	بيروت

كتب اللغة

لسان العرب	لابن منظور	دار صادر	بيروت
المعجم الوسيط	مجمع اللغة العربية	دار الدعوة	تركيا

كتب الفقه

الفقه الإسلامى وأدلته	د. وهبه الزحيلى	دار الفكر	سوريا

كتب متنوعة

بيان وجوب الهجرة على العباد	عثمان بن فودى	جامعة إكسفورد	بريطانيا
جلاء الأفهام	لابن القيم	دار ابن الجوزى	السعودية
طريق الهجرتين	لابن القيم	مكتبة المؤيد	السعودية

الفهـــارس

الآية	السورة	الصفحة
	٣٧ – الطور	
٣٥	﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾	٢٢
	٣٨ – القمر	
٥٤	﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾	١١٢
	٣٩ – الحديد	
١٣	﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾	٢٩
١٤	﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾	٣٠
٢٣	﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا ﴾	٢٠٧
٢٥	﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾	٥٠
٢٥	﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾	٥٠
	٤٠ – المجادلة	
١٤	﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾	٢٧
	٤١ – الممتحنة	
٨	﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾	١٠٠
	٤٢ – الصف	
٤	﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ ﴾	٥٢
١٢:١٠	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾	١٤٦
١٠	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾	١١١،٥٢
١٣	﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾	١٤٦
	٤٣ – المنافقون	
٣	﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾	٣٠
٤	﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾	٢٨

الآية	السورة	الصفحة
	٤٤ – التغابن	
١٦	﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾	١٧٣
	٤٥ – التحريم	
٩	﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾	٢٦،٢٤،١٦
	٤٦ – القلم	
١	﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾	١٢١
	٤٧ – المزمل	
١٠	﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾	١٢٢
١٢	﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا ﴾	٨٩
	٤٨ – المدثر	
١١	﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾	١٢١
٣١	﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾	١٧
	٤٩ – المطففين	
٢٦	﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ﴾	١٤٠
	٥٠ – الفجر	
٦	﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾	١١٤
٢٧	﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾	١٧
	٥١ – الشمس	
٨	﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾	١٦

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الراوى	الصفحة
ابدأ بنفسك ثم بمن تعول	حكيم بن حزام	١٧٨
أتحبه لأمك؟	أبو أمامة الباهلى	١١٦
أتدرون ما المفلس	أبو هريرة	٢٩
أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك	أبو هريرة	١٩٤
أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله	ابن أبى مليكة	٣٦
ادعوا فلانًا	البراء بن عازب	٥٤
إذا استنفرتم فانفروا	ابن عباس	١٢٨
إذا تواجه المسلمان بسيفيهما	أبو بكرة	٦٣
إذا سمعتم المؤذن فقولوا	عبد الله بن عمرو	٣٩
إذا ضن الناس بالدينار	ابن عمر	١٥٣
إذا فتحتم مصر فاستوصوا	كعب بن مالك	١٦٢
إذا مرض العبد أو سافر	أبو موسى الأشعرى	٦٣
أرواحهم في جوف طير خضر	ابن مسعود	١٥٥
الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله	عمر بن الخطاب	٣٨
أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من	جابر بن عبدالله	١١
أفضل الشهداء الذين إن يلقوا	نعيم بن همار	١٥٦
أفضل الصدقة عن ظهر غنى	حكيم بن حزام	١٧٨
أقال : لا إله إلا الله ، وقتلته	أسامة بن زيد	١٧٠
اقتلوه	أنس بن مالك	١٨٦
اكتب	زيد بن ثابت	٥٥
اكتب ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ ﴾	زيد بن ثابت	٥٤

الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن	رباح بن الربيع	١٧٢
اللهم آت نفسى تقواها	أبو هريرة	١٦
اللهم إن كان هذا هو الحق	أنس بن مالك	١١٨
اللهم بارك لأمتى فى بكورها	صخر بن وداعة	١٥٤
أمرت أن أقاتل الناس	أبو هريرة	٨٣
إن أبا بكر الصديق بعث جيوشًا	يحيى بن سعيد	١٧٢
إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف	أبو موسى الأشعرى	١٥٣
إن أرواح الشهداء فى جوف طير	ابن مسعود	١٥٥
إن أقواماً بالمدينة خلفنا	أنس بن مالك	٦٣
إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه	أبو هريرة	١٧٠
إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيراً	أنس بن مالك	٦٣
إن خالد بن الوليد بالغميم	المسور بن مخرمة	١٦٥
أن رجلاً أتى ابن عمر فقال:	ابن عمر	١٩٠
أن رسول الله ﷺ أملى عليه	زيد بن ثابت	٥٤
أن رهطًا من عكل	أنس بن مالك	١٩٥
إن فى الجنة مائة درجة	أبو هريرة	١٤٩،٥٣
إن الله عز وجل أمرنى أن أعلمكم	عياض بن حمار	١٦
إن للشهيد عند الله خصالاً	المقدام بن معد يكرب	١٥٥
إن للشهيد عند الله ست خصال	المقدام بن معد يكرب	١٥٥
إن المؤمن للمؤمن كالبنيان	أبو موسى الأشعرى	٨٩
أن يهوديًا رضخ رأس جارية	أنس بن مالك	١٩٧
أنا زعيم لمن آمن بى	فضالة بن عبيد	١٤٩
أنا عبد الله ورسوله	عمر بن الخطاب	١٦٤
أنت وحشى	وحشى بن حرب	١٨٨

حرف الثاء

حرف الكاف واللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء والواو

حرف اللام ألف

حرف الياء

فهرس البلدان والأماكن

حرف الهمزة

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الشين

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف القاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف اللام ألف

حرف الياء

فهرس الأعلام

حرف الهمزة

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأشعار

صدر البيت	عجز البيت	الراوى	الصفحة
قافية النون			
ولو أن الحياة تبقى لحى	لعدرنا أضلنا الشجعانا	-	١٠٨
قوم إذا الشر أبدى	زرافات ووحدانا	-	١٦٠
جهلاً علينا وجبنًا	بئست الخلتان الجهل والجبن	-	٣٣
قافية الياء			
ألا أيها الزاجرى	هل أنت مخلدى؟	-	١٠٩

فهرس الموضوعات